المحتويات



مُقَدِّمَة

إن المتأمل في حياة الأنبياء والرسل - عليهم السلام - يجدها أمثل حياة وأكرمها وأشرفها، ولمَ لا، وقد شرَّفهم الله بالنبوة، وأعطاهم الحكمة، ورجاحة العقل، وسداد الرأي، واختارهم ليكونوا رسلًا بينه وبين خلقه؛ فكانوا نموذجًا للكمال، وعنوانًا للفضل، وحملة لمشعل النور والضياء، وقادة لركب الإنسانية على مرِّ الأزمان وكرِّ الدهور، واصطفاهم ﷻ ليكونوا هداة ومصلحين فاختارهم على علمه، ورباهم على عينه، وشرَّفهم بأكمل الأوصاف، فجعلهم أئمة الدنيا والدين.

هذا، وقد كانت حياة محمد ﷺ سيد الأنبياء والرسل وخاتمهم في قمة سامقة في الشرف والكمال، فلم تُعرف له هفوة، ولم تُحصَ عليه زلة - سواء قبل بعثته أم بعدها -، بل امتاز ﷺ بسمو الخلق، ورجاحة العقل، وعظمة النفس، وحُسْن الأحدوثة بين الناس، ثم نبأه الله ﷻ وبعثه، فنمت فيه هذه الفضائل وترعرعت، حتى أضحت حياته فريدة في تاريخ هذه الحياة.

فمن أين له هذا؟! وهو اليتيم الذي تعرَّض منذ طفولته لمحنة اليُتم والفقر. من أين له هذا؟! وهو الأُمِّي الذي لم يجلس طيلة حياته إلى معلم. من أين له هذا؟! وهو الذي نشأ في بيئة سيطرت عليها الجاهلية سيطرة كاملة في مجال العقيدة، والفكر، والأخلاق، حتى لا تكاد تجد إنسانًا يسلم من وراثة البيئة، وعدوى التقاليد الجاهلية الموروثة عن الآباء والأجداد؟! كيف نجا محمد ﷺ من تلك المؤثرات القوية؟! لا بد أن يكون هناك سر وراء هذا الكمال الذي ليس بعده كمال، فما هذا السر؟!

يجيب د. عماد السيد الشربيني عن هذه الأسئلة قائلًا: "إنك لا تستطيع أن تدرك سر كمال عقله ﷺ وعقيدته، وأخلاقه، وبراءته من كل نقائص ومثالب بيئته التي نشأ فيها. إلا أن تقول: إنه الإعداد الإلهي للنبوة ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

إنها العصمة الربانية، تلك التي حفظته من بيئة الجاهلية، فلم يصبه أذى من غبارها، فكان ﷺ أكمل الناس خَلقًا وخُلقًا". نعم. إن محمدًا ﷺ قائد الخَلْق إلى مكارم الأخلاق، وما كان له بذلك من يد، لولا العصمة الربانية التي أحاطت به قبل نبوته وبعدها.

أمام هذه الحقائق الناصعة، نجد خصوم الرسالة المحمدية - على اختلاف مشاربهم وأغراضهم - منذ أعلن النبي ﷺ دعوته لا يكفُّون عن الكيد لصاحب هذه الرسالة؛ لإطفاء نورها وصدّ الناس عنها، فنجدهم قد حاولوا بشتى الطرق القضاء على حياته بقوة السيف، فلمَّا لم يمكِّنهم الله من ذلك، أخذوا يشنون عليه حربًا فكرية شعواء، وسخَّروا لهذه الحرب ألسنتهم وأقلامهم المسمومة، وهم - حتى وقتنا هذا - في غاية التربُّص لتصيُّد العثرات والزلَّات - كما يتخيَّلون - من حياته ﷺ. فلما أعياهم البحث وطال انتظارهم، ويئسوا من العثور على شيء من ذلك، طَفِقوا

يفترون الكذب، ويكيلون الاتهامات زورًا، ويرمونه ﷺ بكل نقيصة، ولم يتورَّع هؤلاء عن صرف الحقائق عن وجهها، بل ورفضها في كثير من الأحيان، على حين نجدهم يقبلون الأخبار المختلقة والموضوعة ويجعلونها أدلة على اتهاماتهم الزائفة.

هذا وقد ركَّز هؤلاء الخصوم في حربهم تلك على إثارة الشبهات حول مقوِّمات نبوته ﷺ:

عقيدته؛ لأنها لبُّ دعوته ﷺ، فقد بعثه الله بعقيدة التوحيد الخالص؛ ليقضي على الشرك والوثنية، **وعصمته**؛ لأنها الدليل على حُجيَّة ما جاء به ﷺ من قرآن وسنة، وكونه قدوة للمسلمين، **ومعجزاته**؛ لأنها الدليل على تأييد الله له، وتصديقه إياه.

من هذه البواعث جاء هذا الجزء للتصدِّي لهذه الافتراءات والأباطيل، وللرد على الشبهات المثارة حول عقيدته، وعصمته، ومعجزاته ﷺ، ومن ثم قُسِّم هذا الجزء إلى محاور ثلاثة هي:

١. الرد على الشبهات المثارة حول عقيدته ﷺ مثل: الزعم أنه ﷺ اختلق الإسلام لكي يعبده المسلمون، والزعم أنه ﷺ مدح أصنام المشركين... إلخ.

٢. الرد على الشبهات المثارة حول عصمته ﷺ مثل: إنكار عصمته ﷺ قبل البعثة، وادعاء أن خطأه ﷺ في بعض اجتهاداته يتنافى مع عصمته... إلخ.

٣. الرد على الشبهات المثارة حول معجزاته ﷺ مثل: دعوى أن معجزاته ﷺ ما هي إلا حكايات وأساطير، والتشكيك في ثبوت معجزة الإسراء والمعراج... إلخ.

هذا، وقد أردنا من خلال مناقشة هذه الشبهات، وكشف زيفها التأكيد على عدة حقائق منها:

- أن الله بعث نبيه ﷺ بعقيدة التوحيد الخالص؛ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلام الشرك إلى نور الإيمان.
- أن سيرة النبي ﷺ منذ أن ولدته أمه حتى توفاه الله تشهد بعصمة الله له من أقذار الجاهلية، وما فيها من شرك ووثنية.
- أن ما يزعمه بعضهم من حجج قرآنية تنفي عصمته ﷺ ما هي إلا أوهام ناتجة عن سوء فهم لمعاني القرآن، وجهل بسيرته ﷺ.
- أن عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان ثابتة بالشواهد والأدلة، فكما حفظه الله من كل قُوَى الشر الظاهرة، حفظه من كل قوى الشر الخفية من الجن والشياطين.
- أن عصمته ﷺ في بدنه من القتل لا تتعارض بحال من الأحوال مع ابتلائه ﷺ بضروب من المحن والشدائد، وما ذلك إلا لرفع درجته ﷺ.
- أن الرسول ﷺ ليس بدعًا من الرسل فيما أظهر الله على يديه من المعجزات، فلكل نبي من الأنبياء معجزاته

الدالة على نبوته.

- أن معجزة الإسراء والمعراج ثابتة بالكتاب والسنة، وقد قدَّم النبي ﷺ لكفار قريش الأدلة التي تثبت صدقه في الحديث عنها.
- لم يُعطَ أحد من الأنبياء والمرسلين معجزة ولا فضيلة، إلا وقد أُعطي محمد ﷺ مثلها وأبلغ منها، واختُص ﷺ دونهم بالمعجزة الخالدة إلى يوم الدين ألا وهي القرآن الكريم.

وفي النهاية لا يسعنا إلا أن نقول: إن حياة النبي ﷺ كانت سلسلة من الخوارق التي علت عن الأسباب والمسببات، فلم تكن أثر تربية موجهة، ولا أثر بيئة، ولكنها صنع الله، لقد كان ﷺ معجزة بشخصه ووجوده، ففيه البشرية، وفيه المعجزة الإلهية. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ (النجم).

الشبهة الأولى

ادعاء أن محمدًا ﷺ اختلق الإسلام ليعبده المسلمون(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الطاعنين أن محمدًا ﷺ افترى دعوته إلى الإسلام؛ رغبة منه في أن يعبده أتباعه ويقدسوه. ويبرهنون على وقوع ذلك بما يزعمونه من أن المسلمين قد صنعوا له صنمًا من ذهب وفضة، كانوا يحملونه في معاركهم، ثم زخرت المساجدُ من بَعْد بتماثيل له وصُوَر، وكلها مظاهر تأليه دعا لها محمد ﷺ، حين قرن طاعته بطاعة الله في القرآن، ممثلين لذلك بقوله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ (المائدة)، متوهمين أن في هذه الآية ما يثبت رغبة النبي ﷺ في تأليه ذاته، تلك الرغبة التي انتهت بالمسلمين إلى أن عُرِفوا باسم المُحَمّديين. ويرمون بهذا إلى القدح في معتقد النبي ﷺ وفي إخلاصه في الدعوة إلى التوحيد.

وجوه إبطال الشبهة:

1) إفراد الله ﷻ بالعبادة هو محور العقيدة الإسلامية، ولم يُقِم المسلمون تمثالًا للنبي داخل مساجدهم ولا خارجها.

2) نهى النبي ﷺ عن المبالغة في إطرائه، ولم تقترن طاعته بطاعة الله ﷻ في القرآن إلا لأنه ﷺ المبلِّغ عن ربه.

3) لا يسمِّي المسلمون أنفسهم "محمديين" وإنما أطلقه بعض الغربيين عليهم، كما نسبوا أنفسهم إلى المسيح فقيل لهم "مسيحيون".

التفصيل:

أولا. توحيد الله وإفراده بالعبادة هو محور العقيدة الإسلامية:

إن من أعجب الأعاجيب أن يُنزل الله ﷻ كتابًا من السماء على قلب محمد ﷺ يشتمل على العديد من الآيات التي تسفِّه عبادة الأصنام، وتنكر على المشركين هذه العبادة، وتأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ثم نجد مجموعة من الطاعنين يدَّعون أن محمدًا ﷺ دعا إلى عبادة الأصنام يومًا، أو رضي بأن يُصنع له صنم يأخذه المسلمون معهم في الغزوات، فيا للعجب! ولو كانت دعوة النبي ﷺ هكذا لما استمر الإسلام إلى اليوم؛ لأنه في تلك الحالة يكون دينًا يحوي المتناقضات، فكيف يعادي العرب ويحاربهم من أجل عبادتهم للأصنام، ثم يدعوهم إلى عبادتها بعد ذلك، إن هذا الكلام ضرب من الهذيان والجنون، ثم أين هذا الصنم الذي يحمله المسلمون معهم في معاركهم؟ ولماذا يصنع المسلمون أصنامًا؟ وفي أي كتاب ورد هذا الكلام؟ ومتى حدث هذا؟ وأين هذا الصنم الآن؟ والحقيقة التي يحاول الكثيرون من الغربيين والعلمانيين طمسها، هي أن المسلمين لم يعرفوا النحت التصويري، ولم يمارسوه منذ بداية الدعوة إلى الإسلام وحتى المائتي سنة الأخيرة، ولا يوجد في حضارتهم تماثيل لمحمد ﷺ ولا لغيره.

(*) صورة الإسلام في الإعلام الغربي، محمد بشارى، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004م. الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب، د. محمد أبو ليلة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، 1421هـ/ 2001م. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء القرآن والسنة، د. عماد السيد الشربيني، دار الصحيفة، مصر، ط1، 1424هـ/ 2003م.

إن كتب السيرة والتاريخ تؤكد أن الرسول ﷺ منذ كان صغيرًا لم يسجد لصنم، ولم يعظِّم صنمًا، ولم يحلف بصنم، ففي رحلته إلى الشام ـ عندما كان غلامًا ـ يقابله الراهب بحيرا في الطريق ويسأله قائلًا: يا غلام، أسألك بحق اللَّات والعُزَّى، إلَّا ما أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، لكن رسول الله ﷺ قال: "لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت شيئًا قطُّ بغضهما..."[1].

ومن الشواهد التي تؤكد كراهية النبي ﷺ للأصنام واستنكاره لعبادتها، وذلك قبل البعثة والرسالة، حواره مع أم المؤمنين خديجة الذي جاء عن هشام بن عروة عن أبيه قال: حدثني جارٌ لخديجة أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: "أي خديجة، والله لا أعبد اللات والعزى..."[2]، وكان لا يأكل ما ذبح على النُّصْب[3].

ومن هنا يتضح أن الله تعالى صان نبيه ﷺ من شرك الجاهلية وعبادة الأصنام[4].

وحين أتم الله وعده لنبيه ﷺ ودخل مكة منتصرًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، كان لا بدَّ من طمس معالم الشرك التي كانت تحجب أنوار التوحيد المستمدة من الكعبة بيت الله الحرام؛ ليشرق الإسلام في جزيرة العرب من جديد.

فقد دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ (الإسراء)[5]، والأصنام تتساقط على وجوهها[6].

أضف إلى ذلك أنه ﷺ قام بإرسال أصحابه في عدد من السرايا لهدم بقية الأصنام التي كانت العرب تعظمها، فقد بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارسًا لهدم العزى، وهي هيكل بنَخْلة[7] تعظمه قريش وكنانة ومضر، وأرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة، فذهب إليه وهدمه، كما بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارسًا لهدم مناة، وهي صنم لكلب وخزاعة، فتوجهوا إليها وهدموها.

وبهذا الفتح المبين، وسقوط دولة الأصنام والهياكل، أصبح توحيد الله على كل لسان، وأضحت الكعبة منارة التوحيد في الأرض[8].

ويتضح مما سبق بالدليل والبرهان أن النبي ﷺ جاءت دعوته لهدم الشرك وعبادة الأصنام، وأنه كان يكرهها منذ كان صغيرًا، وأنه لم يعبدها لا قبل بعثته ولا

١. السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: محمد بيومي، دار الحرم للتراث، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ج١، ص١١٦.
٢. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث جار لخديجة بنت خويلد (١٧٩٧٦)، وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد.
٣. النُّصْب: ما كان يُنصب ليُعبد من دون الله، والجمع نُصُب.
٤. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٨٢.
٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل الإسراء (٤٤٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة (٤٧٢٥).
٦. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج١، ص٥٢٧.
٧. نَخْلة: اسم وادٍ.
٨. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٤٦٥، ٤٦٦.

بعدها، وأنه عندما دخل مكة قام بهدم الأصنام التي كانت حول الكعبة، كما أرسل الصحابة في سرايا لهدم باقي الأصنام الموجودة بالجزيرة العربية كلها، ويتضح أيضًا أن المسلمين لم يكونوا يملكون صنمًا من الذهب أو الفضة على صورة النبي ﷺ يدخلون به المعارك، بل لم يكونوا حتى يملكون له صنمًا من حجر، لم يحدث ذلك في عصر النبي ولا في أي عصر آخر من عصور الإسلام، ولم يطلب النبي ﷺ من الصحابة أن يصنعوا له صنمًا في يوم من الأيام، إنما كانوا يدخلون الحروب ومعهم عقيدتهم الرصينة، ومعهم توحيدهم لله تبارك وتعالى وتصديقهم له، بذلك كانوا ينتصرون، وكانوا يحملون معهم وصية النبي ﷺ قبل الغزوة: "اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلُّوا[1]، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا[2]، ولا تقتلوا امرأة ولا طفلًا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم"[3].

هكذا كان نهجه ﷺ ونهج أصحابه من بعده، ومن ذلك ما يقوله عمر رضي الله عنه للمسلمين ويوصيهم به حين الغزو: "امضوا باسم الله، وعلى عون الله وبتدبير الله، وما النصر إلا من عند الله، والزموا الحق والصبر، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين، ولا تَجْبُنُوا عند اللقاء، ولا تمثِّلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الغَلَب، ولا

١. لا تغلُّوا: لا تخونوا في الغنيمة.

٢. التَّمثِيل بالقتلَى: تشويههم وقطع أطرافهم.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو (٤٦١٩).

تقتلوا شيخًا ولا امرأة ولا وليدًا، واحذروا قتلهم إذا التقى الجمعان وعند شن الغارات"[4].

هكذا كان يخرج المسلمون للحروب معتمدين على الله، تُوَحِّدُهم كلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، حاملين أرواحهم فداء لإعلاء كلمة التوحيد ونشر الإسلام.

وانطلاقًا من هذا التصور الإسلامي الراقي لعقيدة التوحيد؛ فإنه لا يوجد في ألبوم الصور الإسلامي صور لأشخاص، سواء أكان هؤلاء الأشخاص زعماء أم ملوكًا أم أنبياء، إنما يوجد فيه عدد من الصور المتميزة لليل والنهار، والشمس والقمر، والشجر والجبال، والدواب والنفس الإنسانية، وهذه الصور لم تلتقطها كاميرا متميزة، ولا حتى مصوِّر ماهر، إنما تَمَّ التقاطها بعيون العابدين والمؤمنين والمتأملين، يرون فيها آيات القدرة الإلهية المبدعة، وجميل صنع الإله المبدع الصمد، هذه هي الكاميرا، أما الألبوم فهو الكون الذي خلقه الله، بما فيه من آيات لا يراها البصر، ولكن تراها البصيرة، فتدرك أن ذلك الكون وما فيه من جمال واتساق ودقة إنما هو ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٨٨).

لا يملك المسلمون غير هذه الكاميرا، ولا يملكون غير هذا الألبوم، أما التصوير الذي يقوم به الرسام بريشته، أو المصور بعدسته، أو النَّحات بإزميله فلا يمارسه المسلمون؛ لأنهم يفضلون الصور الحية على

٤. انتشار الإسلام والجهاد: افتراءات غربية وحقائق إسلامية، محمد علوان، دار التعاون، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص١١٣ بتصرف يسير.

الصور الجامدة، ويفضلون اللوحة الكونية على اللوحة الخشبية، ويفضلون الإبداع الحقيقي على تقليد الإبداع، والصور الكونية عندهم وإن اختلفت وتنوعت في أشكالها إلا أنها متحدة في مضمونها الذي يقول: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان: ١١).

فالتصوير والنحت والرسم فنونٌ محرمة على المسلمين، فقد حرَّم الرسول ﷺ التصوير، فنهى عنه في أكثر من موضع، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله ﷻ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة"[١].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: "أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون[٢] بخلق الله"[٣].

وعن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس فتعذبه في جهنم"[٤].

وعنه مرفوعًا: "من صور صورة في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ"[٥].

وعن أبي الهياج قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ "ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته"[٦][٧].

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: "دخل عليَّ النبي ﷺ وأنا مُستَتِرة بقرام فيه صورة، فتلوَّن وجهه ثم تناول الستر فَهَتَكَه، ثم قال: إنَّ أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله"[٨].

هذه هي التعاليم التي ربّى النبي ﷺ أصحابه عليها، وهذه هي المبادئ التي أمر بها، ولم يغيرها ﷺ في حياته، ولم يغيرها صحابته ﷺ بعد موته.

ولقد حذر النبي ﷺ من تصوير ذوات الأرواح، ولا سيما تصوير المعظَّمين من البشر كالعلماء والملوك والعُبَّاد والقادة والرؤساء، سواء أكان هذا التصوير عن طريق رسم الصورة على لوحة أو ورقة أو جدار أو ثوب، أم عن طريق النحت وبناء الصورة على هيئة التمثال، ونهى ﷺ عن تعليق الصور على الجدران ونحوها، وعن نصب التماثيل، ومنها النُّصُب التذكارية؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك؛ فإن أول شرك

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾(الصافات) (٧١٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٥٦٦٥).

٢. يُضاهِي: يُشابه.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير (٥٦١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولاصورة (٥٦٥٠).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٥٦٦٢).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب من صوَّر صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ (٥٦١٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٥٦٦٣)، واللفظ له.

٦. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر (٢٢٨٧).

٧. عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مكتبة فياض، مصر، ٢٠٠٥م، ص١٢٤، ١٢٥.

٨. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٥٦٤٧).

حدث في الأرض كان بسبب التصوير ونصب الصور، وذلك أنه كان في قوم نوح رجال صالحون، فلما ماتوا حزن عليهم قومهم، فأوحى إليهم الشيطان: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا ولم تُعْبَد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم، عُبِدَتْ. ولما بعث الله نبيه نوحًا عليه السلام ينهى عن هذا الشرك الذي حصل بسبب تلك الصور التي نُصبت، امتنع قومه عن قبول دعوته، وأصروا على عبادة تلك الصور المنصوبة التي تحولت إلى أوثان: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾ (نوح).

وهذه أسماء الرجال الذين صُوِّرت لهم تلك الصور على أشكالهم إحياء لذكرياتهم وتعظيمًا لهم.

فانظر ما آل إليه الأمر بسبب هذه الأنصاب التذكارية من الشرك بالله ومعاندة رسله؟! مما سبب إهلاكهم بالطوفان، ومقتهم عند الله وعند خلقه، مما يدلك على خطورة التصوير ونصب الصور، ولهذا لعن النبي ﷺ المُصَوِّرين، وأخبر أنهم أشد الناس عذابًا يوم القيامة، وأمر بطمس الصور، وأخبر أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة، كل ذلك من أجل مفاسدها وشدة مخاطرها على الأمة في عقيدتها؛ فإن أول شرك حدث في الأرض كان بسبب نصب الصور[1].

يتضح جليًّا مما سقناه من أدلة وبراهين أن الإسلام نهى عن التصوير، وأن النبي ﷺ له موقف من التصوير ينتهي بتحريمه له وكراهيته ﷺ له، وما عُرف أن النبي ﷺ نهى عن شيء وأتاه، بل كان المثل والأسوة لأصحابه، وقد التزم أصحابه بما قال، ولم يغيِّروا ولم يبدِّلوا؛ لأنهم أفضل المسلمين وأكملهم إيمانًا واتباعًا له ﷺ، ولقد سار المتأخرون على درب الأوائل، فلم يقم أحدٌ منهم برسم صورة للنبي ﷺ بعد موته، ولذا فإننا نعجب أشد العجب من هذا الافتراء الذي لا يؤيده ماضي المسلمين ولا حاضرهم، وإذا كان ثمة صورة للنبي ﷺ لدى المسلمين؛ فإننا نتساءل أين هي هذه الصورة؟ وفي أي المساجد توجد؟ ومتى رسم المسلمون صورة للنبي ﷺ؟ وفي أي عصر حدث هذا؟

والحقيقة الجلية الواضحة هي أنك لن تجد لديهم إجابة لأي سؤال تطرحه عليهم؛ لأنهم لا يملكون إجابة ولا دليلًا على افتراءاتهم؛ إن هي إلا أضاليل وأوهام في عقيدتهم. إن الصورة الحقيقية التي يملكها المسلمون للنبي ﷺ هي السنة التي تركها لتتعلم منها البشرية كلها مكارم الأخلاق والصدق والتواضع، إضافة إلى مكانته السامية عند ربه بوصفه خاتمًا للأنبياء، وهذا سرُّ عظمته وسرُّ عظمة الإسلام®.

ثانيًا. نهى النبي ﷺ أتباعه عن المبالغة في إطرائه، ولم تقترن طاعته بطاعة الله تعالى في القرآن إلا لأنه هو المبلِّغ عن ربه عز وجل:

إن عقيدة التوحيد وإفراد الله بالعبادة هي ما كان

---

1. عقيدة التوحيد، د. صالح الفوزان، دار القاسم، الرياض، د. ت، ص١١٠، ١١١ بتصرف يسير.

® في "نهي النبي ﷺ عن النحت والتصوير والتماثيل" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، والوجه الثالث، من الشبهة الخامسة والعشرين، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). وفي "عصمة النبي ﷺ من الشرك وكراهيته للأصنام" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

يُعلِّمه رسول الله ﷺ لأصحابه، وهي ما علَّمه أصحابه للتابعين، وهي ما تعلمناه من علمائنا، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الإشراك بالله أكبر الكبائر والذنوب التي لا يغفرها الله ﷻ، ما لم يتب منها صاحبها، يقول ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(النساء: ١١٦).

والشرك: جعل شريك لله تعالى في ربوبيته وإلهيته[١]؛ لذا حذر رسول الله ﷺ أصحابه من الوقوع في الشرك، وذلك واضح في كتب السنة الصحيحة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله ﷻ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[٢].

وعن أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنه قال: سألت أو سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب عند الله أكبر؟ قال: "أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك"[٣].

وإذا كان النبي ﷺ هو الذي يبلغ ويقرر هذا التوحيد لله فكيف يدعو المسلمين إلى تأليهه وعبادته، وتعظيمه من دون الله؟!

إن النبي ﷺ نفسه لا يجوز له أن يشرك مع الله في عبادته أحدًا؛ لأن القانون يسري عليه ﷺ كما يسري على غيره من العباد، فالقانون الإلهي لا يعرف الاستثناءات، يقول الله ﷻ مخاطبًا النبي ﷺ في القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾(الزمر).

إن عبادة الله هي امتثال أمره واجتناب نهيه، والعبادة تقتضي وجود عابد ووجود معبود، ووجود معنى للعبادة وكيفية لها[٤].

والعبادة في الإسلام لا تكون إلا لله وحده لا شريك له، ولا يجوز أن يُصرف شيء منها لغيره سبحانه، سواء أكان نبيًّا مرسلًا، أم ملكًا مقربًا، فلا يُسأل إلا الله، ولا يُستعان إلا بالله، ولا يُتوكل إلا على الله، ولا يُذبح إلا لله، ولا يُحلف إلا بالله، ولا يُركع إلا لله، ولا يُسجد إلا لله، ولا يُصام إلا لله... إلخ.

يقول الله تعالى للنبي ﷺ ولخلقه أجمعين: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ (الزمر).

ويقف المسلمون في صلاتهم أمام ربهم خاضعين مستسلمين لحكمته، متطلعين إلى رضاه وهدايته، قائلين له: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ (الفاتحة).

إن النبي ﷺ ظلَّ يعلم أصحابه التوحيد طوال حياته، يعلمهم ما لهم وما عليهم، يبين لهم حق الله عليهم، وحقهم على الله، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

---

١. عقيدة التوحيد، د. صالح الفوزان، مرجع سابق، ص٧٤.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٧٦٦٦).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الفرقان قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾(الفرقان: ٦٨) (٤٤٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بان كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها (٢٦٧).

٤. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، مصر، ط١، ١٩٩١م، ج١٠، ص٥٨١٤ بتصرف يسير.

كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير، فقال: "يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله"؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "فإن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا"، فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشّر به الناس؟ قال: "لا تبشرهم فيتكلوا"[1][2].

وقد جاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"[3][4].

وهكذا نجد أن محمدًا ﷺ قد حرص على تحذير المسلمين من الوقوع في الشرك، وذلك بتعبيد المسلمين لله، وتوحيد قلوبهم قبل توحيد صفوفهم، كما علمه ربه ﷻ إذ يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (الإخلاص).

وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته: "اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد"[5].

إذا كان ﷺ يخشى ولا يرضى أن يكون معبودًا في قبره بعد موته، فهل يصح أن نقول: إنه دعا المسلمين إلى عبادته في حياته؟

وإننا يحق لنا أن نسأل متى وأين وفي أي كتاب يوجد نصٌّ صحيح النسبة إلى النبي ﷺ يدعو المسلمين فيه إلى عبادته في حياته أو بعد موته؟

إن النبي ﷺ كان يركع لله قبل المسلمين ويسجد له قبلهم، فحين كان يصلي بالمسلمين إمامًا لم يكن واقفًا أمامهم وهم ساجدون له؛ بل كانت جبهته الشريفة قبل جباههم على التراب ساجدة لله ﷻ.

إن من الجَفَاء الذي يؤذي النبي ﷺ ويخالف هديه ودعوته، بل يخالف الأصل الذي أرسله الله به - وهو التوحيد - الغلو فيه ﷺ، ورفعه فوق منزلة النبوة، وإشراكه في عالم الغيب، أو سؤاله من دون الله، أو الإقسام به، وقد خاف النبي ﷺ وقوع ذلك فقال كما ثبت عنه في كتب السنة: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله"[6][7].

إن هذا الجانب العظيم من شخصيته جعله يرفض

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار (٢٧٠١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة (١٥٣).

٢. مجموعة التوحيد، ابن تيمية، محمد بن عبد الوهاب، دار الفكر، بيروت، د. ت، ص٢١٩، ٢٢٠.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ (النساء: ١٧١) (٣٢٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة (١٤٩).

٤. مجموعة التوحيد، ابن تيمية، محمد بن عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٣٢٣.

٥. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على القبور (١٥٨٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلوات، باب في الصلاة عند قبر النبي ﷺ وإتيانه (٧٥٤٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٧٥٠).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم: ١٦) (٣٢٦١).

٧. محبة النبي ﷺ وتعظيمه، عبد الله بن صالح الخضيري، عبد اللطيف بن محمد الحسن، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٥.

كل مظاهر التعظيم والتفخيم - من القيام وتقبيل الأيدي والإطراء والألقاب، وغير ذلك من الأمور التي يلهث خلفها مَرضَى النفوس في كل الأزمنة.

قدِم على رسول الله ﷺ وفد بني عامر، فلما كانوا عنده قالوا: أنت سيدنا، فقال: "السيد الله ﷻ". فقالوا: وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طولًا. فقال: "قولوا بقولكم، أو بعض قولكم ولا يستجرينَّكم[1] الشيطان"[2]. وفي هذا كراهية منه للإطراء والألقاب[3].

كل هذا يقودنا إلى أن النبي ﷺ لم يدعُ قطّ إلى عبادة نفسه، كما يزعم الطاعنون.

لقد نزل القرآن على لسان محمد ﷺ ليؤكد أنه ﷺ بشر مؤيدٌ بالوحي، وليس إلهًا يعبد، قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا (١١٠) ﴾ (الكهف)، ﴿ قُلْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ يعني: خذوني أسوة، فأنا لستُ ملكًا، إنما أنا بشر مثلكم، وحملتُ نفسي على المنهج الذي أطالبكم به، فأنا لا آمركم بشيء، وأنا عنه بمنأًى. والآية هنا لا تميزه عن البشر إلا في أنه يُوْحَى إليه؛ فما زاد محمد عن البشر إلا أنه يُوحَى إليه، ثم يقول تعالى: ﴿ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أنما: أداة قصر، و﴿ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، أي: لا إله غيره، وهذه قمة المسائل، فلا تلتفتوا إلى إله غيره، ومن أعظم نعم الله على الإنسان أن يكون له إله واحد[4].

إن علاقة الغرب مع محمد ﷺ علاقة تصادمية مع كل من التيار الديني والعلماني على المستوى الفكري. فمحمد ﷺ حرص على أن يكون فردًا إنسانًا، إنسانًا بكل معاني الإنسانية، ورفض أن يكون إلهًا في صورة إنسان، وبالتالي فهو يناقض فَهْم المتدينين من الغرب للإله الذي عرفوه، ومِن ثَمَّ تكونت الكراهية والضيق من كل ما يمثله محمد ﷺ، فهو ليس على شاكلة المسيح في نظرهم، وهو يناقض أيضًا مشاعر ورغبات غير المتدينين؛ لأنه يطلب من البشر - كما أمره خالقه - الكثير من العبادات والأعمال والالتزامات، ويقدم حرية المجتمع على حرية الفرد، كل ذلك ساهم في تكوين صورة سلبية وقاسية عن نبي الإسلام[5].

إن الغرب يرى أن محمدًا ﷺ قد قدم مفهومًا يمكن أن يهدم الفكر الغربي من أساسه، وهو مركزية محبة الله تعالى وعبادته في حياة البشرية، مقابل نظريات الغرب التي تقوم على مركزية الإنسان؛ فاختار الغرب لذلك أن يجعل عداء الإسلام ضمن منظومة قيمه الرئيسة؛ لأنه يتمكن بهذه الطريقة من إبقاء الفرد مركزًا للكون في مواجهة دعوة محمد ﷺ التي حافظت على مكانة الخلاق ﷻ ومركزيتها في حياة البشر[6].

---

١. يَستجري: يستعمل.

٢. صحيح: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب الخدم والمماليك، باب هل يقول سيدي (٢١١)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح (٤٨٠٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٩٠٠).

٣. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٣٤٢.

٤. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٢، ص١٠١٢، ١٠١٣.

٥. لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ، باسم خفاجي، مجلة البيان، الرياض، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٦٣.

٦. المرجع السابق، ص٦٢.

إن حقيقة النبوة وحقيقة المعرفة بالله ﷻ تجعله ﷺ خاشعًا لربه، منكسرًا أمامه، عاش حياته مبلغًا الخير للناس، عابدًا لربه، ساجدًا له طوال ليله؛ ولأنه أكثر الناس سجودًا، أكثرهم قربًا من الله، يقول الله في كتابه الكريم: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾(العلق).

على الرغم من هذا القرب، وهذه المكانة السامية له عند ربه بوصفه خاتمًا للأنبياء، كان يرفض إطراء الناس له، ويقرر أنه بشر وأنه عبد، ويقول للأعرابي الذي أخذه الذهول لجلال الموقف، وهو واقف بحضرته ﷺ: "هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأةٍ كانت تأكل القَدِيد"[(١)(٢)].

على الرغم من كثرة الأحاديث التي يقرر فيها النبي ﷺ أنه بشر، وعلى الرغم كذلك من أن القرآن مليء بالمواطن التي يأمره الله فيها بأن يقول للناس إنه بشر، وعلى الرغم من أننا لم نجد تلميحًا ولا تصريحًا منه ﷺ إلى أتباعه بعبادته، إلا أننا نجد كثيرًا من الافتراءات التي تسوق الكثير من التهم التي تقول: إن محمدًا دعا الناس لعبادته، أو إنه إله للمسلمين، تجد هذا يقال بلا أي دليل أو برهان، وإنك لتعجب لأن الأدلة التي تُسقط هذا الادعاء كثيرة كما رأيت، فهل يعترف أصحاب الحضارة والعلم والمعرفة والموضوعية من الغربيين بالحق ولو لمرة واحدة!

وأما اقتران طاعة النبي ﷺ بطاعة الله ﷻ، فقد ورد في القرآن الكريم، ولقد أمر رب العزة عباده بطاعة نبيه ﷺ طاعة مطلقة مستقلة، بمقتضى عصمته له، وربط تلك الطاعة بطاعته ﷻ تارة، وأفردها تارة أخرى؛ ليدل على أن طاعته ﷺ طاعة له ﷻ فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾(النساء: ٥٩)، وقال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (النور: ٥٤)، وقال: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء: ٨٠)، وطاعته ﷺ في الآيات السابقة طاعة مطلقة في سنته المطهرة، حتى ولو كانت السنة زائدة على ما في كتاب الله ﷻ؛ لأنه ﷺ له حق التشريع بدلالة الآيات السابقة، وبقوله ﷻ: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾(الأعراف)، فقوله: "يحل، ويحرم، ويضع" من خصائص المشرِّع الحقيقي الواجب طاعته، وهو في حقيقة الأمر إلى الله ﷻ.

فرسول الله ﷺ لا يشرع من عند نفسه، وإنما يشرع حسب ما يريه الله تعالى ويوحيه إليه، فهل نسلم بكلام الله تعالى، أو نرده ونقول هذا شرك؟

وإذا كانت طاعته ﷺ مستقلة عن طاعة الله ﷻ كما في الآيات السابقة وغيرها من الآيات التي تكرر فيها الفعل "أطيعوا" مع الرسول ﷺ، فمن الذي أعطاه هذه المنزلة والمكانة؛ أليس ربه ﷻ؟ فهل نردّ هذه المكانة والمنزلة ونقول هذا شرك[(٣)]؟

---

١. القَدِيد: اللحم يُقطَّع ويُملَّح ويُجفف في الشمس.

٢. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والحاكم في مستدركه، كتاب المغازي والسرايا (٤٣٦٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٧٦).

٣. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٤٠٠.

قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام سنته، والتسليم لما جاء به، وقالوا: ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه[1]، فهذا الحق ليس لمحمد ﷺ فقط، بل لكل الأنبياء، يقول الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(النساء: ٦٤).

لقد أكدت السنة النبوية المطهرة وجوب طاعة رسول الله ﷺ؛ فقد أخرج البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع أبا هريرة ؓ يقول: إن رسول الله ﷺ قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني"[2]. طاعة الرسول من طاعة الله، إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له.

وفي حديث أبي هريرة: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى"، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى"[3].

لذا تجب طاعة النبي ﷺ في حكمه واتباع شريعته؛ لأنه إذا وجب الإيمان به وتصديقه بما جاء به، وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتي به، أي من جملة ما جاء به من الدين بالضرورة، أي بالبداهة، قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾(الأنفال: ٢٠)، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾(آل عمران)، وقال ﷻ: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾(النور: ٥٤)، وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(النساء: ٨٠)[4].

لقد قال ربنا ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(الفتح: ١٠)، وقال ﷻ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾(آل عمران). فهل يصح من أحد بعد ذلك أن يزعم أن الربط بين مبايعته ﷻ ومبايعةرسوله شرك؟ أو أن الربط بين محبته ﷻ ومحبة نبيه شرك؟

عندما نزل قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾(آل عمران:٣١)، قال بعض الكفار: إن محمدًا يريد أن نتخذه حنَّانًا كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله ﷻ: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾(آل عمران).

فقد قرن طاعته تعالى بطاعته ﷺ؛ إلصاقًا لأنوفهم بالتراب جزاءً لأنفتهم من متابعته ﷺ وجزاءً لإفكهم بأن طاعته ﷺ شرك ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾(الكهف)، ثم إن الربط بين طاعة الله وطاعة رسوله هو عين التوحيد الخالص: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

١. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٦٤.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾(النساء: ٥٩) (٦٧١٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٤٨٥٤).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التمني، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٦٨٥١).

٤. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٣٦٤: ٣٦٦ بتصرف.

﴿يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (آل عمران)[1].

وقد حكى الله تعالى عن الكفار في دركات جهنم: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ (الأحزاب)، فتمنوا طاعته حين لا ينفعهم التمني[2].

إننا نتساءل ونريد ردًّا مقنعًا، إذا لم تكن طاعة النبي واجبة؛ فلماذا أرسله الله؟! وما فائدة التعاليم التي جاء بها؟!

وإذا كان النبي ﷺ مبلغًا عن ربه، ألا يكون تكذيبه تكذيبًا لله؟! ألا تكون معصيته معصية لله؟! ألا تكون طاعته طاعة لله؟!

وهنا مفرق طريق.. مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة لله! وهذه العبودية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل، التحرر من عبودية الأوهام والتحرر من عبودية النظم، والتحرر من عبودية الأوضاع، وإذا كان الله وحده هو الذي يُعْبَد، والله وحده هو الذي يُسْتعان به؛ فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات[3].

يقول الله ﷻ في كتابه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران).

ويقرر الله ﷻ بشأن نبيه ﷺ أنه رسول من الرسل التي أرسلها إلى البشر ليرشدوهم ويبينوا لهم معالم الطريق إلى الله، في رحلة سيرهم إليه وعبادتهم له سبحانه، رسول من البشر يجري عليه ما يجري عليهم من الحزن والسرور والحياة والموت، فما هو إلا رسول على حد لفظ القرآن، وليس إلهًا يُعبد، رسول يبلغ الرسالة التي أرسله ربه بها، فمن أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، ومن سار على الطريق فإلى الله يسير، وما الرسول إلا دليل، يدلنا على الطريق كما يقول الصديق رضي الله عنه، ولقد مات ﷺ وكان لهذا الحادث أثر كبير وشديد على أصحابه، وكان وقع الأمر شديدًا عليهم، لهذا وقف الصديق رضي الله عنه على المنبر ليعلن لهم وللعالم كله عقيدة المسلمين قائلًا: "أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"[4].

قالها الصديق رضي الله عنه للعالم كله، وقرر أن المسلمين لا يعبدون ميتًا، وإنما يعبدون الحي الذي لا يموت، وهو الله ﷻ، لا يعبدون محمدًا، وإنما يعبدون رب محمد، فهم عباد الله وحده لا شريك له، وكذلك كان ﷺ عبدًا لله ورسولًا منه إلى خلقه وعباده®.

---

1. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٤٠١، ٤٠٢ بتصرف.
2. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٣٦٥.
3. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١، ص٢٥.
4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه (١١٨٥).

® في **"استقبال الكعبة والطواف حولها عبادة لله وليس تعظيمًا لها"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الرابعة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده). وفي **"تواضع النبي ﷺ مع علو مكانته"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الرابع، من الشبهة السادسة والعشرين، من هذا الجزء.

ثالثًا. حقيقة لفظ المحمديين:

إن لفظ "المحمديين" الذي يذكرونه لم يرد عن النبي ﷺ ولا عن صحابته الكرام أو التابعين من بعدهم، ولا أطلق المسلمون على أنفسهم لفظ "المحمديين" في يوم من الأيام، فهذا اللفظ اخترعه المستشرقون وروَّجوا له، ولا يوجد له سند يؤيده قديمًا أو حديثًا.

إن اللفظ الصحيح الذي تناولته الألسن، هو ما جاء في القرآن الكريم وهو لفظ "المسلمين" وليس "المحمديين" يقول تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج: ٧٨).

هذا وقد أطلق هذا اللفظ على أممٍ أخرى ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (يونس)، وقد أوصى بها يعقوب عليه السلام بنيه فقال لهم كما أخبر الله عز وجل في كتابه: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (آل عمران)، وقال موسى عليه السلام لقومه كما حكى عنه القرآن: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (يونس)، وقال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (آل عمران).

بل إن فريقًا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أطلقوا على أنفسهم هذا اللقب، يقول تبارك و تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (القصص).

فهذا الدين المشترك اسمه الإسلام، وهو دين لكل الأنبياء، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نؤمن بكل الأنبياء قبلنا، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة).

إن الإسلام هو دين جميع الأنبياء، ولذا لما حُرِّفت هذه الأديان، جاء الإسلام ليردها إلى أصولها، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ (آل عمران).

غير أن كلمة الإسلام قد أصبح لها في عرف الناس مدلول معين، هو مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها رسول الله محمد ﷺ أو التي استنبطت مما جاء به، كما أن كلمة "اليهودية أو المُوسَوِيَّة" تخص شريعة نبي الله موسى وما اشتق منها، وكلمة النصرانيةأو المسيحية تخص شريعة المسيح عليه السلام وما تفرَّع منها[1].

ومما سبق نجد أن هذا اللفظ - المسلمين - قد اشتركت فيه جميع أمم الأنبياء قبلنا، غير أنه خُصَّ به أمة النبي ﷺ؛ نسبة إلى دينهم الإسلام. لذلك كان النبي ﷺ يذكر في جل أحاديثه لفظ "مسلم".

يقول ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه"[2]. ويقول أيضًا: "المسلم من سلم المسلمون

---

١. وامحمداه.. الحميم والنار على من سبَّ النبي المختار، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، طبعة خاصة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٦٧: ٦٩ بتصرف يسير.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٦٧٠٦).

من لسانه ويده"[1].

وهكذا نجد النبي ﷺ في أحاديثه يذكر لفظ "المسلم" انتسابًا للإسلام، ولا يذكر لفظ "المحمدي" نسبة إلى نفسه ﷺ. إنهم جعلوا المسيح عيسى عليه السلام إلهًا لهم، ونسبوا أنفسهم إليه حين قالوا: "المسيحيين"، ولكن هذا لم يحدث عندنا في الإسلام، ولن يحدث؛ لأننا نعبد إلهًا واحدًا، هو الله تبارك وتعالى.

الخلاصة:

- لقد بعث الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ برسالة التوحيد؛ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلام الشرك إلى نور الإيمان، ولم يكن النبي يكره شيئًا قبل بعثته أو بعدها كُرْهَه للأصنام، فلم يُعْرَف عنه ﷺ أنه تقرب لصنم أو لوثن، فما بالنا بعبادتها. وبعد فتحه ﷺ مكة المكرمة حطم الأصنام التي حولها، وأرسل أصحابه لهدم سائر الأوثان في جزيرة العرب، فكيف يصدق الزعم القائل إن الرسول ﷺ سمح للمسلمين بصنع تمثال له وحمله في المعارك.

- لقد كان النبي ﷺ ينهي أصحابه عن المبالغة في إطرائه، فكان يقول: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله"، فهل يُعْقَل وقد بدا منه كل هذا التواضع أن يدعو الناس لعبادته؟!

- التصوير والنحت والرسم أمور مستحدثة في المجتمعات الإسلامية، فكيف يرسم المسلمون صورة للنبي ﷺ في المساجد، ثم أين هذه الصورة؟ وفي أي المساجد توجد؟ ومتى رسمها المسلمون؟ ولماذا لا نعرف عنها شيئًا؟

- لا شك أن عدم الإجابة على تلك الأسئلة دليل واضح على بطلان هذا الزعم.

- لقد قرن الله تبارك وتعالى طاعة نبيه ﷺ بطاعته؛ للدلالة على أهمية طاعته ﷺ وتأكيد وجوبها؛ فإن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإنما يبلغ ما أوحاه إليه ربه تعالى، فتكون طاعته طاعة لله تبارك وتعالى، وليست عبادة له ﷺ.

- لم يطلق النبي ﷺ على أصحابه لفظ "المحمديين"، ولا تَسَمَّى به المسلمون، وإنما هو لفظ أراد به أعداء الإسلام تشبيه المسلمين بالنصارى الذين تسمَّوا باسم المسيح، والحقيقة أن الله هو الذي أطلق على المسلمين لفظ "المسلمين"؛ لأن الإسلام هو دين كل الأنبياء، ولم يرد في القرآن ولا في سنة رسول الله ﷺ أي تسمية للمسلمين خلاف هذا الاسم، وهو الاسم الذي يدل على تسليم مقاليد النفس إلى الله الإله الواحد الذي يعبده المسلمون، ولا يشركون معه أحدًا.

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (١٧١).

الشبهة الثانية

الزعم أنه ﷺ مدح أصنام المشركين(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الطاعنين أن النبي ﷺ أثنى على أصنام قريش ومدحها، ويستدلون على ذلك بما جاء في بعض التفاسير من أنه ﷺ لما قرأ قول الله ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ (النجم)، قال ﷺ بعده: "تلك الغرانيق العُلَي، وإن شفاعتهن لتُرتَجَى". ويتساءلون: أليس ذلك مدحًا صريحًا منه ﷺ لأصنام المشركين؟! هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في عقيدته ﷺ باتهامه أنه مدح ما جاء بذمِّه من أصنام المشركين، وأنه اعتقد خلاف ما انضوت عليه رسالته من التوحيد الخالص.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الرسول ﷺ هو الداعي إلى التوحيد وعبادة الله وهدم الشرك، وكان أول شيء فعله بعد تمكُّنه يوم الفتح هو هدم الأصنام، فكيف يقال: إنه مدح أصنام المشركين؟!

٢) السياق في سورة النجم يهتم بترسيخ عقيدة التوحيد في نفوس المسلمين، ومحو ما دون الله ﷻ، فكيف يدَّعي عاقل أن النبي مدح أصنام المشركين في هذه السورة خاصة؟! فضلًا عن أن قصة الغرانيق باطلة سندًا ومتنًا.

٣) إن الشيطان ليس له سبيل على عباد الله المخلصين، فكيف الحال بالنسبة للنبي ﷺ، وهو المعصوم من قِبَل الله ﷻ؟!

التفصيل:

أولا. الرسول ﷺ هو الداعي إلى التوحيد وعبادة الله، فكيف يقال: إنه مدح أصنام المشركين؟!

إن الإسلام يدعو إلى التوحيد وعبادة الله الواحد وبهذا بُعث محمد ﷺ، فكيف يمكن له ﷺ أن يمدح أصنام المشركين ويخلق لها مكانة في الإسلام، وهو دائمًا يسبُّها ويلعنها ويدعو إلى هدمها؛ لأنها لا تنفع ولا تضر؟ ومن أين لها النفع والضر وأيدي البشر هي التي صنعتها[1]؟

فقد كان ﷺ حامي جناب التوحيد من الشرك، بل سدَّ كل طريق يوصل إليه، ويتضح هذا من المواقف التي حدثت مع المشركين أنفسهم، ذلك حين عرضوا عليه الملك والجاه والمال في مقابل أن يترك الدعوة إلى التوحيد، قال عتبة بن ربيعة للنبي ﷺ: "إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعِبْت به آلهتهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم"[2].

فالنبي ﷺ لم يعظِّم صنمًا حتى قبل بعثته، فقد عصمه الله من ذلك، حتى إن عمه لما كلَّمه في حضور عيد لهم وعزم عليه، وخرج معهم كارهًا، كان كُلما دنا من صنم

(*) عصمة الأنبياء عن الزلات والأخطاء، أبو بكر أحمد الباقوري، دار الطباعة والنشر، جامعة مركز الثقافة السنية، الهند، ط٢، د. ت.

١. محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٥٠ بتصرف.

٢. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨، ص١٠٦ بتصرف.

تمثَّل له شخص أبيض طويل، ويصيح به: وراءك لا تلمسه، فما شهد لهم عيدًا بعد ذلك[1].

والأحداث التي تؤكد أن النبي ﷺ لم يعظِّم صنمًا قط منذ نشأته كثيرة، منها ما حدث في رحلته إلى الشام مع عمه وهو طفل صغير؛ إذ قابل الرسول ﷺ بحيرا الراهب، فقال له بحيرا: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى أن تخبرني عما أسألك، فرد رسول الله ﷺ: "لا تسألني باللات والعزى.. فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما".

وهذا يدعونا للتأمل في رد الرسول ﷺ، إنه وهو في سن الثانية عشرة يرفض القَسَم باللات والعزى، وهي من أعظم آلهتهم وأصنامهم، وذلك تحقيرًا لشأنها، إنها أصنام من صنع يد الإنسان يصنعها بيده ويعبدها، والنبي في تلك السن الصغيرة ينصرف فكره إلى الله الواحد، ويرفض الاعتراف باللَّات والعُزَّى[2].

تلك عقيدة قد غرسها الله في النبي ﷺ منذ صغره، فهل يُعْقَل أن يأتي ﷺ بعد البعثة ويمدح الأصنام؟!

ويكفي للتدليل على عصمة الله له ﷺ من الشرك - حتى قبل البعثة - ما رواه أحمد في مسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: حدثني جار لخديجة أنه سمع النبي يقول: "أي خديجة، والله لا أعبد اللات العزى"[3].

فالرسول ﷺ هدده كفار مكة وتوعدوه بأشد العقوبة على عيب دينهم وذم آلهتهم، فلم يأبه بوعيدهم وتهديدهم، موطِّنًا نفسه على تحمُّل هذا الأمر والمُضيِّ قُدُمًا في ذم آلهتهم والدعوة إلى عبادة الله وحده، مهما جَرَّ عليه ذلك من متاعب وآلام، فهل يُعقل أن يتراجع عن هذا وهو لُبُّ دعوته وصميم رسالته، ثم إنه الذي كان إذا مرَّ بالأصنام أعرض عنها ولم يُقبل بوجهه إليها، مع أن قومه وعدوه بالإيمان لو أقبل بوجهه إليها.

قال القشيري: لقد طالبته قريش وثقيف إذا مرّ بآلهتهم أن يُقبل بوجهه إليها، ووعدوه بالإيمان به إن فعل ذلك، فما فعل، ولا كان ليفعل[4].

وهكذا نرى أن الرسول ﷺ رفض كل ما عُرض عليه من أجل أن ينظر إلى تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، حتى ولو كان نظرًا عابرًا دون تقرُّب؛ إذ إن إعراضه عنها بوجهه كان يشعرهم باحتقارها، وهم لا يطلبون منه أكثر من عدم إشعارهم بذلك، حتى لو كانوا يعلمون أنه يحتقرها في نفسه، ولكن يريدون منه أن لا يظهر ذلك أمامهم فقط، فكيف به - إذن - وهو معصوم من قبل الله ﷻ أن يقع فيما هو أعظم من هذا؟!

وتأكيدًا على هذا، فإن النبي ﷺ بعدما فتح مكة، أرسل أصحابه لهدم تلك الأصنام، وهذا دليل واضح على بطلان هذه الشبهة؛ إذ كيف يمدحها ثم يهدمها، فقد بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارسًا لهدم العُزَّى، وهي هيكل بوادي نخلة تعظمه قريش

---

1. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٩٨ بتصرف.
2. محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، مرجع سابق، ص٢٤، ٢٥ بتصرف.
3. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث جار لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها (١٧٩٧٦)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد.
4. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٤٢٥، ٤٢٦.

وكنانة ومضر، فذهب إليها وهدمها وهو يقول:

يا عُزَّ كُفْرَانَك لا سُبْحَانَكِ

إنِّي رَأَيْتُ الله قَدْ أهانَكِ

وأرسل ﷺ عمرو بن العاص لهدم سُواع - وهو أعظم صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة - فذهب إليه وهدمه.

وبعث ﷺ سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارسًا لهدم مناة، وهي صنم لكلب وخزاعة، فتوجهوا إليها وهدموها.

وبهذا الفتح المبين، وبسقوط دولة الأصنام والهياكل، أصبح توحيد الله عقيدة راسخة في كل جنان، ويشهد بها كل لسان، وأضحت الكعبة منارة التوحيد في الأرض، وعادت كما كانت عليه في عهد الخليل إبراهيم عليه السلام[1] ®.

ثانيًا. السياق في سورة النجم يهتم بترسيخ عقيدة التوحيد في نفوس المسلمين، كما أن قصة الغرانيق - التي استندوا إليها - باطلة سندًا ومتنًا:

أما من ناحية السياق: يقول عز وجل: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣) ﴾ (النجم)، فهذا السياق صريح في أن اللات والعُزَّى ومناة أسماء سمّاها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، وهذا ذم لها، وهل يستقيم - مع ذمها في آيات متوالية - مدحُها في خلال تلك الآيات بالعلو ورجاء شفاعتها؟!

إن سياقًا كهذا شأنه متناقض مضطرب لا يُسلِّم به العقل، ولا يمكن أن يأتي في القرآن الكريم، فإنه: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ (هود)[2].

إن ما رُوي في قصة الغرانيق لو كان واقعًا لشغب المعادون، ولارتد الضعفاء من المؤمنين، ولقامت قيامة مكة كما حدث في الإسراء، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن[3].

وإذا كان السياق القرآني يكذِّب هذه القصة، فإن اللغة تنكر هذه القصة أيضًا؛ فقد ذكر الشيخ محمد عبده في معرض الرد على هذه الفرية أن وصف العرب لآلهتهم بالغرانيق لم يَرِدْ لا في نظمهم، ولا في خُطَبِهم، ولم يُنقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جاريًا على ألسنتهم، إلا ما جاء في "معجم ياقوت" من غير سند، ولا معروف بطريق صحيح، والذي تعرفه اللغة أن: الغُرنوق، والغِرنوق، والغُرْنيق، والغِرْنيق - اسم لطائر مائي أسود أو أبيض، ومن معانيه الشاب الأبيض

---

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٤٦٥، ٤٦٦ بتصرف.

® في **"دعوة الأنبياء جميعا للتوحيد"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي). والوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). وفي **"توحيد الله هو محور العقيدة الإسلامية"** طالع: الشبهة الأولى، من هذا الجزء.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٢٤، ٤٢٥.

٣. عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، دار مكة المكرمة، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٩٥ بتصرف.

الجميل، ويطلق على غير ذلك، ولا شيء من معانيه اللغوية يلائم معنى الإلهية والأصنام، حتى يطلق عليهما في فصيح الكلام الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان[1].

لقد تناسى الطاعنون الأغراض التي جاءت من أجلها سورة النجم؛ فأول أغراض السورة: تحقيق أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن الله ﷻ، وأنه مُنزَّه عما ادعوه، وإثبات أن القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل، وتقريب صفة نزول جبريل بالوحي في حالين، زيادة في تقرير أنه وحي من الله واقع لا محالة، وإبطال إلهية أصنام المشركين، وإبطال قولهم في اللات والعزى ومناة: إنها بنات الله، وإثبات أن ذلك القول أوهام لا حقائق لها، وتنظير قولهم فيها بقولهم في الملائكة إنهم إناث، وتذكيرهم بما حلّ بالأمم ذات الشرك من قبلهم، وبمن جاء قبل محمد ﷺ من الرسل أهل الشرائع، وإنذارهم بحادثة تحل بهم قريبًا، فافتتح الله ﷻ السورة بقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾ (النجم)، وهذا كلام موجه من الله ﷻ إلى المشركين الطاعنين في رسالة محمد ﷺ[2].

وهذا تأكيد منه ﷻ على أن ما أتى به رسول الله ﷺ من وحي وعقائد ما جاء إلا لهدم عقيدة الشرك وترسيخ عقيدة التوحيد، إذ انتقل الكلام من إثبات أن النبي ﷺ مُوحى إليه بالقرآن الكريم، إلى إبطال عبادة الأصنام، فقال ﷻ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ (النجم).

ومناط الإبطال قول الله ﷻ: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ (النجم)[3]، وقد قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝٢٦﴾ (النجم).

فالله ﷻ يوبخ عَبَدَة الأوثان، بإقناطهم عما علّقوا به أطماعهم من شفاعة أوثانهم، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه، فأنّى لهذه الطواغيت أن تفتات على هذا المقام، ولها من الذلة والصغار ما يبعدها عنه بألف منزل[4].

وهكذا نجد أن سياق السورة الكريمة من أولها ذم للمشركين وإبطال لكفرهم وشركهم، فالسياق لا يحتمل مسألة الغرانيق المدّعاة.

- **أما من ناحية الرواية:** فقد استندوا إلى بعض الروايات الباطلة سندًا ومتنًا، والتي منها: ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة "النجم"، فلما بلغ قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠﴾ (النجم)، ألقى الشيطان على لسانه: "تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهن لترتجى"، فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير

1. السيرة النبوية، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٣٦٧ بتصرف يسير.
2. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مج١٣، ج٢٧، ص٨٨، ٨٩ بتصرف يسير.
3. المرجع السابق، ص١٠٢ بتصرف.
4. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٨، ص٥٣٢.

قبل اليوم، فسجد وسجدوا، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ (الحج).

وروى مثل هذا البزار في مسنده عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة "النجم" حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩)﴾ وذكر بقيته.

ومعنى الآية عند هؤلاء كما ذكر ابن جرير: لم نرَ يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم، ولا نبي محدث ليس بمرسل إلا إذا تمنَّى، والتمنِّي: إما حديث النفس، فيكون تمني النبي ﷺ هو: ما حدثته نفسه من محبته مقاربة قومه في ذكر آلهتهم ببعض ما يحبون، وفي بعض الأحوال محبته أن لا يذكر آلهتهم بسوء.

وإما أن التمني بمعنى: القراءة والتلاوة، فيكون المعنى: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ، أو حدث وتكلم، فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله، ثم يحكم الله آياته، بأن يخلص آيات كتابه من الباطل الذي ألقى الشيطان على لسان نبيه.

ومما سبق يتبين أن القائلين بوقوع "قصة الغرانيق" يستندون إلى:

١. الآثار التي نقلوها.

٢. قول الله ﷻ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)﴾ (الإسراء)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ (الحج)[1].

فأما الآثار التي وردت في ذلك فكلها ضعيفة سندًا ومتنًا ولم تُخرَّج في كتب الحديث المعتمدة، ولم تتحقق فيها شروط الصحة، وفي ذلك قال القاضي عياض: إن هذا حديث لم يخرّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند متصل، وإنما أُولِع به وبمثله المفسرون والمؤرخون، ورواية البزار المتصلة فيها ضعف، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: قد ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظنًّا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح.

وإن أصحاب كتب الحديث المعتمدة لم يذكروا حديث الغرانيق، وهذا يستأنس به على عدم صحته؛ إذ لو كان صحيحًا لأخرجوه أو أخرجه بعضهم، فقد ذكروا حديث سجود النبي ﷺ ومن معه عندما قرأ سورة "النجم".

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس"[2].

ورُوي أيضًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة "والنجم"، قال: فسجد رسول الله ﷺ، وسجد من خلفه إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافرًا، وهو

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤١٣، ٤١٤ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة النجم، قوله: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ (٦٢)﴾ (٤٥٦١).

أمية بن خلف[1].

ومن المعلوم أن عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من الكذب في التبليغ والتقوُّل على الله ما لم يقل قد ثبتت بالأدلة القاطعة المعجزة والإجماع، فأي دليل آخر يناقضها لا يُقْبل، فما بالك عندما يكون هذا الدليل الآخر حديثًا مرسلًا، أو منقطعًا، أو مطعونًا في بعض رواته، إنه أحرى أن لا يُقْبَلَ.

وليست الروايات باطلة من جهة السند فحسب، بل هي أيضًا باطلة من جهة المتن، فقد حكى القاضي عياض عن القاضي بكر بن العلاء قوله بضعفه، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنَة، وآخر يقول: بل حدَّث نفسه فَسَها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وإن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأْتُكَ، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ذلك قال: "والله ما هكذا نزلت"، إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

وجاءت كلمات الحديث في بعض الروايات: تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهن لترتجى، وفي بعض آخر: تُرْتَضَى، وفي رواية: لتُرجى، وفي بعض الطرق زيادة: مثلهن لا ينسى، وفي بعضها نقص، أي ذكر: إن شفاعتهن ترتجى، دون ذكر الغرانقة والغرانيق، فهذا الاختلاف بين الروايات يجعل الحديث مضطربًا.

والحديث المضطرب هو: الذي اختلف الرواة فيه، سواء كان الاختلاف في السند أو في المتن أو في كليهما، ويقع الاختلاف بالتقديم والتأخير، والزيادة والنقص، وبإبدال راوٍ مكان آخر، وبالتصحيف في السند أو المتن.

والاضطراب موجب لضعف الحديث؛ لإشعاره بعدم ضبط الراوي، ومن شروط الصحة أن يكون الراوي ضابطًا[2].

ثالثًا. إن الشيطان ليس له سبيل على عباد الله المخلَصِين، فكيف بالنبي ﷺ وهو المعصوم؟

"إن تسلط الشيطان على النبي ﷺ بالزيادة في القرآن ما ليس منه مخالف لقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الحجر)، وأي شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء، فضلًا عن رسول الله ﷺ؟ وقال ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (النحل)، وأي بشر أصدق إيمانًا وأقوى توكلًا من رسول الله؟ وقد صدّق الشيطان ذلك، كما حكاه الله ﷻ عنه بقوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص) بفتح اللام وكسرها، ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء، أو من أشد إخلاصًا منهم"[3]؟

وقد قام الدليل وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ من مثل ما رُوي، إما من تمنيه أن ينزل عليه مدح آلهة

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة النجم، قوله: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٤٥٨٢).

2. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤١٥: ٤١٩ بتصرف.

3. عظمة الرسول ﷺ، محمد بيومي، مرجع سابق، ص٢٩٤، ٢٩٥.

العرب وهو كفر، أو أن يتسوَّر عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن، حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ ذلك، حتى ينبهه جبريل، وذلك ممتنع في حقه؛ فما كان النبي ليفعلَ ذلك من قِبَل نفسه عمدًا وهو كفر، أو سهوًا وهو معصوم، وقد ثبت بالبراهين والإجماع عصمته من جريان ذلك على لسانه أو قلبه، لا عمدًا ولا سهوًا، أو يكون للشيطان سبيل عليه في التبليغ، ولو جوَّزنا ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء، ولوجد المارقون سبيلًا للتشكيك في الأديان، وهذا ما لا يقبله العقل.

على أن هناك بعض الآيات التي تؤكد عصمته ﷺ، وتنفي حادث الغرانيق من أساسه:

أولها: قول الله ﷻ: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ (الإسراء).

فهذه الآيات تفيد أن الرسول لم يقرب من الميل إليهم، لتثبيت الله إياه، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف المهات، لكن الله لم يذقه هذا العذاب، فهو إذن لم يقرب من الميل إليهم لتثبيت الله له.

وهذه الآيات لا يُستدل بها على إثبات حادث الغرانيق، بل على إبطاله، يقول القرطبي: ومما يدل على ضعفه - حديث الغرانيق - من الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ والآيتان بعدها، فهي ترد هذا الخبر؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم، فمضمون هذا ومفهومه أن الله ﷻ عصمه من أن يفتنه قومه فيفتري، وثبَّته حتى لم يركن إليهم قليلًا، فكيف كثيرًا؟! وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم، وأنه قال ﷺ: "افتريت على الله، وقلت ما لم يقل"، وهذا ضد مفهوم الآية، وهي تضعف الحديث لو صحَّ، فكيف ولا صحة له؟!

ثانيها: قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الحاقة).

فالآيات تفيد أن نبينا محمدًا ﷺ لو افترى على الله ما لا يصح نسبته إليه لأهلكه وعذَّبه، وما يستطيع أحد من الناس أن يدفع عنه هذا، وحيث إن الرسول ﷺ لم يهلكه الله ولم يعذبه، فهو إذن لم يقل على الله ما لم يقله الله.

قال ابن كثير في تفسيره للأيات: لو كان محمد ﷺ - كما يزعمون - مفتريًا علينا فزاد في الرسالة، أو نقص منها، أو قال شيئًا من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة، وما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك، والمعنى في هذا: بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات.

ثالثها: قول الله ﷻ: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ (النجم)، فقد أقسم الحق ﷻ بالنجم على أن نبينا ﷺ راشد تابع للحق ليس بضالٍّ ولا غاوٍ، وأنه ما تقوَّل قولًا عن هوًى وغرض، إنما يقول ما أُمِرَ بتبليغه إلى الناس كاملًا

موفورًا من غير زيادة ولا نقصان، وعلى هذا فالزيادة التي جاءت في قصة الغرانيق باطلة لا أصل لها؛ لأنها عن هوى لا عن وحي، والله قد أقسم بأن ما ينطق به رسوله عن وحي لا عن هوى.

رابعها: قول الله ﷻ في وصف القرآن الكريم: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت)، فعلى أن الباطل هو الشيطان، فقد ثبت أن الشيطان لا يستطيع أن يُغيِّر في القرآن شيئًا، ومن ثَمَّ فلا يستطيع أن يُلقي شيئًا في قراءة النبي ﷺ.

خامسها: قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)، يؤكد الله بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾، أنه هو المنزل للقرآن على وجه اليقين، وأنه هو الذي نزله محفوظًا من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل، وحادث الغرانيق فيه زيادة، فهو باطل؛ لأن القرآن محفوظ من الزيادة.

فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها، لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه أو ينقص منه حرفًا واحدًا أو كلمة واحدة، وهذا مختص بالقرآن العظيم، بخلاف سائر الكتب المنزلة، فإنه قد دخل عليها التحريف والتبديل الواضحان، والزيادة والنقصان، ولما تولى الله ﷻ حفظ هذا الكتاب بقي مصونًا الأبد محروسًا من الزيادة والنقصان.

سادسها: قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (يونس).

المعنى: وإذا تُتلى على أهل مكة آياتنا الظاهرة في دلالتها على وحدانيتنا وصحة نبوة محمد ﷺ، قال الذين لا يؤمنون بالبعث: ائت بقرآن ليس فيه ذم آلهتنا، أو بدِّل منه ما نكره وائت بغيره من عند نفسك، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ليس لي أن أغيِّره من تلقاء نفسي؛ لأنه ليس من عندي، وإنما هو من عند الله، فالتصرف فيه إلى صاحبه وهو الله ﷻ، لا إليّ: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾، أي: ما أتبع في شيء مما أفعل أو أترك إلَّا ما يُوحَى إليَّ في القرآن من غير تغيير له في شيء أصلًا.

ولو أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ ما ذُكر في قصة الغرانيق من أنه مدح أصنام المشركين، لكان ﷺ غير متبع ما يوحيه الله إليه، ولكان متبعًا ما يُوحيه الشيطان، والنبي ﷺ متبع ما أوحاه الله وحده إليه[1].

سابعها: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الحج).

---

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٢٠: ٤٢٤ بتصرف.

يقول الشيخ سيد قطب في مفتتح تفسيره لهذه الآيات: "والله الذي يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين، وتعطيل المعوِّقين، ومعاجزة العاجزين.. يحفظها كذلك من كيد الشيطان، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية، وهم معصومون من الشيطان، ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أماني تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها وإزالة العقبات من طريقها، فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيهم هذه، فيحول الدعوة عن أصولها وعن موازينها، فيبطل الله كيد الشيطان، ويصون دعوته، ويبين الرسل أصولها وموازينها، فيُحْكِم آياته ويزيل كل شبهة في قيم الدعوة ووسائلها" [(١)] ®.

الخلاصة:

- الرسول ﷺ هو الداعي إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وترك الشرك وذم المشركين، وهو حامي جناب التوحيد، وقد سدّ كل طريق يوصل إلى الشرك أو الأصنام، وكتب السيرة مليئة بشواهد تؤكد ذلك، فلم يسجد لصنم منذ أن كان طفلًا، ولم يمدح صنمًا، فقد بغضها كل البغض، ويشهد بذلك ما بدر من النبي عندما استحلفه بحيرا باللات والعُزَّى.
- لقد أمر ﷺ بهدم تلك الأصنام عندما فتح مكة، وهذا دليل على بغضه وكرهه لها، فهذا أصل عقيدة التوحيد، فهل يمدحها وهو كاره لها؟! وهل يهدمها بعدما مدحها؟!
- السياق في سورة النجم يرسِّخ عقيدة التوحيد في نفوس المسلمين، ومحو الشرك وذم ما دون الله من مثل اللات والعزى ومناة، وأنها افتراء ما أنزل الله بها من سلطان، فهل يستقيم مع ذمِّها في آيات متواليات مدحُها من خلال تلك الآيات بالعلّو ورجاء شفاعتها؟!
- قصة الغرانيق باطلة سندًا ومتنًا؛ لأن الروايات التي استند إليها الطاعنون موضوعة، ولم ترد القصة في كتب الحديث المعتمدة، وهذا يؤكد عدم صحة قصة المدح التي يزعمها الطاعنون.
- الشيطان ليس له سبيل على عباد الله المخلصين لقوة إيمانهم، وذلك مصداقًا لقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الحجر)، وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (النحل)، فأي عبد أقوى إيمانًا من النبي محمد ﷺ، فضلًا عن أنه معصوم من قِبَل الله!!

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٤٣١.

® في **"عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الخامسة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). والوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من هذا الجزء. والوجه الثالث، من الشبهة الأولى، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي).

الشبهة الثالثة

اتهام النبي ﷺ بفساد عقيدته؛ لتوهمه خروج الناس من الإسلام أفواجًا(*)

مضمون الشبهة:

يتهم بعض المغالطين النبي ﷺ بأنه كان يعتقد أن الناس سيخرجون من الإسلام أفواجًا، كما دخلوه أفواجًا؛ مستدلين على ذلك بما زعموه من أنه ﷺ بكى لهذا السبب؛ ويبرهنون على دليلهم بما نسبوه لجابر بن عبد الله من أنه لما نزل قول الله ﷻ: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾ (النصر) بكى الرسول ﷺ، وقال: "إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا، وسيخرجون أفواجًا". ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في مدى كمال عقيدة النبي ﷺ وثقته في ثبات أمَّته على الإسلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد استشهد مثيرو الشبهة بحديث ضعيف، ولم يكتفوا بالاستناد إليه على ضعفه؛ بل راحوا يُحَرِّفون نصَّه، فجعلوا النبي ﷺ هو الباكي، علمًا أن الباكي حسب الرواية المذكورة في هذا الشأن هو جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ثم إن دخول الناس في الإسلام أفواجًا كان عن اقتناع تام ورضا منهم به، ولا يوجد أي دافع لأن يخرجوا منه وهم الذين لم يُجْبَروا على الدخول فيه.

٢) معلوم أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا بين الأمم والشعوب المختلفة، وهذا ما تشهد به الدراسات التي قام بها الغربيون أنفسهم، كما أن دخول الإسلام واستقراره في نفوس معتقديه هو ما يثبته التاريخ وليس عكسه.

التفصيل:

أولا. لقد استند مثيرو الشبهة إلى حديث ضعيفٍ مُحَرَّف:

نشير بادئ ذي بدء إلى أن الحديث الذي استند إليه مثيرو هذه الشبهة حديث ضعيف، أورده الإمام أحمد في مسنده، وضعّفه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في "السلسلة الضعيفة".

ونصُّ الحديث كما أورده الإمام أحمد: عن أبي عمار: حدثني جار لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر، فجاءني جابر بن عبد الله يُسَلِّم عليَّ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا، وسيخرجون منه أفواجًا".

وواضحٌ أن مثيري هذه الشبهة حرَّفوا نصَّ الحديث، فجعلوا الباكي هو النبي ﷺ، ونصّه - كما رواه الإمام أحمد - يثبت أن البكاء كان من جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

هذا وقد ضعَّف الألباني هذا الحديث قائلًا: "قلت: وهذا إسناد ضعيف، رجاله ثقات، غير جار جابر، فلا يُعْرَف"[1].

هذا ما كان بشأن سند الحديث، أما مضمونه فبَيِّن

(*) موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

١. السلسلة الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، د. ت، برقم ٣١٥٣.

البطلان ؛ لأن الناس قد دخلوا في الإسلام أفواجًا عن اقتناع تام ورضا منهم به، ولا يوجد أي دافع للخروج منه، وهم الذين لم يُجْبَروا على الدخول فيه، فمن المعروف أن من أُكْرِه على شيء لا يلبث أن يتحلل منه إذا وجد الفرصة سانحة له، بل ويصبح حربًا على هذا الذي أُكْرِهَ عليه.

ومن يقرأ التاريخ الصادق يجد أن العرب - إلا شرذمة تَسَوَّر الشيطان عليها - ثبتوا على ما تركهم عليه الرسول ﷺ، وحملوا الرسالة وبلّغوا الأمانة كأحسن ما يكون البلاغ إلى الناس كافة، ولم يزالوا يكافحون ويجاهدون في سبيل تأمين الدعوة وإزالة العوائق من طريقها، حتى بلغت ما بلغ الليل والنهار في أقل من قرن من الزمان، ومن يطَّلع على ما صنعه العرب في حروبهم وفتوحاتهم - لا يسعه إلا أن يجزم بأن هؤلاء الذين باعوا أنفسهم رخيصة لله، لا يمكن أن يكون قد تطرق الإكراه إلى قلوبهم، وفي صحائف البطولة التي خطّوها أقوى برهان على إخلاصهم وصدق إيمانهم[1].

وإن المتأمل في سيرة النبي ﷺ وفي تاريخ الإسلام على مر العصور، يستطيع أن يتبين بكل يُسر الأسباب الحقيقية لانتشار الإسلام، وهي في مجملها أبعد ما تكون عن استخدام القوة والعنف والإكراه، ولا عجب في هذا، فلقد تعددت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد حرية العقيدة، وأن للمرء أن يختار ما يشاء من الأديان، ولا يُكرَه على أي منها، ومن ذلك قوله: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ (الكهف: ٢٩).

وقد طبق النبي ﷺ هذا المبدأ في حياته على أتم وجه، واقتدى بهديه في ذلك أصحابه الكرام، والمسلمون المتقون في كل زمان ومكان، ولعل قصة إسلام ثمامة بن أُثال الحنفي - سيد بني حنيفة - خير دليل على تطبيقه ﷺ لمبدأ حرية الاعتقاد.

فقد ذكر الثقات من كُتّاب السِّير والحديث أن المسلمين أسروا في سرية من السرايا سيد بني حنيفة - ثمامة بن أثال الحنفي - وهم لا يعرفونه، فأتوا به إلى رسول الله ﷺ فعرفه وأكرمه، وأبقاه عنده ثلاثة أيام، وكان في كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضًا كريمًا فيأبى، ويقول: إن تَسأل مالًا تعطه، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنْعِمْ تنعم على شاكر، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أطلق سراحه.

ولقد استرقت قلبَ ثمامة هذه السماحة الفائقة، وهذه المعاملة الكريمة، فذهب واغتسل، ثم عاد إلى النبي ﷺ مسلمًا مختارًا، وقال له: "يا محمد، والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليَّ"[2].

---

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبوشهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١٠١.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤١١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه (٤٦٨٨).

هذا ما استشهدنا به في معرض الإيمان الفردي، وهو للاستشهاد فقط، فما حدث لثمامة قد حدث مع الكثيرين من مشركي العرب.

وكذلك فالمتأمل لقصص دخول قبائل العرب في الإسلام أفواجًا، يجدها أيضًا خير تمثيل لتطبيق مبدأ حرية الاختيار، فلم يجبر النبي ﷺ - ولم يكن في مقدوره هو ولا أصحابه - كل هذه القبائل على الدخول في الإسلام، ولكن الحقيقة أن العرب كانت قد سمعت بالنبي ﷺ وبدعوته، فكانت تنتظر بإسلامها الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما فتح النبي ﷺ مكة بادر كل قوم بإسلامهم، وتتابعت الوفود على المدينة في هذين العامين: التاسع والعاشر، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في فتح مكة، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل، ثم نرى في حجة الوداع بحرًا من رجال الإسلام: مائة ألف من المسلمين، أو مائة وأربعة وأربعون ألفًا.

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفدًا، لا يمكن استقصاؤها، وليس ثمة كبير فائدة في بسط تفاصيلها، ويكفينا أن ندلل على أن هذه الوفود لم تُجْبَرْ على الدخول في الإسلام بأن نذكر قصة إسلام وفدٍ من هذه الوفود، وهو يدل على مجمل إسلام سائر القبائل العربية، وليكن هذا الوفد هو وفد همدان.

فقد قدموا سنة ٩هـ مرجع رسول الله ﷺ من تبوك، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا أقطعهم فيه ما سألوه، وأمَّر عليهم مالك بن النمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد رضي الله عنه يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، ثم بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمره أن يُرجع خالدًا، فجاء علي إلى همدان، وقرأ عليهم كتابًا من رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، فأسلموا جميعًا، وكتب علي ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ الكتاب - أي قُرئ له - خرّ ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: "السلام على همدان، السلام على همدان".

إذن فدخول الناس في الإسلام كان برضًا منهم، واقتناع تام بأنه الدين الحق، فما الداعي إذن لخروجهم منه أفواجًا، كما دخلوه أفواجًا؟

إن المرء ليعجب من مخالفة هذا الادعاء للمنطق والعقل من ناحية، ومخالفته لحقائق التاريخ والواقع من ناحية أخرى؛ فمنذ أن بعث الله عز وجل محمدًا ﷺ إلى الآن لم نعلم أن أفواجًا من المسلمين قد خرجوا منه دون سبب، أو بسبب من الترهيب والترغيب، فالمسلمون هم أشد الناس تمسكًا بدينهم، ولو أرادوا الخروج منه أفواجًا لخرجوا منه يوم أن غزا التتار ديار الإسلام بأساليبهم الوحشية، فدمروا وخربوا، وأسالوا الدماء أنهارًا، ولكن ما حدث هو العكس، فقد فتح الله قلوب كثير من هؤلاء الغزاة لعقيدة الإسلام[1]، أليس هذا تكذيبًا لهذا الادعاء؟!

لو أراد المسلمون أن يخرجوا من الإسلام أفواجًا، لخرجوا منه يوم جاء الصليبيون إلى بيت المقدس، وأصبحت الخيل تخوض في دماء المسلمين، لو أراد

١. انظر: المعجزة المتجددة في عصرنا: الإسلام، صالح بن محمد اليافعي، دار القمة، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٧م، ص٤٥٦: ٤٥٨.

المسلمون أن يخرجوا من الإسلام أفواجًا لخرجوا منه وهم تحت وطأة الاستعمار الأوربي، وقوافل التنصير تبذل كل ما في وسعها لاستمالة قلوبهم.

ولكن على الرغم من كل هذه الأزمات ظل الإسلام شامخًا، وظل تمسك المسلمين بدينهم لا يتزحزح قيد أنملة، إن فيما حدث مع المسلمين في الأندلس وفي البوسنة والهرسك والشيشان وغيرها، من محاولات لصرفهم عن دينهم - لخير دليل على ما نقول، فقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في التمسك بالعقيدة في كل زمان ومكان.

فكيف يصح عن النبي ﷺ أنه كان يعتقد بأن الناس سيخرجون من الإسلام أفواجًا كما دخلوه؟ لا شك أن هذا أمر لا يمكن أن ننسبه إلى النبي ﷺ، الذي بشره ربه بأن دينه سيملأ مشارق الأرض ومغاربها.

ثانيًا. الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا بين الأمم والشعوب المختلفة:

إن المتأمل في تاريخ انتشار الأديان قديمًا وحديثًا، يجد أن الإسلام هو الأكثر انتشارًا، وقد سبق أن أشرنا إلى إسلام قبائل العرب، وتتابع الوفود على النبي ﷺ لإعلان الإسلام، وقد أخبر الرسول ﷺ عن اتساع ملك أمته - وهذا على عكس ما يتوهمون - فقد جاء في حديث صحيح قوله ﷺ: "إن الله زوى[1] لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها"[2]. وقد كان ذلك.

فبعد مُضي أقل من قرن على موت النبي ﷺ وصل الإسلام إلى حدود الصين شرقًا، وإلى المحيط الأطلنطي وحدود الأندلس غربًا، وقد يقول قائل: لعل سبب انتشار الإسلام بين شعوب تلك المناطق يرجع إلى قوة المسلمين في ذلك العصر، واستخلافهم في الأرض، ونحن نقول له: إن انتشار الإسلام لم يكن في يوم من الأيام راجعًا إلى قوة المسلمين، أو سلطانهم فحسب، فالتاريخ يشهد بانتشار الإسلام حتى في لحظات ضعف المسلمين وهزيمتهم.

لقد مرَّ المسلمون بمحن كثيرة على مدار التاريخ بعد انقسام دولتهم الكبرى إلى دويلات صغيرة، صارت مطمعًا لكثير من الغزاة، ومن هذه المحن محنة التتار، وكانت أشد المحن التي واجهها المسلمون.

لقد كان المغول سيلًا جارفًا، لا يقف في وجههم أي شيء من الجبال والبحار وشدائد الطقوس والفصول، والقحط والأوبئة، ولا يخافون أي خطر ولا مانع، ولم تكن هناك قاعدة ترد هجومهم، ولم تكن تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم، لقد دمروا كل بلد من بلاد الإسلام مروا عليه، وكانت محطتهم الأخيرة مصر، التي باجتيازها يتم القضاء على الإسلام، ولكن الله أراد نصرة المسلمين على يد سيف الدين قطز ومن معه من المسلمين، فماذا كانت النتيجة؟

لقد بدأت دعوة الإسلام تنتشر فجأة في هذا الشعب الذي جاء بالأمس غازيًا لبلاد الإسلام، وتحقق على أيدي دعاة الإسلام ما لم يتحقق بالأسنة والرماح، وبطْش السلاطين الملوك، وبدأ الإسلام تتشربه نفوس أعدائه ويأخذ بمجامع قلوبهم، إن خضوع هذا الشعب

---

1. زَوَى: جمع.
2. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٧٤٤٠).

ـ الذي قهر المسلمين ـ أمام الإسلام من أغرب الوقائع والأحداث في التاريخ.

إن هجوم التتار على العالم الإسلامي كله ليس من الغريب المدهش كما يبدو في الظاهر، فالشعب التَّتَرِي شعبٌ قوي أبيٌّ، القوي الأبي الذي نشأ على حياة البداوة والهمجية والضراوة، ولكن الغريب المدهش أن هذا الشعب خضع للمسلمين المقهورين، واعتنق دينهم في أَوْج قوته وذروة سلطانه، ذلك الدين الذي فقد كثيرًا من سلطانه السياسي المادي آنذاك، وكان أتباعه موضع سخرية واحتقار في نظر التتار[1].

إننا نشاهد في كل يوم تزايد عدد المسلمين، ودخول الناس أفواجًا وفرادَى في الإسلام، وليس العكس، وهذا ما توضحه الإحصاءات الآتية:

لقد قام أحد علماء الغرب واسمه "كيث ستام" بدراسة؛ للتعرف على نسبة انتشار الأديان المختلفة، وذلك خلال نصف قرن (من سنة ١٩٣٤م ـ ١٩٨٤م).

من خلال هذه الدراسة يتبين أن الإسلام هو الديانة الأسرع انتشارًا في العالم؛ فالزيادة لجميع المذاهب والملل المسيحية مجتمعة كانت نسبتها ١٣٨٪، وفي المقابل زيادة غير متوقعة للإسلام بلغت ٢٣٥٪.

وقد أشار كيث في بحثه إلى أن هذه النتائج تؤكد حقيقة سرعة انتشار الإسلام في كلٍّ من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

وعلى نفس هذا المنهج العلمي، سار انجمار كارلسون ***E. Karlson*** في كتابه: "الإسلام في أوربا" موضحًا أن المسلمين يزداد عددهم بمعدلات أعلى في أوربا، وسوف نعرض هنا لمقتطفات مما قاله الكاتب في الصفحات من (١٢٢ ـ ١٣٦) من كتابه، يقول في دراسة أعدها الكونجرس اليهودي العالمي بعنوان "صمود الإسلام في أوربا": أكدت هذه الدراسة أن الإسلام يتمتع بمعدلات نمو أعلى في أوربا، فهناك حوالي ٢٠ مليون مسلم في الاتحاد الأوربي، وربما يصل العدد عام ٢٠٢٠ إلى نحو ١٠٥ مليون مسلم.

إن عدد المسلمين في بريطانيا مثلًا عام ١٩٦٣م كان لا يزيد عن ٨٢ ألف مسلم، ارتفع في ثلاثين عامًا حتى بلغ أكثر من المليونين، وتشير الإحصائيات إلى أن في الاتحاد الأوربي نحو ٧٠٠٠ جمعية ومركز إسلامي ومسجد، يستفيد من خدماتها أكثر من ١٦ مليون مسلم، ونستعرض بعضًا من الإحصائيات عن الإسلام في بعض الدول الأوربية الأخرى:

- **الإسلام في ألمانيا:**

يزيد عدد المسلمين فيها عن ٢ مليون، والإسلام هو الدين الوحيد الذي يزداد عدد أتباعه باطراد في ألمانيا، ولقد وجدت الجماعات الإسلامية في ألمانيا ضمانات لممارسة نشاطاتها الدينية والسياسية.

- **الإسلام في إيطاليا:**

وصل عدد المسلمين بها إلى أكثر من مليون وثمانين ألفًا، وأنشأ هؤلاء ٤٥٠ مسجدًا.

- **الإسلام في بلجيكا:**

كان عدد الجالية الإسلامية فيها سنة ١٩٥١م ثمانية آلاف مسلم، تضاعف هذا العدد ليصل في سنة

---

١. انتشار الإسلام والجهاد، محمد علوان، مرجع سابق، ص١٨٨، ١٨٩ بتصرف.

١٩٧٤م إلى ٢٠٠ ألف مسلم، أي يزداد عدد المسلمين بنحو ٨٣٠٠ مسلم في السنة، وفي قرى ومدن بلجيكا ١٠٠ مسجد، ينتظم أغلبها دورات تعليمية لحفظ القرآن الكريم ودراسة اللغة العربية[1].

- **إسلام أكثر من ٣٠٠ ألف سجين أمريكي:**

لقد تحوّل السجناء في أمريكا ليس فقط إلى مواطنين صالحين مسلمين هادئين، ولكن أيضًا إلى دُعاة خير وحب وتَقوَى وبُناة مجتمع صحيح مسلم، ويحدث هذا التحول العظيم لأفواج تلو أفواج، تتدفق إلى عالم جديد أراده الله لها، فارتضته، فأصبح عدد السجناء الذين اعتنقوا الإسلام أكثر من ٣٠٠ ألف مسلم، أصبح من بينهم ١٠٠ ألف داعية يحفظون القرآن[2].

إن ما ذكرناه الآن هو من باب الاستشهاد فقط، فلا يمكن استقصاء كل من دخل في الإسلام، ونحن إذا تتبعنا معدلات انتشار الإسلام في الوقت الحاضر، لعجبنا من ارتفاع هذه المعدلات بنسبة هائلة عن سائر الأديان.

هذه هي دراسات الغربيين عن انتشار الأديان كما نقلوها هم لنا، وهي تبين بكل جلاء أن النصرة والاستخلاف في الأرض في طريقها إلى الإسلام، ففي كل يوم أفواج تتلوها أفواج تدخل في الإسلام، وقد صدق الله حينما قال في كتابه الكريم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (التوبة)، ولقد بشر النبي ﷺ بذلك فقال: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله في هذا الدين بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلًّا يذل به الكفر"[3].

إن انتشار الإسلام وظهوره على غيره من الأديان هو الحقيقة التي لا يمكن أن ينكرها أحد، وهو ما جاء في القرآن الكريم، وما جاء على لسان النبي ﷺ، فكيف يقال إن النبي ﷺ كان معتقدًا أن الناس سيتركون الإسلام أفواجًا؟!

الخلاصة:

- لقد استدل مثيرو هذه الشبهة بحديث ضعيف، وَرَدَ في مسند الإمام أحمد، وضعفه العلامة الألباني في "السلسلة الضعيفة"، ومن ثَمَّ هناك شك في نسبته للنبي ﷺ، ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا يحرِّفون نصّه، ليجعلوا النبي ﷺ هو الباكي، لا جابر بن عبد الله رضي الله عنه، كما في رواية الإمام أحمد.
- لقد دخل الناس في الإسلام فرادى وجماعات عن اقتناع تام، فلم يحدث في تاريخ الإسلام أن أُجبر شعب من الشعوب على الدخول فيه، وإذا كان الأمر كذلك، فما الداعي إذن أن يخرج الناس منه أفواجًا، وهم قد دخلوه برضًا منهم واقتناع، والواقع يؤيد هذا، فالثابت أن المسلمين هم أشد الناس تمسكًا بدينهم،

---

١. انظر: الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد علي، مطابع الولاء، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٤١: ١٤٧.

٢. المعجزة المتجددة في عصرنا: الإسلام، صالح اليافعي، مرجع سابق، ص٥١٥ بتصرف.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث تميم الداري رضي الله عنه (١٦٩٩٨)، والحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملاحم (٨٣٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣).

وذلك على الرغم من تكثيف المحاولات المستميتة من أعدائهم لصرفهم عن الإسلام، سواء بالترغيب أو الترهيب.

- إن المتأمل في وقائع التاريخ يتبين له بكل سهولة أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا بين شعوب الأرض، أما بالنسبة للوقت الحاضر فقد كشفت الدراسات الغربية عن مفاجآت مذهلة بخصوص انتشار الإسلام، حتى توقع كثير من الدارسين أنه سيكون دين الغرب القادم، ويكفي أن نشير لتلك الدراسة التي تناولت انتشار الأديان بين عامي ١٩٣٤م - ١٩٨٤م، والتي خلصت إلى نتيجة مؤداها أن زيادة نسبة الدخول في الإسلام ارتفعت إلى ٢٣٥٪، فأين إذن تلك الوفود التي خرجت من الإسلام أفواجًا كما يزعمون؟!

الشبهة الرابعة

الزعم أن النبي ﷺ كان يعتقد خلوده الأبدي (*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في عقيدته ﷺ، زاعمين أنه لم يكن يعتقد أنه سيموت، ويستدلون على هذا بأنه ﷺ لم يعيِّن خليفة من بعده اعتقادًا منه في الخلود والبقاء الأبدي في هذه الحياة. ويبغون من وراء ذلك الطعن في عقيدته ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) الموت حقيقة كونية، ولا خلاف بين البشر في الإيمان بها، وإنكارها ضرب من الجنون، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال الذهاب إلى أن النبي ﷺ كان ينكرها ويظن نفسه خالدًا؛ فقد شهدت كثير من أحواله وأقواله على شدة إيمانه به وترقُّبه له، كما نقل ﷺ عن ربه قوله صراحة في القرآن: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر)، فكيف يعتقد بعد ذلك خلوده في الدنيا؟

٢) ما استدل به الطاعنون من عدم اختيار النبي ﷺ خليفة بعده لا يقف دليلًا على صحة زعمهم، وهو تدبير حكيم، مردُّه إلى رغبة النبي ﷺ في تربية الأمة على روح الشورى والحرية، وإتاحة الفرصة لها لاختيار ولي الأمر الشرعي الجديد، واكتساب خبرة تداول وجهات النظر... إلى غير ذلك من الحِكَم والمقاصد، ثم إن النبي ﷺ أشار مرارًا إلى رضاه بأبي بكر خليفة له وإن لم يصرح بذلك.

التفصيل:

أولا. الموت حقيقة كبرى يعتقدها جميع البشر:

يعلم الناس كلهم أن الموت حقيقة مشاهدة محسوسة، وأنه الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، الحقيقة التي يسقط عندها جبروت المتجبرين وعناد الملحدين وطغيان البغاة والمتألهين، إنها الحقيقة التي تغطي صفحة هذا الوجود المائج كله بغاشية الانتهاء والفناء، وتصبغ الحياة البشرية بصبغة العبودية والذل لقهار السموات والأرض، حقيقة يتسربل بها - طوعًا أو كرهًا - العصاة

(*) الإسلام والغزو الفكري، د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

والطائعون، والرؤساء والمتألهون، والرسل والأنبياء، والمقربون والأصفياء، والفقراء والأغنياء، والأغبياء ودعاة العلم والاختراع.

إنها الحقيقة التي تعلن على مدى الزمان والمكان، وفي أذن كل سامع، وعقل كل مفكر، أن لا ألوهية إلا لله وحده، وأن لا حاكمية إلا لذاك الذي تفرد بالبقاء، فهو الذي لا مردَّ لقضائه، ولا حدود لسلطانه، ولا مخرج عن حكمه، ولا غالب على أمره. أي حقيقة تنطق بهذه الدلالة نطقًا لا لبس فيه ولاغموض أعظم من حقيقة الموت وسكرة الموت؛ إذ قهر الله بهما سكان الدنيا كلهم منذ فجر الوجود إلى أن تغيب شمسه؟

لقد مَرَّ في معبر هذه الدنيا كثير وكثير، ولكن هذه الحقيقة الكبرى سرعان ما انتشلتهم ولا زالت: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

إطلاق لا قيد فيه، وعموم لا مخصص له، وشمول ليس للدنيا كلها أن تجعل له حدًّا، فليأت من شاء بما شاء، وليستعن بما يشاء ليدفع عن نفسه هذه الحقيقة، أو يبطل ولو جزءًا من هذا التحدي الإلهي: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[1] ومحمد ﷺ نفس، فهي ذائقة الموت، وكان يعتقد ويتيقن ذلك حق اليقين، فلماذا يُتهم بأنه ما كان يعتقد ذلك؟!

وإذا كان الموت حتمًا لازمًا لا مناص منه لكل حي من المخلوقات: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (القصص)، فإنه ما من بشر إلا وهو يعتقد أنه مهما طالت حياته، فإن مصيره إلى الموت والفناء، بعيدًا عن منهج كل بشر في حياته، وكيف يسير، وإذا كان ذلك كذلك، أفيكون محمد ﷺ غير معتقد هذا؟ هذه دعوى باطلة ولا تستند إلى دليل من منطق أو عقل، وإذا جاز لنا أن نحتكم إلى أبسط قواعد المنطق لقلنا: إذا كان اعتقاد الفناء والموت عامًّا في حق جميع البشر، فكيف بمن هو في شأنه ما ليس في شأن جميع البشر، من اصطفائه بدستور قد حكم على جميع من في الأرض بالفناء فقال ﷻ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ (الرحمن)، وخصَّه هو فقال ﷻ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الزمر: ٣٠)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنبياء: ٣٤).

فالرسول ﷺ يعلم أنه بشر وأنه سيموت؛ والأدلة على ذلك من القرآن الكريم كثيرة واضحة، منها:

يقول تبارك وتعالى مخاطبًا النبي محمدًا ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الزمر).

فالآيات تذكِّر الناس كلهم بأنهم صائرون إلى الموت، فإن الموت آخر ما يُذكِّرُ به السادر في غُلَوائه إذا كان قد اغتر بعظمة الحياة، ولم يتفكر في اختيار طريق السلامة والنجاة، وهذا من اغتنام القرآن فرص الإرشاد والموعظة.

فالمقصود هو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ فاغتنم هذا الغرض؛ يجتلب معه موعظة بما يتقدمه من الحوادث عسى أن يكون لهم بها مُعتبَر، فحصلت بهذه فوائد منها: تمهيد ذكر يوم

---

١. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٣٥٤، ٣٥٥ بتصرف يسير.

القيامة، والتذكير بزوال هذه الحياة، فهذان عامان للمشركين والمؤمنين، وحث المؤمنين على المبادرة للعمل الصالح، وإشعارهم بأن النبي يموت كما مات النبيون لينتفعوا به في حياته، ويحرصوا على ملازمته، ومنها أن لا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره، ومنها تعليم المسلمين أن الله سوّى في الموت دون مراعاة للتفاضل في الحياة، لتكثر السلوة وتقل الحسرة.

فجملتا: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر) استئناف، وعُطف عليهما: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الزمر) بحرف "ثم" الدال على الترتيب؛ لأن الإنباء بالفصل بينهم يوم القيامة أهم في هذا المقام من الإنباء بأنهم صائرون إلى الموت.

والخطاب للنبي ﷺ، وهو خبر مستعمل في التعريض بالمشركين؛ إذ كانوا يقولون كما أخبر القرآن ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الطور)، والمعنى: أن الموت يأتيك ويأتيهم فما يدري هؤلاء أن يكونوا يموتون قبلك، وكذلك كان، فقد رأى ﷺ مصارع أشد أعدائه في قَلِيب[1] بدر بعد ما دعا عليهم، قال عبد الله بن مسعود: "فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدَّهم رسول الله ﷺ صَرْعَى في القليب ـ قليب بدر"[2][3].

فالموت نهاية كل حي، ولا يتفرد بالبقاء إلا الله، وفي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد رسول الله ﷺ، وذكر هذه الحقيقة هنا حلقة من حلقات التوحيد، فالموت ليس نهاية المطاف؛ إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة، التي ليس شيء منها عبثًا ولا سُدًى، فيوم القيامة يختصم العباد فيما كان بينهم من خلاف، ويجيء رسول الله ﷺ أمام ربه ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه، ويواجهون به ما أنزل الله إليهم من الهدى[4].

قوله ﷻ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأنبياء).

وذلك لأن الكفار حاولوا قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر عليه من مكانٍ عالٍ، وهكذا يتخلصون منه ﷺ، وكانوا يتمنون ذلك، فيخاطبه ربه: يا محمد لست بدعًا من الرسل: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ وهذه سنة الله في خلقه، بل إنما موتك يا محمد لنسرع لك بالجزاء على ما تحملته من مشاق الدعوة وعناء الحياة الدنيا.

وقال له: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾، فأنت كغيرك من البشر قبلك، أما من بعدك فلن يخلدوا بعد موتك ﴿ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾، فلا يفرحوا بموتك؛ لأنهم ليسوا خالدين من بعدك[5].

قوله ﷻ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ

١. القَلِيب: البئر التي لم تُبنَ جوانبها بالحجارة.
٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد صلاته (٢٣٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين ... (٤٧٥٠).
٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ١١، ج ٢٣، ص٤٠٣، ٤٠٤.
٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣٠٥٠.
٥. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج ١٥، ص٩٥٣٦.

ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، فقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ أسلوب قصر، إنه ﷻ يقصر محمدًا على الرسالة، فإذا قُصِرَ محمد ﷺ على الرسالة، فهذا يعني أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمدًا أكبر من رسول، وأنه لا يموت، فأوضح الله ﷻ أن محمدًا رسول، وقد خلت من قبله الرسل، ولن يُخلِد الله أحدًا.

فقوله ﷻ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ يعني لا ترفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالته فوق ما رفعته أنا[1].

وقوله ﷻ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ تقرير لحقيقة ثابتة، ولأمر مؤكد، وهو أن محمدًا ﷺ واحد من البشر، وأنه سيموت كما يموت جميع البشر، وأنه ليس له صفة تميزه عن سائر البشر سوى الرسالة التي وهبها الله ﷻ له ومنحه إياها، وأن هذه الرسالة لا تقتضي بقاءه أو خلوده؛ إذ الرسل الذين سبقوه قد أدوا رسالتهم في الحياة كما أمرهم خالقهم، ثم ماتوا أو قُتِلوا، وما دام الأمر كذلك فمحمد سيموت وينتقل إلى الرفيق الأعلى كما مات الذين سبقوه من الأنبياء، وكما سيموت جميع البشر... فكأنه ﷻ يقول لهم: إن محمدًا ﷺ رسول من الرسل الذين أرسلهم الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وسيكون مصيره إلى الموت إن عاجلًا أو آجلًا، كما هو شأن سائر البشر الذين اصطفى الله ﷻ منهم رسله، إلا أن رسالته لن تموت من بعده، بل ستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يصح أن يضعف أتباعه في عقيدته أو في تبليغ رسالته من بعده[2].

هل يجوز بعد كل هذا أن يُظن أن رسول الله ﷺ كان يعتقد أنه لن يموت، منكرًا لهذا الوحي الذي يأتيه، والذي أخبر به عن ربه؟! فإذا كان لا يعتقد أنه سيموت، فلماذا يبلغ مثل هذا الوحي الذي يخالف اعتقاده؟!

ثم كيف يكون محمد ﷺ لا يعتقد أنه سيموت مع أن أحاديثه وأحواله تؤكد يقينًا عكس هذا، فعن أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما أسمعه يقول: "إن الله لم يقبض نبيًّا حتى يخيِّره"، قالت: فلما حضر رسول الله ﷺ الموت كان آخر كلمة سمعتها منه قوله: "بل الرفيق الأعلى من الجنة"[3].

بل إن النبي ﷺ في حجة الوداع يقرر هذه الحقيقة؛ إذ قال في أولها "أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا"[4].

وكأنه ﷺ ينعي نفسه إلى أمته ويخبرها أنه على وشك الرحيل، وكانت هذه الخطبة عبارة عن وصايا أخيرة

١. المرجع السابق، ج٣، ص١٧٩١، ١٧٩٢.

٢. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، القاهرة، د. ت، ج٢، ص٣٧٤، ٣٧٥ بتصرف.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٣٨٩)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب الوفاة، ذكر قوله ﷺ حين شخص بصره بأبي هو وأمي (٧١٠٢) وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ٤٧٠).

٤. صحيح: أخرجه الطبري في تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٩٣)، وصححه الألباني في فقه السيرة، ص٤٥٦.

للأمة ليسيروا عليها، ولينتهجوها بعد وفاته ﷺ، أَبَعْدَ كُلِّ هذا نقول: إن محمدًا ﷺ لم يعتقد أنه سيموت؟! كيف يعقل ذلك؟!

وفي حجة الوداع ينزل الوحي بآية كمال الدين وإتمام النعمة، قال الله ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ (المائدة: ٣).

قال الرواة في الصحاح: إن نزولها كان والمسلمون واقفون بعرفة يوم الجمعة، فلما سمعها عمر بكى، فقيل له ما يبكيك؟ قال: ما بعد الكمال إلا النقصان، والنقصان هو وداع رسول الله ﷺ الدنيا، وكأنه فهم ؓ بعقله المدرك وبصيرته النافذة أن النبي ﷺ بلغ رسالة ربه، وأنه إذ بلغها لم يبق إلا أن يذهب إلى ربه، وقد أدى واجبه، وبلَّغ وأنذر وبشَّر، وعلَّم الناس علم الشريعة وعلم القرآن الكريم، وأنه ﷺ علم بعلم ربه أنه قد آن الوداع فقال في خطبته في الحج "لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا".

ولقد أنزل الله تبارك وتعالى وسط أيام التشريق سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ (النصر). وقالوا إن رسول الله ﷺ قد عرف أنه الوداع، وقد فسر حبر الأمة ابن عباس - رضي الله عنهما - ذلك في حضور جمع من كبار الصحابة بأن السورة تدل على أجل النبي ﷺ، ووافق عليه الفاروق عمر بن الخطاب ولم يعترض عليه أحد من الصحابة، وذلك بطريق الإشارة أو التظنن؛ لأنه إذا تم النصر وعم الإسلام؛ فقد آن أوان المفارقة.

ومن الأحاديث التي تنبأ فيها النبي ﷺ بقرب أجله ولقاء ربه قوله لابنته فاطمة: "إن جبريل كان يعارضني القرآن الكريم كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي" [1]. أيضًا "كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي تُوُفِّي فيه اعتكف عشرين يومًا" [2].

وقد روي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال في جمع من أصحابه: "عبدٌ خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر وبكى، فقال فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا" [3][4].

وعن عوف بن مالك ؓ قال: "أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة أدم[5]، فقال: اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي..." [6].

وقال ﷺ في حديثه عن الدجال: "إن يخرج وأنا فيكم

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٢٤٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام (٦٤٦٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان (١٩٣٩).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩١)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٢٠)، واللفظ له.

٤. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٤٦٦ بتصرف يسير.

٥. قُبَّة أَدَم: مصنوعة من الجلد.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب ما يحذر من الغدر (٣٠٠٥).

فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤٌ حجيجُ نفسه..."[1].

لا شك - إذًا - أن زعمهم ما هو إلا قياس معكوس، وحجة منقوضة عليهم بالضد، فقد كان ﷺ أشد الناس ذكرًا للموت، وكثيرًا ما نبه الصحابة وذكَّرهم بالموت.

ثانيًا. حكمة الرسول ﷺ من عدم اختياره خليفة من بعده:

إن السبب في عدم تعيين النبي ﷺ خليفة له - وإن كانت بعض النصوص والتصرفات النبوية ترشِّح أبا بكر، لكن تلميحًا لا تصريحًا، وهو ما سنذكره بعد قليل - هو إتاحة الفرصة للأمة في أن تختار من يتولى أمرها بنفسها؛ لأن مسألة الخلافة أو الإمامة العظمى أمر سوف يتجدد طيلة الحياة، وليس معقولًا ولا واقعيًّا أن يعيِّن الرسول ﷺ ولاة الأمر إلى قيام الساعة.

وقد اكتسبت الأمة خبرات في نظام الحكم والممارسة المباشرة لشئون الإدارة العليا، نجم عنها نظام فريد في العالم، وهو أن الأمة مصدر السلطات في التولية والمراقبة لولاتها وعزلهم إذا اقتضى الأمر، بينما كان يشيع في العالم إذ ذاك نظم غاشمة، منها وراثة الحكم وتقديس الحكام وعائلاتهم.. أضف إلى هذا أن مهمة الرسالة والرسول كانت في إرساء قواعد المنهج وأصوله المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله، أما اختيار القادة والولاة فهو من شأن الأمة[2].

فالنبي ﷺ لم ينص بالخلافة لأحد من بعده، وإنما ترك الأمر شورى بين المسلمين. ويصور لنا د. حلمي صابر ما تم في السقيفة بقوله: ومن المعلوم أن النبي ﷺ قد قُبض ولم يثبت عنه أنه أوصى لأحد من بعده بالخلافة، لا لأبي بكر، ولا لعلي، ولا لأحد آخر، وإنما ترك المسلمين لإيمانهم، ولما رباهم عليه من الوحدة والأخوة وعدم الاختلاف.

ولو كان النبي ﷺ ترك نصًّا بالخلافة لأحد، لسارع جميع الصحابة إلى بيعته، ولما كان ما حدث من أمر السقيفة وتطلع الأنصار إليها، ولو كان النبي ﷺ قد أوحَى بها لعليٍّ لكان أبو بكر أسرع الناس إلى بيعته.

ونحن نعرف المبادئ القرآنية التي رُبِّي عليها هذا الجيل من الصحابة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب).

ولا يوجد في السنة نص صحيح صريح بأنه ﷺ أوصى بالخلافة من بعده لأحد، إلا أن النبي ﷺ رَشَّح أبا بكر تلميحًا لا تصريحًا، وقد تمت البيعة لأبي بكر بإجماع، وكانت عن رضا واختيار، ولم يختلف عليه المهاجرون ولا الأنصار.

ويصف د. حمدي شاهين ما تم في السقيفة بقوله: كان مؤتمر السقيفة مؤتمرًا شوريًّا رائعًا أعلن فيه كلا الفريقين وجهة نظره، مقدِّمًا الحجج والبراهين المؤيدة لها، فذكر الأنصار سابقتهم وفضلهم فقالوا: نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، ثم أعلنوا تصورهم عن الخلافة، فقالوا للمهاجرين: منا أمير ومنكم أمير، وردَّ

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٧٥٦٠).
2. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص١٨٧ بتصرف.

المهاجرون على بطلان هذا التصور، فقال عمر بن الخطاب: "هيهات، لا يجتمع اثنان في قَرَن"[1]، أو في بعض الروايات الأخرى: "سيفان في غِمْد"، إذ لا يصلحان، وكيف ولا يجتمع أميران في الحكم إلا ومعهما احتمالات التنازع والشقاق؟! وبعد أن يتحدث عن احتجاج المهاجرين بمنزلة قريش في نفوس العرب، واحتمال رضاها بقرشي أكثر من غيره، يقول: لقد كان من الضروري استصحاب الواقع العملي والإلف القبلي والسبق الإيماني جنبًا إلى جنب.

فهذا الذي تم في اختيار الأمة خليفة لها من بعد رسول الله ﷺ كان اجتماعًا شوريًّا رائعًا، أبدى فيه كل من المهاجرين والأنصار وجهة نظره في شأن من يخلف رسول الله ﷺ، وأسفر عن اختيار أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ عن رضا من المسلمين جميعًا، فكان التشاور هو السمة الغالبة على المجتمعين في سقيفة بني ساعدة، ومن هنا أصبح مبدأ الشورى الأساس الأول في اختيار خليفة المسلمين.

ومما يؤكد أيضًا بطلان هذه الدعوى وزيفها: أن النبي ﷺ كما أنه لم يختر خليفة من بعده أشار تلميحًا إلى خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فعن جبير بن مطعم قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول الموت - قال ﷺ: "إن لم تجديني فَأْتي أبا بكر"[2].

قال ابن حجر: وفي الحديث أن مواعيد النبي ﷺ كانت على من يتولى الخلافة بعده تنجيزها، وفيه رد على الشيعة في زعمهم أنه نص على استخلاف عليٍّ والعباس.

وعن حذيفة قال: كنا عند النبي ﷺ جلوسًا فقال: "إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدي، وأشار إلى أبي بكر وعمر، وتمسكوا بعهد عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه"[3].

فقوله ﷺ: "اقتدوا باللذين من بعدي"؛ أي: بالخليفتين اللذين يقومان من بعدي، وهما أبو بكر وعمر، وَحثَّ على الاقتداء بهما لحسن سيرتهما وصدق سريرتهما، وفي الحديث إشارة لأمر الخلافة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "بينا أنا نائم أُرِيتُ أني أنزع على حوضي أسقي الناس، فجاءني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليروِّحني[4]، فنزع[5] دلوين، وفي نزعه ضعف والله يغفر له، فجاء ابن الخطاب فأخذ منه فلم أر نزع رجل قط أقوى منه حتى تولى الناس والحوض ملآن يتفجر"[6].

قال الشافعي - رحمه الله -: رؤيا الأنبياء وحي،

---

١. القَرَن: الحبل.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا" (٣٤٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٣٠).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ (٢٣٣٢٤)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب عمار بن ياسر رضي الله عنه (٣٧٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٤٢).

٤. يُروِّح: يُريح.

٥. نزع: جذب.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا" (٣٤٦٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر (٦٣٤٦)، واللفظ له.

وقوله: وفي نزعه ضعف ـ قصر مدته وعجلة موته وشغله بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والتزيُّد الذي بلغه عمر في طول مدته.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: "ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابًا؛ فإني أخاف أن يتمنَّى متمنٍّ ويقول قائل: أنا أَولَى. ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر"[1].

فقد دل هذا الحديث دلالة واضحة على فضل الصديق ﷺ؛ حيث أخبر النبي ﷺ بما سيقع في المستقبل بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، وأن المسلمين يأبون عقد الخلافة لغيره ﷺ، وفي الحديث إشارة إلى أنه سيحصل نزاع، وقد وقع كل ذلك كما أخبر ﷺ، ثم اجتمعوا على أبي بكر ﷺ.

وعن عبيد الله بن عبد الله قال: دخلت على عائشة فقلت لها: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ قالت: بلى، ثقل النبي ﷺ فقال: "أَصلَّى الناس"؟ قلنا: لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله. قال: "ضعوا لي ماء في المِخْضَب"[2]. ففعلنا، فاغتسل ثم ذهب لينوء[3]، فَأُغْمِي عليه، ثم أفاق فقال: "أَصَلَّى الناسُ"؟ قلنا: لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله، قال: "ضعوا لي ماء في المخضب"، ففعلنا، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: "أَصَلَّى الناس"؟ قلنا: لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله؟ قالت: والناس عُكُوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخرة، قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يُصلِّي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تُصلِّي بالناس، فقال أبو بكر ـ وكان رجلًا رقيقًا ـ: يا عمر، صلِّ بالناس، قال: فقال عمر: أنت أحق بذلك، قالت: فصلَّى بهم أبو بكر تلك الأيام، ثم إن رسول الله ﷺ وجد في نفسه خِفَّة، فخرج بين رجلين ـ أحدهما العباس ـ لصلاة الظهر، وأبو بكر يُصلِّي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأَومَأَ[4] إليه النبي ﷺ أن لا يتأخر وقال لهما: "أجلساني إلى جنبه". فأجلساه إلى جنب أبي بكر، وكان أبو بكر يُصلِّي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر، والنبي ﷺ قاعد[5].

هذا الحديث قد اشتمل على فوائد عظيمة منها: فضيلة أبي بكر الصديق ﷺ وترجيحه على جميع الصحابة ﷺ وتفضيله، والتنبيه على أنه أحق بخلافة رسول الله ﷺ من غيره.

وروى ابن سعد بإسناده إلى الحسن قال: قال علي: لما قُبِضَ النبي ﷺ نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي ﷺ قد قدَّم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله ﷺ لديننا فقدمنا أبا بكر.

هذا ولأهل السنّة قولان في إمامة أبي بكر ﷺ من حيث الإشارة إليها بالنص الخفي أو الجلي، فمنهم من

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٣٢).
٢. المِخْضَب: الإناء الذي تُغسل فيه الثياب.
٣. يَنوء: يقوم بثِقَل.
٤. أومَأَ: أشار.
٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به (٦٥٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما (٩٦٣)، واللفظ له.

قال: إن إمامة أبي بكر ﷺ ثابتة بالنص الخفي والإشارة، وهذا القول ينسب إلى الإمام الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث، وهو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل، واستدل أصحاب هذا القول بتقديم النبي ﷺ له في الصلاة، وبأمره ﷺ بسد الأبواب إلا باب أبي بكر. ومنهم من قال: إن خلافة أبي بكر ﷺ ثابتة بالنص الجلي، وهذا قول طائفة من أهل الحديث، وبه قال أبو محمد بن حزم الظاهري، واستدل هذا الفريق بحديث المرأة التي قال لها: "إن لم تجديني فأتي أبا بكر" [1]. وبقوله لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: "ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍّ ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبابكر" [2]. وحديث رؤياه ﷺ: أنه على حوض يسقي الناس فجاء أبو بكر فنزع الدلو من يده ليروِّحه.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: والتحقيق أن النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبي بكر وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار رضي بذلك حامد له، وعزم على أن يكتب بذلك عهدًا، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك... فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لَبَيَّنَهُ رسول الله ﷺ بيانًا قاطعًا للعذر، ولكن لما دلهم بدلالات متعددة على أن أبا بكر هو المتعيِّن وفهموا ذلك حصل المقصود، ولهذا قال عمر بن الخطاب في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: "وليس فيكم من تُقطَع إليه الأعناق[3] مثل أبي بكر ..." [4]، إلى أن قال: فخلافة أبي بكر الصديق دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضا الله ورسوله ﷺ له بها، وانعقدت بمبايعة المسلمين له واختيارهم إياه اختيارًا استندوا فيه إلى ما علموه من تفضيل الله ورسوله، فصارت ثابتة بالنص والإجماع جميعًا، لكن النص دل على رضا الله ورسوله بها وأنها حق، وأن الله أمر بها وقدرها وأن المؤمنين يختارونها، وكان هذا أبلغ من مجرد العهد بها، وأما إذا كان المسلمون قد اختاروه من غير عهد ودلت النصوص على صوابهم فيما فعلوه ورضا الله ورسوله بذلك؛ فإن ذلك يعدّ دليلًا على أن الصديق كان فيه من الفضائل التي بان بها عن غيره ما علم المسلمون به أنه أحقهم بالخلافة؛ فإن ذلك لا يُحْتاج فيه إلى عهد خاص.

وقد قام أهل الحل والعقد في سقيفة بني ساعدة ببيعة الصديق بيعة خاصة، ثم رشَّحوه للناس في اليوم الثاني، وبايعته الأمة في المسجد البيعة العامة.

وقد أفرز ما دار في سقيفة بني ساعدة مجموعة من المبادئ منها: أن قيادة الأمة لا تقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هي أصل من أصول الاختيار وشرعية القيادة، وأن الخلافة لا يتولاها إلا الأصلب دينًا والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إسلامية وشخصية وأخلاقية، وأن الخلافة لا تدخل ضمن مبدأ الوراثة

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا" (٣٤٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٣٠).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٣٢).

٣. تُقطَع إليه الأعناق: لا يستطيع أحد أن يسبقه إلى الفضائل والخيرات.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت (٦٤٤٢).

النَّسَبية أو القبلية[1]، ولعل هذا بعض ما أراد النبي ﷺ للأمة أن تتعلمه من عدم تصريحه بمن يخلفه على قيادة الأمة من بعده، وليس كما يزعم الطاعنون بأنه لم يفعل ذلك لأنه لم يعتقد أنه سوف يموت®.

الخلاصة:

- إذا كان الموت قانونًا ثابتًا، وحقيقة مشاهَدة محسوسة، بل هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، إذا كان كذلك، فإن جميع البشر يعلمون هذا يقينًا، ويعلمون أنهم مهما طالت حياتهم فإن مصيرهم إلى الموت، وإذا كان الأمر كذلك فإن محمدًا ﷺ بشر، فكان يعتقد ذلك حق الاعتقاد، وهذا ما يقتضيه المنطق، ولا يختلف عليه البشر.
- إن المطالع لحال النبي ﷺ يرى أن هذا الزعم الذي مفاده أنه ﷺ كان يعتقد أنه سيخلد في الحياة خلودًا أبديًّا ـ قياس معكوس؛ فالنبي ﷺ كان يعتقد حق الاعتقاد أنه سيموت وبذلك أخبره القرآن الكريم، وأنه مثل جميع البشر والرسل، وكما قام الرسل بتبليغ رسالاتهم ثم ماتوا، فإن الرسول ﷺ سيموت، كما أن أحاديثه تنفي هذا الزعم، فهو الذي أخبر أن موته ﷺ من علامات الساعة، ونَعَى نفسه للأمة في خطبة الوداع بقوله: "لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا"، وأخبر أنه حجيج الدجال إن كان موجودًا، وإن لم يكن فكل امرئ حجيج نفسه.
- لم يعين النبي ﷺ خليفة من بعده؛ لتختار الأمة من يقوم بأمرها بنفسها، تحقيقًا لمبدأ الشورى، وبذلك اهتدت الأمة لمبدأ الشورى الأصيل الذي لم يهتد إليه قبلها شعب من الشعوب، كما أن الرسول ﷺ أشار إلى خلافة أبي بكر، وإن كان ذلك تلميحًا لا تصريحًا.

الشبهة الخامسة

إنكار عصمته ﷺ بدعوى أنها فكرة نصرانية(*)

مضمون الشبهة:

يُنكر بعض المغالطين عصمة النبي ﷺ ويزعمون أنها مستوحاة من النصرانية التي تؤمن بعصمة المسيح؛ بوصفه صورة لله ولا يجوز له أن يخطئ، ويرون أن ما قيل في عصمته ﷺ إنما هو مما روَّجهُ علماء الكلام المسلمون؛ تنزيهًا له ﷺ عن الأخطاء. ويَرْمون من وراء ذلك إلى نفي عصمته ﷺ؛ بُغْية اتِّهامه باقتراف ما يقترفه العامة من الذنوب والآثام، وإدخاله في جملة العصاة من البشر، إيذانًا لتجريده مما اختُصَّ به من الرسالة.

وجوه إبطال الشبهة:

1) تعريف العصمة وبيان معناها يُؤَكِّد أنها مبدأ قرآني، وينفي أن تكون فكرة مستوحاة من النصرانية، أو أن تكون مما روَّج له الكلاميُّون المسلمون.

---

1. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق: شخصيته وعصره، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص١٥٥: ١٦٦ بتصرف.

® في **"هل كتب النبي ﷺ اسم من يخلفه"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

(*) سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م. الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، مصر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢) معلوم أنَّ الله ﷻ عصم أنبياءه جميعًا، بما فيهم نبينا محمد ﷺ، لكنَّ عصمته ﷺ كانت أَسْمى وأَعْلى؛ لكونه خاتم النبيين، ولعموم رسالته إلى البشرية جمعاء.

٣) إن المسيح عيسى ابن مريم معصوم من الله عصمة لا تبعُد عن عصمة سائر الأنبياء؛ وذلك ليؤدي مهمته التي بُعث من أجلها؛ وليس لأنه صورة لله، فالله ﷻ ليس كمثله شيء في ذاته أو في صفاته وأفعاله.

التفصيل:

أولا. تعريف العصمة وبيان معناها يؤكد أنها مبدأ قرآني، وينفي أن تكون فكرة مستوحاة من النصرانية، أو أن تكون من ابتداع علم الكلام:

العصمة لغة: المنع، والحفظ، **واصطلاحًا:** حفظ الله تعالى أنبياءه من الذنوب كبيرها وصغيرها، أي أن الله تعالى لا يعطي للنبي الذي يرسله فرصة اقتراف الذنب؛ إذ يحفظه من ذلك.

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في مواضع عديدة، منها حوار نوح عليه السلام مع ابنه، حينما خاطبه قائلًا: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ (هود: ٤٢)، فأجابه ابنه: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ (هود: ٤٣)، فكلمة "يعصمني" الواردة في هذه الآية تأتي من فعل "عَصَمَ" ومعناه "حفظ"، وأجاب نوح عليه السلام ابنه بجواب جاءت فيه كلمة من الاشتقاق نفسه، إذ قال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ (هود: ٤٣)، وسواء أجاءت كلمة عاصم بنفس معناها أم بمعنى معصوم، فالأمر لا يختلف كثيرًا؛ إذ هناك عاصم، وهناك معصوم، والمعنى يدور حول العصمة.

وعندما شرحت "زليخا" امرأة العزيز عِفَّة يوسف عليه السلام قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢)، ومعنى كلمة استعصم هنا: امتنع، وصان نفسه ولم يقرب، وكلمة "اعتصموا" الواردة في الآية: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣) تأتي بمعنى استمسكوا بحبل الله المتين لكي تحفظوا أنفسكم من الوقوع في الانحراف، أي بمعنى الاستمساك بشيء قوي ومنيع، ومعنى المنع والحفظ يُلاحظ في كلمة "يعصمك" الواردة في الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)[1].

قال صاحب اللسان: العصمة في كلام العرب المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يُوبقه، يقال: يعصمه عصمًا: أي: يمنعه ويقيه.

وبهذا المعنى جاءت الكلمة في القرآن والسنة المطهرة، قال تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾ (الأحزاب: ١٧)، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم، وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله"[2]. والعصمة: القلادة، وفي اللسان - أيضًا -

١. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٧، ٨.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ (التوبة: ٥) (٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (١٣٨).

أصل العصمة: الحبل، وكل ما أمسك شيئًا فقد عصمه.

نجد مما ذكرناه أن العصمة لها عدة معانٍ، هي:

١. المنع. ٢. الحفظ. ٣. القلادة. ٤. الحبل.

وبالإمعان في هذه المعاني جميعها ترى أنها ترجع إلى المعنى الأول الذي هو المنع، فالحفظ منع للشيء من الوقوع في المكروه أو المحظور، والقلادة تمنع سقوط الخرز منها، والحبل يمنع من السقوط والتَّردِّي.

وعلى المعنى الأول دار كلام حُذّاق المفسرين؛ قال الإمام الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (آل عمران): "وأصل العصمة: المنع؛ فكل مانع شيء فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به"... وقد عَرَّف المتكلمون والمُحَدِّثُونَ من أهل السنة العصمة في الشرع بتعريفات بعضها يختلف عن بعض لفظًا إلا أن المعنى واحدٌ، وقد يختلف بعضها لفظًا ومعنى، والاختلاف في المعنى يعود إلى من سلب اختيار المعصوم في أفعاله، ومن أوجبه.

وهذه التعريفات وإن اختلفت مناحيها في التعبير، وتنوعت جوانب تناولها لمعنى عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإنها جميعها تنتهي إلى حفظ الله تعالى إياهم من مواقعة الذنوب والمخالفات بعد البعثة باتفاق المحققين، وقبل البعثة على التحقيق، ولعل من أحسن تعريفات العصمة وأسلمها ما ذكره صاحب كتاب "نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض" من أنها: "لُطفٌ من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير، ويَزْجُره عن الشر، مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء".

ومن المستحسن في تعريفها أيضًا أنها "حفظ الله ﷻ للأنبياء بواطنهم وظواهرهم من التلبُّس بمنهيٍّ عنه، ولو نهي كراهة، ولو في حال الصغر، مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء".

إن العصمة تعني حفظ الله تعالى لأنبيائه عن مواقعة الذنوب الظاهرة والباطنة، وأن العناية الإلهية لم تنفك عنهم في كل أطوار حياتهم قبل النبوة وبعدها، فهي محيطةٌ بهم تَحْرُسُهم من الوقوع في منهي عنه شرعًا أو عقلًا، وصدق القائل حين قال:

وإذا العِنايَةُ لاحَظَتْكَ عُيونُها
نَمْ فالمخاوِفُ كُلُّهنَّ أَمانُ

فقد كان أنبياء الله تعالى ورسله - عليهم السلام - محفوظي الظواهر والبواطن من التلبُّس بمنهي عنه، ولو نهي كراهة أو خلاف أولى.

فهم محفوظون ظاهرًا من الزنا، وشرب الخمر، والكذب، والسرقة، وغير ذلك من المنهيات المستقبحات في الخارج، ومحفوظون في الباطن من الحسد، والكبر، والرياء، وغير ذلك من منهيات الباطن[1].

وبهذا يثبت أن العصمة أصلٌ من أصول النبوة أنعم الله بها على أنبيائه جميعًا؛ وذلك لشرف الرسالة التي بُعثوا من أجلها، ولما سيلاقون من مشاق ومتاعب، وهذا ينفي أن تكون العصمة مستوحاةً من النصرانية، أو مأخوذة من علم الكلام، كما يدعي الطاعنون.

ثانيًا. الأنبياء جميعًا معصومون من الوقوع في الذنوب والآثام:

لقد حدثتنا آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٣: ٢٦ بتصرف.

الخاتم ﷺ عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حديثًا مستفيضًا جلَّى حياتهم من جوانبها المختلفة، فوضحت للناس متلألئة مشرقة، كلها رشد واهتداء.

ومجمل القول فيهم: أن تربتهم طيبة، وأحسابهم أصيلة، ومعادنهم نقية، وأصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم طاهرة، وبواطنهم صافية، وظواهرهم صادقة، ونشأتهم قويمة، ومنهجهم في طفولتهم رشيد، وسلوكهم بعد أن بلغوا الرشد حميد، وتصرفهم بعد النبوة حكيم، وموقفهم فيما يأتون وما يذرون سليم.

فهم في القمة من الفضائل، وفي الذروة من الكمال البشري الذي يشهد ببراءتهم من كل ذنب، وينطق بنزاهتم عن كل خطأ[1].

فكل الأنبياء معصومون؛ ولن تجد في حياة أي منهم انحرافًا مقصودًا، فهم أناس مختارون ومخلوقون بشكل استثنائي وهم ليسوا أخيارًا فحسب، بل هم مصطَفَون من بين أفضل الأخيار، وهؤلاء لا يقترفون طوال حياتهم أي شيء يُلقي ظلًا على اصطفائهم هذا وعلى قدسية المهمة التي بعثوا من أجلها.

ففطرة الأنبياء صافيةٌ طاهرةٌ، وأرواحهم عُلوية سامية، وإرادتهم صلبة قوية، وقلوبهم نيِّرة وضيئة؛ فالتجلِّيات الإلهية تتبلور وتنعكس في قلوبهم بأبعادها الحقيقية؛ فقلوبهم ونفوسهم مثل مرآة صافية نقية تعكس الأنوار على حقيقتها، فلا يوجد هناك أي انحراف أو تحوُّل في أي لون[2].

وإذا نحن أردنا أن نمثِّل لعصمة بعضهم كموسى - مثلًا - أوردنا قوله تعالى في مَعْرِض امتنانه عليه عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ (طه)، فيُفهم من هذه الآية أن الله تعالى لم يَدَعْ تربية موسى عليه السلام في قصر فرعون إلى فرعون ولا إلى أمه؛ بل ربَّاه هو، فكيف لا يكون مثل هذا النبي معصومًا وهو منذ طفولته تحت رعاية الله وعنايته وتربيته؟! وفي عصمة عيسى عليه السلام يقول الرسول ﷺ: "ما من بني آدم مولود إلا يمسّه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مسِّ الشيطان غير مريم وابنها"[3][4].

وبهذا تكون عصمة عيسى عليه السلام من الله، ليتحمل أعباء رسالته، وليس لكونه صورة من الله كما يدعون.

ومع إقرارنا لكافة الأنبياء بالعصمة إلا أن نبينا محمدًا ﷺ كان أسمى عصمة؛ ولِمَ لا وهو سلطان الأنبياء وغاية الخلق، وأحب الخلق لله تعالى، وقد أُرسل كل نبي لفترة من الزمن، ولمكان معين، بينما أُرسل محمد ﷺ للناس كافة حتى قيام الساعة، لذا فلا غرو أن يكون النبي ﷺ أمير المعصومين، وإمامهم الذي فاقت عصمتُه عصمتَهم وعفَّتُه عفتهم[5].

وقد ظهرت عصمته ﷺ عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة، بعد

---

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٤١ بتصرف يسير.

٢. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٨.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ (مريم) (٣٢٤٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٦٢٨٣).

٤. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص١٤ بتصرف.

٥. المرجع السابق، ص٧٣، ٧٤.

النبوة عقلًا وإجماعًا، وقبلها سماعًا ونقلًا، ولا بشيء من أمور الشرع، التي أدّاها عن ربه من الوحي قطعًا، وعقلًا، وشرعًا، وعصمته عن الكذب وخُلْف القول منذ نبّأه الله وأرسله قصدًا أو غير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعًا وإجماعًا، وعن الصغائر تحقيقًا، وعن استدامة السهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة، وعصمته في كل حالاته من رضى وغضب وجد ومَزْح[1].

ومن دلائل عصمته ﷺ حفظ الله له من أقذار الجاهلية: فلقد نشأ رسول الله ﷺ في مجتمع جاهلي يعج بالمفاسد والانحرافات، تُعبد فيه الأوثان وتُشرب فيه الخمور، وينتشر فيه الظلم، وما إلى ذلك من المفاسد التي اعتاد العرب ممارستها في جاهليتهم، إلا أن رسول الله ﷺ انسلخ عن هذا المجتمع انسلاخًا تامًّا، وإن كان يعيش فيه، فلم ينغمس في هذه المفاسد، ولم يشارك قومه في عاداتهم السيئة، بل سما وارتفع عن ذلك كله؛ لأنه كان محفوفًا بعناية إلهية خاصة تحفظه وتحميه من هذه الأقذار منذ صغره، لم يهم بعمل شيء مما عليه أهل الجاهلية إلا وصرفه الله عنه، وهذا من رحمة الله بعبده ورسوله الذي اصطفاه؛ حتى تكون سيرته بيضاء نقية لا غبار عليها؛ تهيئة له لحمل الأمانة العظمى.

وهكذا عصم الله نبيه من ضلالات الجاهلية، ومن عبادة الأصنام، إعدادًا له للنبوة[2].

ومن عصمة الله له (كونه محفوظ اللسان):

"يذكر الإمام أبو الحسن الماوردي أن النبي ﷺ محفوظ من تحريف في قول واسترسال في خبر يكون إلى الكذب منسوبًا وللصدق مجانبًا، فإنه لم يزل مشهورًا بالصدق في خبره فاشيًا وكثيرًا حتى صار بالصدق مَرقومًا[3]، وبالأمانة مرسومًا، وكانت قريش بأسرها تتيقن صِدْقَه قبل الإسلام فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه، فمنهم من كذبه حسدًا ومنهم من كذبه عنادًا، ومنهم من كذبه استبعادًا أن يكون نبيًّا أو رسولًا، ولو حفظوا عليه كذبة نادرة في غير الرسالة لجعلوها دليلًا على تكذيبه في الرسالة، ومن لزم الصدق في صغره كان له في الكِبَرِ ألزم، ومن عُصم منه في حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أعصم، وحسبك بهذا دفعًا لجاحد وردًّا لمعاند"[4].

وعلى هذا فالعصمة ملازمة للنبي ﷺ منذ بداية بعثته حتى وفاته، هذا بشهادة القرآن الكريم، وبشهادة سيرته العطرة، فلا يحق لأحد أن يزعم أن هذه العصمة وليدة علم الكلام، أو أنها مقتبسة من النصرانية.

ثالثًا. المسيح عيسى عليه السلام معصوم من الله كعصمة الله لأنبيائه جميعًا؛ وذلك ليؤدي مهمته التي بُعث من أجلها، وليس لأنه صورة لله:

إن الله ﷻ ليس كمثله شيء في صفاته وأفعاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى)، ويؤكد ذلك اعتراف المسيح نفسه بوحدانية الله، وبما

---

1. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج٢، ص١٧٢: ١٧٤ بتصرف يسير.
2. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣١٥: ٣١٨.
3. المَرقوم: المُعلَّم المعروف.
4. أعلام النبوة، أبو الحسن الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٩٤.

ينفي عنه صفة الألوهية أو كونه صورة لله. ولقد ورد في الأناجيل اعترافات كثيرة على لسان المسيح، تؤكد أنه كان يدعو إلى عبادة الله الواحد منها:

"فأجابه يسوع: أن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى". (مرقس١٢: ٢٩، ٣٠).

وأقر المسيح عليه السلام أيضًا بأنه رسول من عند الله: "أجابهم يسوع وقال: تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني". (يوحنا ٧: ١٦).

فإن كان المسيح عليه السلام يعترف بأن الله واحد، وهو الذي أرسله، فكيف يُدَّعى أنه إله أو أن له نفس صورة الله، فهذا لا يجوز، فالله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى) وهو الواحد، الذي لا شبيه له في صفاته وأفعاله، حتى ولو كان هذا الشبيه مَلَكًا، أو رسولًا مرسلًا.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ (النساء)، وقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ (المائدة: ٧٥).

وهذا يؤكد أن المسيح كان كغيره من الأنبياء في كل شيء حتى في العصمة فهو معصوم من الله؛ لكونه نبيًّا مرسلًا من الله، وليس لكونه "صورة من الله" فهذا زعمٌ باطل[1].

الخلاصة:

- إن العصمة في اللغة تعني: المنع والحفظ، وهي في الاصطلاح: لطف من الله يحمل النبي على فعل الخير، ويزجره عن الشر، مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء، وهي بهذا المعنى أصل من أصول النبوة، التي أنعم الله بها على أنبيائه جميعًا من لدن آدم عليه السلام حتى محمد ﷺ.
- إن سيرة الأنبياء جميعًا كلها رشد واهتداء، فبواطنهم صافية، وظواهرهم صادقة، ولقد عصمهم الله تعالى من الوقوع في الذنوب كبيرها وصغيرها، فصاروا القمة في الفضائل والذروة من الكمال البشري، ولقد كان محمد ﷺ في قمة العصمة، ولِمَ لا؟ وهو سيد الأنبياء وخاتمهم، ورسالته كانت عامة إلى البشر جميعًا.
- إن سيرة النبي ﷺ منذ نشأته حتى توفاه الله تشهد بعصمة الله له من أقذار الجاهلية، وما فيها من شرك ووثنية، وما فيها من شرور وآثام، حتى إنه ﷺ قد اشتهر في قومه منذ صباه بالصادق الأمين، وعُرف عنه سمو الأخلاق، وبعده عن كل ما يمكن أن يشين رجلًا عاديًّا فضلًا عن أن يكون نبيًّا بُعث قدوة للعالمين.
- إن الله عز وجل عصم المسيح عيسى ابن مريم لكونه نبيًّا مرسلًا، مثله في ذلك مثل سائر الأنبياء والمرسلين، وليس كما يزعمون لكونه صورة الله؛ لأن الله عز وجل ليس

---

١. انظر: قوانين النبوة، موفّق الجوجو، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٨٥ وما بعدها.

كمثله شيء في صفاته وأفعاله، وقد ورد في الأناجيل اعترافات كثيرة على لسان المسيح، تؤكد دعوته لعبادة الله الواحد الذي لا يشبهه شيء.

الشبهة السادسة

التشكيك في عصمته ﷺ؛ لإصرار بعض أهله على عدم الإيمان به(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض الطاعنين في عصمة النبي ﷺ؛ لعدم إيمان بعض أهله به وبدعوته، ولأن من أهله بعض فحول الكفر وطغاته، كما أن بيئته هي منبع الكفر، وكان ينبغي في زعمهم أن يكون النبي ﷺ من بيئة طيبة مؤمنة أي: يكون معصومًا في نسبه حتى يكون أهلًا لتلقي النبوة. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في عصمته ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن طهارة نسب النبي ﷺ وشرفه من أصدق الأدلة على أهليته للنبوّة.

٢) إذا كان بعض أهل النبي ﷺ وعشيرته من المشركين الذين لم يؤمنوا به وماتوا على الكفر، فإننا نجد بعض الأنبياء السابقين عليه قد خالفهم بعض ذويهم من الآباء والأبناء، مثل: سيدنا نوح عليه السلام الذي خالفه ابنه ومات مشركًا، وسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي خالفه والده، ومات كافرًا مشركًا يعبد الأصنام. فهل قدح قادح في عصمة نوح وإبراهيم عليهما السلام؟!

٣) لم يكن للبيئة المكية وما فيها من شرك ووثنية أي تأثير على النبي ﷺ سواء قبل بعثته أم بعدها، مما يبرهن على عصمة الله له ورعايته إياه.

٤) كان للعرب في جاهليتهم بعض الأخلاق المرذولة، غير أنهم كانوا ذوي فضائل وأخلاق متأصلة فيهم، فلم يكونوا شرًّا محضًا.

التفصيل:

أولا. نسب النبي ﷺ من أصدق الأدلة على أهليته للنبوة:

لا شك أن الأنبياء هم أشرف الناس نسبًا، كما أنهم أكملهم خَلْقًا وخُلُقًا؛ لذا سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن نسب النبي ﷺ فقال: "كيف نسبه فيكم؟ فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب. ثم قال: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها"[1].

ومن شواهد ذلك من قصص الأنبياء السابقين قول قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (هود: ٩١)، وقول قوم صالح لما أجمعوا على قتله عليه السلام: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩)﴾ (النمل).

(*) محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، حسن عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

قال ابن خلدون عن علامات النبوة: "ومن علاماتهم أيضًا أن يكونوا ذوي أحساب في قومهم".

وأولى الأنبياء الكرام بكل فضيلة خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ، وقد ورد في شرف نسبه أحاديث صحاح، منها قول رسول الله ﷺ: "إن الله ﷻ اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[(1)].

وفي فضل قريش عن أم هانئ مرفوعًا: "فضَّل الله قريشًا بسبع خصال: فضلهم بأن عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشي، وفضلهم بأن نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأن نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيهم غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ (قريش)، وفضلهم بأن فيهم النبوة، والخلافة، والحجابة، والسقاية"[(2)].

قال ابن حزم: هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ـ واسمه شيبة الحمد ـ بن هاشم ـ واسمه عمرو ـ بن عبد مناف ـ واسمه المغيرة ـ بن قصي ـ واسمه زيد ـ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ها هنا انتهى النسب الذي لا شك فيه.

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه (٦٠٧٧).

٢. حسن: أخرجه الطبراني، في المعجم الكبير (٢٤/ ٤٠٩)، برقم (٩١٧٣)، والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، ذكر أم هانئ فاختة بنت أبي طالب بن عبد المطلب ابنة عم رسول الله ﷺ (٦٨٧٧)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٤٤).

وعدنان ـ بلا شك ـ من ولد إسماعيل الذبيح رسول الله ابن إبراهيم خليل الله، عليهم الصلاة والسلام.

وقال ابن كثير: وذلك أنه ـ أي إبراهيم ؈ ـ وُلِد لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، وولد له يعقوب ـ أي من إسحاق ـ كما قال ﷻ: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ (هود)، وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة وكثروا جدًّا، بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة، حين خُتموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل ؈ فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، فلم يوجد من هذا الفرع الشريف، والغُصن المَنِيف[(3)]، سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويَغبِطه[(4)] الأولون والآخرون يوم القيامة[(5)].

ومن هذا البيان يتضح شرف نسبه ﷺ، وعظمة أجداده، و لو مات بعض ذويه على الكفر، فهذا لا يقدح في نسبه أو عصمته ونبوته®.

٣. المَنِيف: الشامخ المُشرَّف على غيره.

٤. يَغبِط: يتمنَّى ما عند الغير دون تمنِّي زوال النعمة عنه.

٥. وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢١: ٢٣ بتصرف.

® في **"إخبار النبي ﷺ عن طهارة نسبه"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). وفي **"انحدار نسب النبي ﷺ من أصل عريق"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة).

ثانيًا. إذا كان بعض أهل النبي ﷺ من المشركين الذين لم يؤمنوا به وماتوا على الكفر، فقد كُذِّب بعض الأنبياء السابقين من قِبَل آبائهم وأبنائهم، وماتوا على كفرهم:

إن مسألة إيمان أهل النبي ﷺ وعشيرته ليس فيها ما يدعو إلى الطعن في عصمته ونبوته ﷺ؛ وذلك لأن منهم من آمن به وصدقه منذ أن علم حاله، مثل ابن عمه جعفر بن أبي طالب وابن عمه علي بن أبي طالب، ومثل عمه العباس بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيد الله بن الحارث بن عبد المطلب، وغيرهم، ولم يكفر من أعمامه إلا أبو لهب، ومات كافرًا، وهو الذي كان يؤذيه هو وزوجته فنزل فيهم قول الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ (المسد).

وأما عمه أبو طالب، فإنه لم يؤمن، ولكنه كان يدافع عنه طيلة حياته، ويمنعه من قريش، وهذه هي سنة الحياة أن يكون فيها الطالح والصالح، فنجد في سير الأنبياء قبله ﷺ أن سيدنا نوحًا عليه السلام قد خالفه ابنه ولم يؤمن معه، قال ﷻ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود): ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي: من دين أبيه، وقيل: عن السفينة، وقيل: إن نوحًا لم يعلم أن ابنه كان كافرًا، وأنه ظن أنه مؤمن، ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (هود)، وكان ذلك قبل أن يستيقن القوم الغرق، وقوله ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾ أي: أرجع وأنضم ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي﴾ أي: يمنعني ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فلا أغرق، قال: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ أي: لا مانع؛ فإنه يوم حُقَّ فيه العذاب على الكفار إلا من رحمه الله فهو يعصمه، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ يعني بين نوح وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[1].

وكذلك كان والد إبراهيم عليه السلام كافرًا مشركًا يعبد الأصنام، قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ (مريم).

فهذه الآيات توضح أن آزر والد إبراهيم عليه السلام لم يؤمن بما جاء به ابنه رغم دعوة إبراهيم عليه السلام له، فلما أصرَّ أبوه على كفره مات مشركًا.

وكذلك تحدث القرآن عن نساء كافرات في

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٩، ص٣٨: ٤٠ بتصرف.

بيوت أنبياء، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ (التحريم: ١٠)، والخيانة هنا خيانة الدين؛ إذ كانتا مشركتين، فامرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه، وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه، وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه[1].

وفي هذا كله دلالة على أن عدم إيمان بعض العشيرة والأهل بالنبي لا يطعن في عصمة هذا النبي، ولا في كونه نبيًّا مرسلًا، فهذه سنة الحياة، كما أرادها الله ﷻ، فقد تجد الرجل ينجب أولادًا، بعضهم صالح يحب الخير، وبعضهم طالح يحب الشر ويأمر به، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (القصص).

ثالثًا. ثبات النبي ﷺ على الحق، وعدم تأثره ببيئة مكة الوثنية:

لو لم يكن محمد هذا الرسول الكريم معدًّا بالفطرة للرسالة العظيمة التي قام بها، لما كان رسولًا، ولو لم يكن ذلك الروح المشرق أهلًا للاتصال بالقُوَى الإلهية اتصالًا فوق العادة، لما أمكن أن تُلقَى إليه كلمة الله، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، فمحمد خُلق عظيمًا قبل أن يوحَى إليه، وقبل أن يكون رسولًا؛ نفر منذ صباه من عبادة الأوثان، وهي آلهة آبائه، ومصدر عزتهم في جزيرة العرب كلها، وكان منذ صباه الصادق الوفي، المحبوب المبجَّل في قومه؛ فسماه قومه الأمين، وكان فضله ظاهرًا منذ شبابه، فدعته امرأة من صواحب الثروة الواسعة في قريش ومن أعلاها نسبًا، إلى التزوّج بها مع علمها بفقره.

ولَمَّا وقف رسول الله ﷺ لأول مرة على الصفا يدعو عشيرته إلى دينه، قال: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"[2].

كان ﷺ قبل الرسالة أشد الناس نفورًا من الظلم، وهضم حقوق الضعفاء، فما تحمّس لعمل في الجاهلية تحمسه لحلف الفضول، وهو أشرف حلف في العرب، وسببه أن رجلًا من زبيد، من أهل اليمن، باع سلعة من العاص بن وائل السهمي، فظلمه بالثمن، فذكر ظُلامته في قصيدة مطلعها:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ
بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ

فلما سمع بنو هاشم ذلك دعوا إلى تعاقد وتعاهد سُمِّي "حلف الفضول"، فلا يجدون بمكة مظلومًا من أهلها أو غيرهم، ممن دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه، حتى ترد عليه مظلمته.

وفي هذا الحلف يقول محمد ﷺ بعد الرسالة: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفًا ما أُحب أن لي

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٦٢١ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة المسد (٤٦٨٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء) (٥٢٩).

به حُمُر النَّعَم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت"[1].

فنصرة الفقير والضعيف، هي أحب الأمور إلى نفسه.

وولد محمد ﷺ كامل الخلق والمروءة، وعاش ولم يكن للبيئة سلطان على نفسه، بل كان طلب الحق والثبات عليه أبين صفاته الحميدة، وسنضرب بعض الأمثال على تلك الصفة البارزة في حياة بطل الإسلام الأعظم ﷺ.

انظروا إليه وقد وُلِد في بيت رياسة متوارثة، عن هاشم عن عبد مناف عن قصي، قصي الذي دانت له الرقاب، واستأثر في مكة بالسلطان، وانفرد قومه قريش بالقيام على دين العرب، ورعاية أصنامها، وسِدانة كعبتها[2]، والسِّقاية والرِّفادة[3]، وغيرها من المناصب التي ترفع الذكر في البلاد.

فهل منع هذا الميراث محمدًا من طلب الحق والثبات عليه؟ كلا! لقد سفَّه أحلام آبائه، ودعا إلى هدم النظام الديني، الذي كان به فخر عشيرته وسلطانها.

وانظروا كذلك إليه في بني عبد مناف، وبين بني هاشم والمطَّلب، يلقَى رعاية لم ينلها أحد من صِبيَة هذا البيت؛ فهو الوحيد من البنين والحفدة الذي كان يجلس على فراش جده سيد القوم.

كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا حتى يخرج إليه، ولا يجلس عليه أحد من بنيه، إجلالًا له، فكان رسول الله يأتي وهو غلام، فيجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأنًا، ثم يجلسه معه عليه، ويمسح ظهره، ويُسَرُّ بما يراه يصنع.

وتهيَّأ عمه أبو طالب للرحيل إلى الشام في تجارة، فلما أجمع المسير ضبَّب[4] به محمد ﷺ فرقَّ له، وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني أبدًا، فخرج به معه، يحمله في ذلك السفر الشاق الطويل.

هذا التدليل والبر الذي حباه إياه جده وعمه، كان جديرًا أن يصرفه إلى دين آبائه، ولكن نفس محمد ﷺ لم تسكن إلى غير الحق، فلما وجده ثبت عليه في وجه قومه المدلِّلين له، والبررة به.

فأي مثل في طلب الحق أعظم من ذلك الذي ضربه محمد ﷺ؟ ولما أوفدت قريش زعماءها إلى أبي طالب تنذره، وتطلب إليه أن يكفَّ ابن أخيه عنها، أو تنازله حتى يهلك أحد الفريقين، عظم الأمر على أبي طالب، وخشي دَهْماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، فبعث إلى محمد: فقال يا ابن أخي إن بني عمك يزعمون أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم فانته عن ذلك، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: ماأنا بأقدر أن أدع لكم ذلك على أن تستشعلوا لي منها شعلة، فقال أبو طالب: ما كَذَبَنَا ابن أخي فارجعوا[5].

١. صحيح: أخرجه البيهقي في سننه، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب إعطاء الفيء على الديون ومن يقع به البداية (١٢٨٥٩)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص٣٥.

٢. سِدانة الكعبة: خدمتها والقيام عليها.

٣. الرِّفادة: إطعام الحجيج.

٤. ضبَّب: تعلَّق به.

٥. حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند عبد الله بن جعفر الهاشمي (٦٨٠٤)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢).

فبكاء محمد في طفولته ألزم أبا طالب أن يحمله إلى الشام، وثباته على الحق في كهولته جعله يُعرِّض نفسه وأهله للهلاك، فلو لم يكن الحق الذي دان به محمد قد ملك قلبه، فلا يرى سواه، لكان وفاء عمه له هذا الوفاء، كافيًا لصدِّه عما هو فيه، أو كان كافيًا على الأقل لقبوله هدنة يُفرج بها عن عمه وأهله كَربَهم. فأي ثبات على العقيدة أعظم من هذا الثبات، وأي امتحان للإيمان أكثر من هذا الامتحان؟

ثم انظروا صورة أخرى، هي مثل في الكرامة والوفاء، وحرية الرأي، انظروا إلى رجل من آل عبد المطلب كان مولعًا بالصيد، يخرج كل يوم للقنص، فإذا ما رجع طاف بالكعبة، ثم مر بأندية قريش يسلِّم على أهلها ويتحدث، وكان أعز فتًى فيهم، وأبعدهم عن دين محمد، هو حمزة بن عبد المطلب، رجع يومًا من قنصه، وطاف بالأوثان كعادته، فقالت له جارية: إن أبا الحكم بن هشام ـ أبا جهل ـ وجد محمدًا ها هنا جالسًا، فسبَّه ونال منه ما يكره، وانصرف عنه، ولم يكلمه محمد، فغضب حمزة وثار، وقصد إلى أبي جهل في مجمع قريش، وضربه بالقوس، فشجَّه شجَّة منكرة، ثم قال: أتشتمه؟ وأنا على دينه أقول ما يقول!

انظروا هذه الصورة: أعز فتى في قريش يتقرّب إلى أصنامها، ويأنس بأنديتها، يخرج على القوم ودينهم، غضبًا لكرامة ابن أخيه، وتحديًا للذين تعرضوا لحريته، هل هناك أعظم من هذا الوفاء والبر بمحمد؟!

ثم انظروا إليه ﷺ يشهد هذا الوفاء، ويرى بني عبد المطلب في فم الأسد، ولا يتزحزح عن مقامه، بل يهزأ بالدنيا، أرأيتم كيف يعشق الحق؟ وكيف يكون الثبات عليه؟ تلكم أظهر صفات محمد ﷺ.

انظروا إليه كذلك في صورة أخرى: يفاوضه عن قومه عتبة بن ربيعة بجانب الكعبة، فيقول له: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت، من البَسْطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل بعضها.

فقال محمد: قل يا أبا الوليد، قال عُتبة: إن كنت إنما تريد بما جئت به مالًا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا، سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلْكًا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْيًا[1] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوي منه.

فلما فرغ قال له محمد: استمع مني يا أبا الوليد فتلا عليه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾ (فصلت).

ومضى يتلو عليه، وكان ذلك كل جوابه لِما عرضت قريش، فلو لم يكن الحق الذي ملأ نفسه هو مطلبه الأسمى، لوجد في رفق قومه المخاصمين له ما يطفئ من حماسته، ويسكن من ثورته على دينها وآلهتها.

تلكم نفس محمد، خُلُقها المتجلِّي في كل صورة من

١. الرَّئِيُّ: التابع من الجن.

صورها، حب الحق والثبات عليه، فالحق في ذاته هو الغاية التي دأب وراءها، وخاصم وابتُلي وهاجر وقاتل لها، والناس جميعًا طلاب للحق، أو يجب أن يكونوا كذلك، وقد ضرب لهم محمد المثل الأعلى. ولا يزال رسول الله في ميدان البطولة، تمر بين يديه أبطال العرب وغير العرب، كما تمر مئات السنين، وهو المثل الأعلى للثبات على الحق، والدعوة إلى أن يكون الناس كافة لله عبيدًا، وفيما بينهم إخوانًا[1].

رابعًا. لم يكن العرب الذين عاش النبي ﷺ بين ظهرانيهم شرًّا محضًا:

كان للعرب في جاهليتهم بعض الأخلاق المرذولة، غير أنهم كانوا ذوي فضائل وأخلاق كريمة، متأصلة فيهم؛ ولهذا اختار الله خاتم الأنبياء منهم، ومن أخلاقهم الكريمة:

١. **حب الحرية، وإباء الضيم والذل**: العربي بفطرته يعشق الحرية ويحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلًا، أو أن يُنال من شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته.

٢. **الشجاعة**: فقد كانوا مضرب الأمثال فيها، وقد كان الواحد منهم يقابل الأسد في الصحراء فينازله حتى يقهره، وبعضهم لم يعرف الفرار ولا الهزيمة قط، وقد كان لهذه الفضيلة وزنها حينما جاء الإسلام، وفرض عليهم الجهاد.

٣. **الكرم**: وهو خلق متأصل في العرب، ولا سيما أهل البادية، وقد كان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان، بل كان يطعم الوحش والطير.

٤. **المروءة والنجدة**: والعربي بفطرته ذو مروءة فهو يأبى أن ينتهز ضعف الضعيف، وعجز العاجز كالمرأة، والشيخ، والمريض، وهو ذو شهامة إذا استنجد به أحد أنجده، ويرى من النذالة التخلِّي عنه.

٥. **الوفاء بالعهد**: وهو من صفات العرب المشهورة، وقصة السَّمَوْأَل بن عادياء في الوفاء مشهورة، فقد ضحَّى بابنه، ولم يقبل أن يخون العهد بتسليم الأَدْرُع التي أودعت عنده، ومن أمثلة ذلك أيضًا أنه لما ظفر الحارث بن عبَّاد بقاتل ابنه، وهو المهلهل بن ربيعة في حرب البسوس، وهو لا يعرفه قال له: إذا دللتك على المهلهل تطلقني؟ قال له: نعم، فقال له: أنا مهلهل، فاكتفى بأن جزَّ ناصيته وتركه، ولم يقبل أن يخلف وعده.

٦. **العفو عند المقدرة**: وقد كان الواحد منهم ينازل خصمه، وقرنه، حتى إذا أمكنه الله منه، عفا عنه وتركه، بل كان يأبى أن يجهز على جريح.

٧. **حماية الجار وإجارة المستجير**: وكانوا إذا استجار بالواحد منهم مستجير أجاره، وربما ضحَّى بنفسه وولده في سبيل إجارته، كما كانوا يرعون حقوق الجار، ولا سيما رعاية حرمه، والمحافظة على عرضه، قال عنترة:

وأَغُضُّ طَرْفِي إن بَدَت لي جارَتي
حَتَّى يُوارِي جارَتي مَأواها

---

١. بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد ﷺ، عبد الرحمن عزام، دار الهداية، القاهرة، دار القلم، الكويت، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٢: ١٧ بتصرف يسير.

٨. **القناعة والرضا باليسير:** ومن أخلاق العرب القناعة، وهي الرضا باليسير، ولعل طبيعة البلاد هي التي فطرتهم على هذا، فقد كان الواحد منهم يسير الأيام مكتفيًا بتمرات يقيم بها صلبه، ورشفات من ماء يرطب بها كبده، وقلة تكاليف الحياة جعلتهم يكتفون بالقليل، قال قائلهم:

إذا ما لَم تَكُن إبِلٌ فَمِعزى
كَأَنَّ قُرونَ جَلَّتِها العَصِيُّ[1]
فَتَملأُ بَيتَنا أَقِطًا[2] وَسَمنًا
وَحَسبُكَ مِن غِنى شِبَعٌ وَرِيُّ

٩. **قوة الروح، وعظمة النفس:** العربي يمتاز إضافةً إلى شجاعته البدنية، بقوة الروح وعظمة النفس، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد تشرُّفهم بالإسلام، وتوحدهم تحت لوائه؛ فإنهم لم يهابوا الفرس ولا الروم على كثرة عددهم وعدتهم، وكان لهم معهم في حروبهم مواقف مشهورة.

١٠. **الصبر على المكاره، وقوة الاحتمال:** ولعلهم اكتسبوا ذلك الخلق من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ومرنوا على الحر والبرد؛ ولهذا لما دخلوا في الإسلام بعدُ ضربوا في الصبر وقوة الاحتمال مُثُلًا لم تُعرف لغيرهم، ولم يؤثِّر فيهم الحر والبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ حينما كُلِّفوا بالجهاد.

هذه الفضائل وغيرها كانت رصيدًا مدَّخرًا في نفوس العرب حتى جاء الإسلام فنمَّاها وقوَّاها، ووجَّهها وجهة الحق والخير، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من شبه جزيرتهم كما ينطلق الملائكة الأطهار، ففتحوا الأرض، وملئوها إيمانًا بعد أن مُلئت كفرًا، وعدلًا بعد أن مُلئت جورًا وظلمًا، وفضائل بعد أن عمَّتها الرذائل، وخيرًا بعد أن طفحت شرًّا، وتحققت سنة الله تعالى لهم حيث قال ﷻ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ ﴾ (القصص)[3].

ونخلص من هذا إلى أن النبي ﷺ ليس بدعًا من الأنبياء في عدم إيمان بعض أهله به، وإذا كان الأمر كذلك فنسأل مثيري الشبهة: لِمَ طعنتم في هذا الصدد في محمد ﷺ دون من عداه من الأنبياء®؟!

الخلاصة:

- لقد شاء الله تعالى أن يكون أنبياؤه ذوي أحساب في أقوامهم، ومحمد ﷺ هو أولى الأنبياء بكل فضيلة، لذا كان ﷺ أشرف الناس نسبًا، ولقد شهد له أعداؤه بذلك، فلما سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن نسب النبي ﷺ فقال: كيف نسبه فيكم؟ قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، ثم قال هرقل: سألتك عن نسبه

١. العَصِيُّ: المسنّ منها.
٢. الأَقِط: لبن محمَّض يجمَّد حتى يتحجَّر ويُطبخ، أو يطبخ به.

٣. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبوشهبة، مرجع سابق، ج١، ص٩٤: ٩٧ بتصرف يسير.
® في "شجاعة العرب" طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ).

فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها[1].

- إذا كان بعض أهل النبي ﷺ لم يؤمنوا به، وماتوا على الكفر والشرك، فإننا نجد ذلك قد وقع مع بعض الرسل قبله؛ فهذا سيدنا إبراهيم يحاول أن يثني والده عن الشرك، ويدعوه للتوحيد وترك عبادة الأصنام، إلا أنه يأبى ذلك ويصرُّ على الكفر ويموت عليه، وهذا سيدنا نوح عليه السلام يرفض ابنه الانضمام إليه والإيمان برسالته فيغرق مع من غرق ويموت كافرًا.

- إن كفر بعض أهل النبي وعشيرته لا يطعن في عصمته ونبوّته؛ لأن ذلك ليس حجة عليه ـ ما دام قد دعاهم وألحَّ عليهم، وقدر الله لهم ألا يؤمنوا، تصديقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (القصص).

- إن ثبات النبي ﷺ على الحق قبل بعثته وبعدها ليدل على عصمته وأهليته ﷺ للنبوة؛ فقد كان قبل الرسالة أشد الناس نفورًا من الظلم وهضم حقوق الضعفاء، فما تحمس لعمل في الجاهلية تحمسه لحلف الفضول، وهو حلف لنصرة المظلوم، وأما بعد بعثته فهناك من المواقف التي تدل على ثباته على الحق ما لا يُحصَى رغم محاولات قومه الدءوبة لصده عن دعوته بشتى الوسائل سواء بالترغيب أو الترهيب.

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

- انماز العرب بصفات جليلة جعلت منهم حملة لواء الإسلام، ومن هذه الصفات: الشجاعة والشهامة والنخوة ونصرة المظلوم ورعاية حق الجار وإكرام الضيف، فضلًا عن جَلَدهم وقوتهم الراجعة إلى أثر البيئة فيهم... كل ذلك جعل منهم العنصر البشري الأمثل لحمل تبعات الدعوة وتبعات إبلاغها للناس كافة، وهذه الفضائل جميعها تنفي أن يكون العرب شرًّا محضًا، كما يزعم من أثار هذه الشبهة.

الشبهة السابعة

إنكار عصمة النبي ﷺ قبل البعثة(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغرضين عصمة النبي ﷺ قبل بعثته، مدَّعين أنه كان وثنيًّا على دين قومه قبل نزول الوحي عليه، ويستدلون على ذلك بأن الله تعالى وصفه بالضلال قبل بعثته في القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (الضحى)، وأثبت له الغفلة في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. فرسان الكتاب والسنة، د. يوسف القرضاوي، دار ابن لقمان، مصر. رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.

﴿الْغَافِلِينَ (٣)﴾ (يوسف). وهم بذلك يشككون في عصمة النبي ﷺ وأهليته للنبوة.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن المتأمل في حياة النبي ﷺ قبل بعثته يدرك - بما لا يدع مجالًا لشك شاكٍّ أو ادعاء مدَّعٍ - حقيقة عصمته ﷺ من جملة ما وقع فيه نظراؤه من العبث المباح وغير المباح، ومن جملة ما اقترفه قومه من عبادة الأوثان، فحفظ له بذلك قلبه من اللهو، وعقيدته من الشرك.

٢) ليس المراد من "الضلال" في الآية المستدل بها الضلال الذي هو بمعنى الكفر، وإلا ناقض القرآن نفسه، والله يقول: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ (النجم)، ثم إن للضلال معاني عدة؛ منها: النسيان، والغفلة والتحيُّر، وطلب الشيء، والمحبة وغيرها، كما أن "الغفلة" في الآية الثانية لا تقدح في عصمته ﷺ قبل البعثة، وإنما هي على سبيل الامتنان بتعريف غيب الماضي له ﷺ ولولا الوحي ما علمه!

التفصيل:

أولا. سيرة النبي ﷺ قبل بعثته شاهدة على عصمته:

من نافلة القول أن نشير إلى أن عصمة النبي ﷺ في عقيدتنا أصل من أصول الإيمان والإسلام، وهي عقيدة لا تنفكّ عن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والطعن في هذه العصمة طعن في تلك الشهادة، ولم لا وهي دليل المسلمين على حجية الوحي الإلهي (قرآنًا وسنة)، وهي دليلهم على الاقتداء الشامل برسول الله ﷺ.

ثم إن كمال العقل والعصمة من الكفر والشرك والشك، ومن تسلُّط الشيطان صفة أساسية في رسل الله ﷺ وشرط ضروري من شروط صحة رسالة جميع الرسل، وهي جزء من الكمال البشري، الذي كمَّلهم الله ﷻ به، وهو عامل مهم سواء أكان قبل بعثتهم أم بعدها، وسبب قوي من أسباب تبليغ رسالة ربهم إلى أقوامهم.

وإذا كان الكمال العقلي صفة أساسية في رسل الله، فمن باب أولى أن يكون محمد ﷺ أعقلهم وأذكاهم؛ لأنه إمامهم وخيرهم، ولِمَ لا وقد كانت نشأته ﷺ منذ مولده إلى أن بعثه الله ﷻ أكمل نشأة، إذ تولى تربيته وتعليمه ربُّه ﷻ فأدَّبه وربَّاه، فكَمَّله ورعاه، فحفظه مما كان يغمر حياة قومه من وثنية وعادات مُستَرْذَلة، حتى غدا أكمل إنسان في بشريته، لم يستطع أحد أن يريبه في حياته، أو يغمز شبابه بغميزة أو ريبة على كثرة الخصوم والأعداء المتربصين، فضلًا من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم.

وقد أجمعت الأمة على هذا الأدب الرباني، وأن حياة نبيها ﷺ قبل البعثة وبعدها أمثل حياة وأكرمها وأشرفها، فلم تُعرف له فيها هفوة، ولم تُحص عليه فيها زلة، بل إنه امتاز بسموّ الخُلُق، ورجاحة العقل، وعظمة النفس، وحسن الأحدوثة بين الناس، ثم نبَّأه الله وبعثه، فنمت فيه هذه الفضائل، وترعرعت حتى أضحت حياته فريدة في تاريخ هذه الحياة الدنيا.

فمن أين له هذا؟ وهو اليتيم الذي تعرَّض منذ طفولته لمحنة اليتم، والفقر! وهو الأمي الذي لم يجلس طيلةَ حياته إلى معلم يثقِّف عقله! وهو الذي نشأ في بيئة

سيطرت عليها الجاهلية، سيطرة كاملة في مجال العقيدة والفكر، وفي مجال الأخلاق والسلوك، وطبعت الناس بطابعها البغيض حتى لا تكاد تجد إنسانًا يسلم من وراثة البيئة، وعدوى التقاليد الجاهلية الموروثة عن الآباء والأجداد.

فكيف نجا رسول الله ﷺ من تلك المؤثِّرات القوية؟

إن الإنسان العادي قد يستطيع أن تعاف نفسه شيئًا يكرهه، ولا يستسيغه بحكم الفطرة السليمة، لكن من المحال عقلًا أن يعيش في عزلة روحية كاملة، وهجرة نفسية تامة لقومه، فيسلم له عقله من الخرافات، وتسلم روحه من الجهالات، ويسلم وجدانه من التلوُّن بشيء يغضب الله ﷻ.

نعم لقد كان في المجتمع العربي حنيفيّون وحّدوا الله ودعوا إلى توحيده، وكان هناك كرماء، وكان هناك أوفياء، وكان هناك أناس عُرفوا بالعفة والتنزُّه عن الفواحش، ولكن كان نادرًا جدًّا أن تجد في هذه البيئة إنسانًا جمع الله فيه كل هذه الصفات، وغيرها، مثل ما جمعها الله في النبي محمد ﷺ.

إننا لا نستطيع أن ندرك سرَّ كمال عقله وعقيدته وأخلاقه وبراءته من كل نقائص بيئته ومثالبها التي نشأ فيها إلا أن نقول: إنه الإعداد الإلهي للنبوة، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤). إنها العصمة الربانية! تلك التي حفظته ﷺ من بيئة الجاهلية أربعين عامًا، لم يصبه أي أذى من غبارها، فشبَّ أكمل الناس خُلُقًا وخَلقًا.

وعصمة النبي ﷺ وكذلك سائر الأنبياء مبنية على إرادة كونية، وهي اصطفاء الله ﷻ لهم، وعصمتهم من كل ما يُخِلُّ بهذا الاصطفاء، قبل نبوتهم وبعدها، حتى وهم في عالم الغيب، لم يُخلقوا بعد، وقد تجلَّت عصمة الله لهم ولمحمد ﷺ في قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧﴾ (الأحزاب).

ووجه استدلالنا بالآية أنه إذا عهد إلى الأنبياء جميعًا وهم في عالم الذرِّ بتبليغ دينه وتوحيده، دَلَّ ذلك على عصمتهم في عقولهم وعقيدتهم، فلا يصدر عنهم ما يخالف ذلك لا قبل النبوة ولا بعدها[1].

ونحن إذا تأمَّلنا سيرة النبي ﷺ قبل مبعثه طيلة أربعين عامًا؛ نجدها مثالًا واضحًا لعصمة الله تعالى وحفظه له من المعاصي، كبائرها وصغائرها، فما بالنا بالشرك، وعبادة الأوثان، وهي أكبر الكبائر التي لا يغفرها الله؟!

إن العقل والواقع يرفضان رفضًا تامًّا وقوع النبي ﷺ في عبادة الأوثان التي كان يعبدها قومه، وإنما يشهدان - بما لا يدع مجالًا للشك - بعصمته ﷺ من الشرك والضلال قبل بعثته؛ فلم يكن للشيطان عليه من سبيل؛ ودليلُ ذلك أن مكة كانت - حينما كان رسول الله ﷺ شابًّا فتيًّا - تعجُّ بمختلف الملاذّ الشهوانية الدنسة لم يُؤْثَر عنه أنه دنَّس نفسه بأي من تلك الشهوات.

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها، وكذلك البيوت المريبة ذوات الرايات الحمراء، وفي هذه وتلك المغنيات والراقصات والماجنات، وكان الشباب يتهالك

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٦٥: ٦٨ بتصرف.

على كل ذلك ويتهافت عليه، وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك.

وها هو علي رضي الله عنه على ما يروي ابن كثير يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما هَمَمتُ بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله ﷻ فيهما؛ قلتُ ليلة لبعض فتيان مكة ـ ونحن في رعاء غنم أهلها ـ: ألا تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر[1] فيه كما يسمر الفتيان؟ فقال: بلى.

قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعت عزفًا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ماذا فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر، ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعته تلك الليلة فسألت فقيل: نكح فلان فلانة، فجلست أنظر، فضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هَمَمْتُ ولا عدتُ بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمني الله ﷻ بنبوته"[2][3].

هذا على الرغم من أن حضور حفلات الزفاف لم يكن معيبًا، ولا شائنًا في كل المجتمعات، إلا أن محمدًا ﷺ ليس كأي شخص؛ لذا منعه الله من الحضور والمشاهدة مرتين[4]؛ بموجب عصمته ﷺ من أداء أفعال لا تليق بنبوة ستُمنح له فيما بعد.

وإلى جانب عصمته ﷺ من عبث الفتيان المباح فقد عُصم في عقيدته ﷺ، فعلى الرغم من أن النبي ﷺ لم يكن يأتيه الوحي قبل نبوته، إلا أنه لم يعرف عنه أنه عبد أحدًا غير الله، ولا سجد لأحد غير الله، ولا أُعجب قط بصنم أو وثن.

كذلك لم يُعْرَف عن النبي ﷺ أنه صادق ساحرًا، أو كاهنًا، أو عرَّافًا، أو دجَّالًا، بل عُرِف عنه ابتعاده عن جميع ممارسات قومه الوثنية: من سجود، وذبائح، وتطيُّر، وكهانة، وعرافة، فقد ترك ﷺ جميع ممارسات عشيرته الوثنية، ومال إلى الانعزال، والتأمل وعبادة الله تعالى.

فقبل نبوته وجد نفسه ميَّالًا إلى العُزْلة؛ فكان يذهب إلى كهف من كهوف الجبال المحيطة بمكة، وكان ذلك في غار حِراء فيتعبَّد فيه تأملًا للكون، ودعاءً لله الواحد، وسجودًا له، وكان يفعل ذلك أيامًا محددة من الشهر، ثم يعود إلى أهله، ليتزوّد بالطعام والشراب الكافي لمدة تعبُّده القادمة[5].

فلم يُعرف عن محمد ﷺ أنه سجد لصنم من أصنام مكة التي زادت على الثلاثمائة، كما لم يذبح لها، وكان يبتعد عن الكهان والعرافين، ولم يرد في سيرته ﷺ أنه استمع لأحد منهم.

١. السَّمَر: الحديث بالليل، والمقصود به هنا: اللهو بالليل.

٢. إسناده حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق (٦٢٧٢)، وحسَّن إسناده الأرنؤوط في تعليقاته على صحيح ابن حبان.

٣. دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٧٦، ٧٧.

٤. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٧٩.

٥. المرجع السابق، ص٤٩ بتصرف.

وهكذا مضت مرحلة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكي، طاهر من الآثام التي تدنس الشباب في مجتمعاتهم؛ لأنه بعيد عن الشرك، لم يسجد لصنم قط، صلوات الله وسلامه عليه[1].

ولعل من أكبر الدلائل على هذا ما حدث لرسول الله ﷺ وهو طفل صغير في رحلته مع قريش إلى الشام، حينما قام إليه بحيرا الراهب، فقال له: "يا غلام، أسألك بحق اللّات والعُزّى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه"، وإنما قال له بحيرا ذلك؛ لأنه سمع قومه يحلفون بهما.

فقال له ﷺ: "لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما"، فقال له بحيرا: "فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك" فقال: "سلني عمّا بدا لك"[2][3].

وعلى هذا النحو نستطيع أن نتصور بغض النبي ﷺ الأوثان، وحري برجل هذا شأنه ألا يتقرب إليها أو يذبح لها، كما كان يفعل قومه، بل كان ينهى عن ذلك.

وهكذا شَبَّ النبي ﷺ "يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أمور الجاهلية، ومعايبها، لما يريد به من كرامته حتى صار أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا وأمانة، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم من الفحش والأذى، وما رُئي مُلاحيًا[4]، ولا مُماريًا[5] أحدًا، حتى سمّاه قومهُ: الصادق الأمين"[6].

وكل هذا دليل على العناية الربانية به، وعصمته ﷺ من الذنوب: صغائرها وكبائرها، قبل بعثته، وقبل نزول الوحي عليه، تمهيدًا لهذه المهمة العظيمة التي سيقوم بها ﷺ، وهي حمل رسالة الله إلى الناس كافة.

ثانيًا. المقصود بوصف النبي ﷺ بالضلال والغفلة في القرآن الكريم:

إن الذي يتتبع القرآن الكريم، ويتقصّى آياته، ويمعن النظر فيه، ينتهي منه إلى رصيد ضخم، وثروة لا حدود لها، من الثناء الحلو، والمديح الطيب، والتنويه الذي ليس قبله ولا بعده، برسول هذه الإنسانية، حتى لكأنه بلغ قمة الثناء، وغاية المديح، فكل ذلك تجده حتى في الآيات التي يستدل بها خصوم النبي ﷺ محاولين نفي العصمة عنه ﷺ قبل بعثته، فإن هذه الآيات قد وردت في مقام المِنّة عليه ﷺ.

ومن يتأمل ما استدل به هؤلاء من آيات قرآنية يعلم أنهم فهموا معناها على غير وجهها الحقيقي، ولا يستطيع إلا أن يقرّ بأنها افتراءات أطلقوا عليها اسم براهين، ولا يصل المتأمل إلى هذا الحكم إلا بعد إمعان النظر، والرجوع إلى النصوص وتمحيصها بدقة، فيخرج بنتيجة حاسمة، وهي أن ما زعموه حججًا قرآنية ما هو

---

١. دلائل النبوة ومعجزات الرسول، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٧٨، ٧٩ بتصرف.

٢. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ما جاء في خروج النبي ﷺ، لا تسألني بالات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت بغضهما شيئًا (٣٦٢).

٣. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٦٨.

٤. المُلاحاة: التنازع والتخاصم.

٥. المُماراة: الجدال.

٦. دلائل النبوة ومعجزات الرسول، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٧٩.

إلا حجج شيطانية[1]، لا تقوم على أي أساس من الحقيقة.

إننا نقول ذلك لأن شواهد التاريخ، والنقل الثابت من الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، تقرُّ بعصمته ﷺ من الكبائر والصغائر قبل النبوة وبعدها، وكذا من كل ما يمس قلبه، وعقيدته، وخلقه، وعقله بسوء، سواء صغر أم عظم، فما بالنا بالشرك؟! ولعل هذا هو الدافع لعرض الفهم الصحيح لتلك الآيات مناط الاستدلال، لنوضح ما وقع فيه هؤلاء من لبس أو تلبيس حول عصمة النبي ﷺ قبل بعثته، ولقد احتج الذاهبون إلى نفي العصمة عن رسول الله ﷺ في قلبه وعقيدته قبل البعثة وبعدها، بما ورد من آيات أُسند فيها "الضلال" و "الغفلة" إلى ضمير خطابه ﷺ وحملوها على الكفر في حقه ﷺ، كقوله ﷻ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ (الضحى)، وقوله ﷻ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ (يوسف).

وعن هذا يجيب د. عماد السيد الشربيني قائلًا: حَمَل أعداء الإسلام، وأعداء السنة المطهرة، والسيرة العطرة كلمتي "الضلال" و "الغفلة" في الآيات على الكفر والغي والفساد، وهذا تعسّفٌ باطلٌ في تأويل الآيات، ومرفوضٌ من وجوه منها:

- أنه قبل النبوة لم يكن هناك شرع قائم حتى يوصَف المنحرف عنه بالضلال.
- ما ثبت بإجماع الأمة قاطبة من عصمة الأنبياء قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر.
- ما ثبت بالتواتر عن حال النبي ﷺ في نشأته قبل النبوة من عصمة ربه ﷻ له من كل ما يمس عقيدته وخلقه بسوء، وقد سبق الحديث عن ذلك.

ومما يرفض تأويلهم لآيات القرآن، ما ورد في تفسير معنى كلمة "الضلال"؛ إذ جاءت في القرآن بالمعاني الآتية:

- الضلال بمعنى: الكفر، في نحو قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢﴾ (يس).
- الضلال بمعنى: النسيان، نحو قوله ﷻ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، أي: تنسى إحدى المرأتين، فتذكِّر إحداهما الأخرى.
- الضلال بمعنى: الغفلة، في نحو قوله تبارك وتعالى على لسان موسى لفرعون قال: ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾ (الشعراء).

الضلال بمعنى: المحبة، في نحو قوله ﷻ على لسان أولاد سيدنا يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ (يوسف)، أي: في حب مبين ليوسف، وهو المشار إليه في قوله تعالى على لسانهم أيضًا: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾ (يوسف)، وكذلك قوله ﷻ على لسان نسوة المدينة: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٣٠﴾ (يوسف)، أي: حب مبين ليوسف الصدِّيق عليه السلام.

ولما كان الضلال في لسان أهل اللغة: العدول عن

---

[1]. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص١٣٢.

الطريق المستقيم، وضده الهداية، كان كل عدول ضلالًا، سواء كان عمدًا أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، ومن هنا صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء، وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بون بعيد[1].

ومن ثم فإن "معنى الضلال في قوله ﷻ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (الضحى): الغفلة؛ أي: غافلًا عما تعلمه الآن من الشرائع، وأسرار علوم الدين التي لا تُعْلَم بالفطرة ولا بالعقل، وإنما تُعْلَم بالوحي، فهداك إلى ذلك بما أُوحي إليك"[2]، فمعنى الضلال هنا عدم العلم، وليس في ذلك تعارض مع عصمته ﷺ قبل النبوة، بل العلم بذلك فضل من الله تعالى، ومِنَّة على رسوله ﷺ.

وقد تكون كذلك بمعنى: المحبة ـ كما ذكرنا ـ أي: ووجدك محبًّا للهداية، فهداك إليها، وقد استعمل العرب لفظ الضلال بمعنى المحبة، ومن ذلك قول الشاعر:

هذا الضَّلالُ أَشَابَ مِنِّي المفرِقَا[3]
والعارضَيْنِ[4] ولَمَ أَكُنْ مُتَحقِّقَا
عَجَبًا لعَزَّةَ في اختيارِ قَطِيعَتِي
بَعْدَ الضَّلالِ فَحَبْلُها قَدْ أَخْلَقَا[5]

وقد يكون معناها الطالب، أي: طالب الهدى، فهداك له، ودليل ذلك ما صح من سيرة رسول الله ﷺ قبل النبوة، وَتَحَنُّثه في غار حراء طلبًا للهداية، حتى نزل عليه جبريل ؑ بالوحي.

وقيل: إن المقصود بالضلال أي: مضلول عنك، والمعنى: كان قومك لا يهتدون إليك، ولا يعرفون قدرك، فهدى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك، وكان العرب يطلقون على الشجرة المنفردة في الصحراء التي يُهتدى بها ضالة[6]؛ ومن ثَمَّ فليس المقصود بالضلال أنه كان وثنيًّا قبل بعثته، كما يزعم الزاعمون.

هذا بالنسبة لوصف النبي ﷺ بالضلال، أمّا بالنسبة لوصفه ﷺ بالغفلة في قوله تبارك وتعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (يوسف)، فليس فيها كذلك ما ينال من عصمة النبي ﷺ قبل البعثة، فليس في هذه الآية أي اتهام للنبي ﷺ بعبادة الأصنام قبل بعثته، فهذا لم يقل به أحد، كما أن لغة العرب لا تقره؛ لأن الغافل: هو الذي لا يعلم، لا عن جهل أو قصور عقل، ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله، أو أن يكون المقصود بقوله تبارك وتعالى: ﴿ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾، أي: إنك يا محمد لم تكن ممن يعرفون قصة يوسف؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب، ولم تجلس إلى معلم يروي لك تلك القصة، ولم تجمع بعضًا من أطراف القصة من هنا أو هناك، بل أنت لم تتلقَّ الوحي بهذه القصة إلا بعد أن

---

1. المرجع السابق، ص١٣٤، ١٣٥ بتصرف يسير.
2. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٧٩.
3. المِفْرق من الرأس: حيث يُفرَق الشعر.
4. العارضَان: جانبا الوجه.
5. أَخلَق: بَلِي.
6. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٢٠، ص٩٧: ٩٩ بتصرف.

قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة: اسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف؛ لماذا انتقلوا من الشام إلى مصر؟

وقد كان ضربًا من الإعجاز أن ينزل إلى رسول الله ﷺ هذا البيان العالي بكل تفاصيل القصة، فهذا دليل عملي علي أن معلم محمد ﷺ هو الله ﷻ، وأنه سبحانه هو من أوحَى بها إليه[1].

فهذا إذن من باب الامتنان على النبي ﷺ بالوحي، فلا يجوز عليه غفلة الجهل لا قبل النبوة ولا بعدها، والسر من جعله من الغافلين دون أن يوصف بها وحده، للإشارة إلى تفضيله ﷺ بالقرآن، على كل من لم ينتفع بالقرآن، وهو تعريض بالمشركين المعرضين عن هدي القرآن الكريم[2].

ومن ثم فلا يعقل أن يكون المقصود بالغفلة في الآية الكريمة الكفر والفساد؛ لأنها في معرض مدح النبي ﷺ والثناء عليه، وقد عصمه الله من هذا الكفر قبل نبوته، وهو ما تشهد به سيرته العطرة، كما شهد له ربه بذلك في قوله ﷻ: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (النجم)، ولنتأمل دلالة كلمة "صاحبكم" في الآية الكريمة، فلم يقل محمد، أو رسول الله، أو نحو ذلك؛ تأكيدًا لإقامة الحجة على المشركين بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به، وبحاله، وأقواله، وأعماله، فقد عُرف منذ نشأته بينهم بالأمانة والصدق، ورجاحة العقل، والخلق القويم، وأنهم لا يعرفون عليه كذبًا ولا غيًّا، ولا ضلالًا في العقيدة والأخلاق، ولو أنهم عرفوا عنه أي انحراف في العقيدة؛ لأخذوا ذلك عليه، ولقالوا له: كيف تنهانا عن الأصنام وقد كنت مثلنا بالأمس تعبدها؟! وهذا ما لم يحدث قط، ناهيك عن شهادة القرآن، وشهادة السيرة بعصمته ﷺ في خُلُقه وعقيدته، قبل بعثته ﷺ وبعدها.

وبمجموع ما قررناه آنفًا: يثبت أنه لا مجال لإنكار عصمته ﷺ واتهامه بالوثنية قبل بعثته.

الخلاصة:

- هناك إجماع من أهل السِّيَرِ والتاريخ على أن حياة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها أمثل حياة وأكرمها وأشرفها، فلم تُعرف له فيها هفوة، ولم تُحص عليه زلة، بل امتاز بسمو الخلق وسلامة العقيدة، حتى بعثه الله تعالى، وما تمَّ له ذلك إلا بعصمة الله تعالى له من أقذار الجاهلية، وسيرته العطرة تشهد لهذه العصمة؛ فلم يُعرف عنه أنه سجد لصنم أو تقرَّب إلى وثن أو استمع إلى كاهن، أو أُعجب بساحر قبل بعثته، بل عُرف عنه الميل إلى العزلة، وكراهيته للأوثان، وتأمله للكون، وعبادة الله على ما تبقَّى من دين إبراهيم الحنيف، تمهيدًا لما أعدَّه الله له من كرامة النبوة.

- إن ما يزعمه بعضهم حججًا قرآنية على إثبات وثنية النبي ﷺ قبل بعثته، وذريعة لنفي عصمته، ما هي إلا أوهامٌ ناتجة عن سوء فهم لمعاني القرآن وجهل بسيرته ﷺ، فليس المقصود من وصفه بالضلال: الكفر والفساد كما توهموا؛ بل المعنى يحتمل دلالات أوسع، لا سيما في هذا السياق ومعلوم أن من معاني الضلال: النسيان، والغفلة والتحيّر، وطلب الشيء، والمحبة، أو كونه ﷺ مضلولًا عنه من قومه، فهدى الله قومه إليه

---

1. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١١، ص٦٨٤٠ بتصرف يسير.
2. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٢٠٤ بتصرف

بالوحي، ومن ثم فليس كل ضلال كفرًا.

- إن وصف النبي ﷺ في آية سورة يوسف بالغفلة لا يعدُّ اتهامًا له ﷺ إذا نحن وقفنا على دلالاتها؛ ذاك أن الغافل هو الذي لا يعلم، بسبب عدم اشتغال باله بالأمر، وقد كان النبي ﷺ أميًّا، فلم يكن ممن يعرفون قصة يوسف عليه السلام، حتى أعلمه الله بها، ومن ثم فَعِصْمة النبي ﷺ في عقله وقلبه ثابتة له ﷺ قبل بعثته وبعدها، ولا يستطيع أحد أن يشكك فيها.

الشبهة الثامنة

الزعم أن النبي ﷺ قد أصابته الحيرة بشأن نبوته في أول عهده بها (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الطاعنين أنه ﷺ كان يشكُّ في كونه نبيًّا بعد نزول الوحي عليه؛ مستشهدين على ذلك بشكواه لخديجة، ورجوعه إلى ورقة بن نوفل عند نزول الوحي عليه أول مرة، وبتأخره في تبليغ الوحي حيرة منه ﷺ في أمر نبوته. هادفين من وراء ذلك إلى إثبات أن شكّه وحيرته يتنافيان مع عصمته.

وجها إبطال الشبهة:

١) لجوء النبي ﷺ لخديجة بعد نزول الوحي عليه أول مرة، إنما هو لجوء للتخفيف ممَّا أصابه من فزع وكرب، نتيجة هذا اللقاء الرهيب مع جبريل عليه السلام، ورجوعه ﷺ إلى ورقة بن نوفل إنما هو لطلب الطمأنينة.

٢) ما كان للنبي ﷺ أن يتأخر في تبليغ دعوته، وهو الذي بلَّغ ما أمره به ربه منذ أُمر بذلك، وصبر على دعوته - على الرغم ممّا تعرض له ﷺ من أذى قومه - مطمئنًّا متيقنًا من أمره.

التفصيل:

أولا. حقيقة شكوى رسول الله ﷺ لخديجة ورجوعه لورقة بن نوفل:

إن جاز لنا تجاوزًا - أن نحمل ما كان منه ﷺ مع زوجته السيدة خديجة عقب نزول الوحي عليه - إن جاز لنا أن نحمل هذا الموقف على سبيل الشكوى، فإنها شكوى التعبير عن أمر جليل وقع؛ عساها أن تخفف عنه ما أصابه من كرب، وما أحاط بفؤاده ﷺ من فزع، فهي شكوى زوج لزوجته، يريد أن تخفف عنه ما لاقاه من رعب وفزع، وشدة في هذا اللقاء الذي عاد منه إلى بيته، ولا تزال آثاره على سائر جسده الذي يرجف، مما جعله يقول: "زمِّلوني، زمِّلوني" أو "دثِّروني، دثِّروني" والمعنى واحد تقريبًا، وكأنه ﷺ يقول: غَطّوني بما أدفأُ به حتى يذهب أثر الرُّعب والرَّجفة عن سائر جسدي. تقول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -: "فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع"، وهو بفتح الراء أي: الفزع.

ويؤكد ذلك قول النبي ﷺ للسيدة خديجة: "يا خديجة ما لي، بل للذي أرسلني"؟! وهو استفهام تعجبي، أي: أي شيء ثبت لي حتى حصل ما حصل؟وأخبرها الخبر، وما عانى فيه حتى ظنّ أن نفسه

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: سمير عبد العزيز إبراهيم، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق.

تُقبض من شدة الفزع والرعب، ومن هول المفاجأة، ومن معاناة نزول الوحي عليه، وهو ما عبَّر عنه ﷺ بقوله: "لقد خشيتُ على نفسي"[1].

فأين الشكوى التي يزعمها هؤلاء الطاعنون؟ وإذا كانت شكوى فأين ما يفيد في زعمهم أنه شَكَّ وارتابَ في نُبُوَّتِهِ؟! إنه مجرد إخبار من زوج لزوجته، عن موقف شديد حدث له، يريد أن تخفف عنه آثاره، فأي استنكار في ذلك؟!

وأرادت خديجة أن تزداد يقينًا، فانطلقت به إلى ورقة بن نوفل، ابن عمِّها، وكان امرأً قد تنصَّر في الجاهلية، وذاع عنه في مكة العلم بما في التوراة والإنجيل، وتباشير الأحبار والرهبان بما جاء في الكتابين من أوصاف نبي آخر الزمان، وأن وقته قد أظلَّ، فلما أخبره ﷺ بما رأى قال ورقة: "هذا الناموس الذي أُنزل على موسى"[2]. وتمنَّى ورقة أن يعيش حتى يدرك انتشار الإسلام؛ ليكون جنديًّا من جنود الله، يجاهد في ظل لواء النبي ﷺ في سبيل إعلاء كلمة الله، ولكنه أدركته منيته، فلم يلبث بعد مبعث النبي ﷺ إلا قليلًا، ثم توفي.

وأنَّى لهم بهذا الزعم، وقد سأل ورقة رسول الله ﷺ عما رأى قائلًا: "يا ابن أخي، ماذا ترى"؟ فأخبره ﷺ خبر ما رأى، إذن لم يسأله ورقة عما يشك فيه، ولم يقل له رسول الله ﷺ إني أشك في كذا، وإنما كل ما في الأمر سؤال عما حدث له، وإخبار منه ﷺ بهذا الحدث.

وما كان جواب ورقة لرسول الله ﷺ إلا بيانًا بأن من رآه هو أمين وحي الله تعالى الذي أُنزل على موسى عليه السلام، وهنا ازداد رسول الله ﷺ نورًا إلى نور يقينه؛ لما يعلمه من مكانة ورقة في العلم والمعرفة بما في التوراة والإنجيل من المبشرات ببعث رسول قد أظلّ مبعثه.

فهل في طلب عين اليقين استنكار؟! لا سيما وأن النبوة من المغيبات، تبقى فيها أمور تتردد النفس في تفاصيلها، ولا يكون هذا التردد في المتعلقات التي لا تدخل في الإيمان، ألا ترى إلى قوله تعالى في سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحيائه عز وجل للموتى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، أي الإيمان حاصل بالفعل، ولكنَّ إحياءك غيب، فأريد أن أرى الغائب شاهدًا، لأزيل به ما يبقى في الغيب، وسمّاه طمأنينة، وعليه فإن سؤاله عليه السلام لم يخالف إيمانه، بل أكّده.

وكذلك الحال في ذهاب رسول الله ﷺ إلى ورقة، فكل ما فيه طلب عين اليقين، ولا يعني ذهابه أنه شكّ في نبوته - كما يزعم الطاعنون - بدليل أن رسول الله ﷺ لم يعقب على كلام ورقة إلا بقوله: "أَوَمُخرِجيَّ هم"؟ ولم يُعقِّب ﷺ على قوله: "هذا الناموس الذي أُنزل على موسى"؛ لأنه ﷺ كان على يقين بأنه ملك من عند ربه عز وجل نزل عليه بوحي من الله تعالى، فلم يزده ﷺ هذا الجواب إلا يقينًا على يقينه، وإلا - لو كان في شك - لجاء ما يشير إلى ذلك تعقيبًا واستفسارًا منه ﷺ لورقة، وإنما

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤٢٢).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة العلق (٤٦٧٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى الرسول ﷺ (٤٢٢).

جاء التعقيب والاستفسار على قول ورقة: "ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومُك".

ففي هذا الكلام شيء جديد على رسول الله ﷺ، فاستفسر بقوله: "أوَمخرجي هم؟"، وكأنه ﷺ يقول: كيف يُخرجوني، وأنا الذي جئت لإخراجهم من الظلمات إلى النور؟! وكيف يُخرجوني من حرم الله تبارك وتعالى، وجوار بيته، وبلدة آبائي من عهد إسماعيل عليه السلام؟!

فيأتي الجواب من ورقة: "نعم - أي هم مخرجوك - لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، وإن يُدركني يومُك أنصرك نصرًا مؤزرًا" [1].

ولعل حكمة المولى ﷻ اقتضت أن يكون ما أخذ رسول الله ﷺ من المخافة، وما غشيه من الخشية والرهبة أمورًا أُلقيت عليه تكوينًا؛ ليرجع إلى من جعلها الله ﷻ سكنًا، وترجع به إلى ورقة، فيشيع خبر نُبُوَّتِه من قِبَلها، ويصير بهذا الطريق دليلًا محكمًا على أن محمدًا ﷺ نبيٌّ صادق، حتى شهد به شاهد من أهله "خديجة"، وشهد به ورقة الذي كان يعرف حال الأنبياء، ليكون حجة على أهل الكتاب، وعلى المشركين الذين يقدِّرون مكانة ورقة وعلمه بالكتب السابقة.

وهكذا يُقَدِّرُ المولى ﷻ لأنبيائه ورسله أمورًا، ويلقيها عليهم تكوينًا لمصالح لا يعلمها إلا هو [2]، وهكذا كان لقاء ورقة بالنبي ﷺ، لقاء تبشير وتثبيت لما وجده النبي ﷺ من الخوف والرعب في أول لقاء له ﷺ مع جبريل عليه السلام.

ثانيًا. صبر النبي ﷺ وعزيمته في تبليغ ما أُمر بتبليغه عن ربه ﷻ:

من البدهي أن يتجرد النبي ﷺ من كافة العلائق، ويقف لتبليغ الدعوة التي اصطفاه الله لتبليغها على قدم وساق، لكن الموقف الذي لا يفوتنا في هذا الصدد هو صبره وتحمله ﷺ في سبيل تلك الدعوة المشاق والصعاب، وصبره هذا وحده دليل على ثقته ﷺ بما هو عليه، وتيقنه من نبوته ورسالته؛ إذ ليس من المعقول أن يتحمل هذا الإيذاء ويصبر عليه وهو شاكٌّ في النبوة؟!

ولمزيد من الإيضاح، نظن أننا بحاجة للوقوف على طبيعة الدعوة الإسلامية وما صاحبها من عنت المشركين وأذاهم للنبي ﷺ، فلقد مرت الدعوة الإسلامية منذ بعث النبي ﷺ بمرحلتين عظيمتين:

١. **الدعوة السِّرِّية:**

لما جاء الأمر الرباني بتبليغ الرسالة عرف النبي ﷺ معرفة اليقين أنه أصبح نبيًّا لله الرحيم الكريم، وجاء جبريل عليه السلام للمرة الثانية، وأنزل الله على نبيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)﴾ (المدثر).

كانت هذه الآيات المتتابعة إيذانًا للرسول ﷺ بأن الماضي قد انتهى براحته وهدوئه، وأن أمامه عملًا عظيمًا يستدعي اليقظة والتشمير، والإنذار، والإعذار، فليحمل الرسالة، وليوجِّه الناس، وليأنس بالوحي، وليقوَ على عنائه فإنه مصدرُ رسالته وَمددُ دعوته.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة العلق (٤٦٧٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى الرسول ﷺ (٤٢٢).

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٣٦: ٢٣٨ بتصرف.

وتُعدُّ هذه الآيات أول أمر بتبليغ الدعوة، والقيام بالتَّبِعَة، وبعد نزول آيات سورة "المدثر" قام الرسول ﷺ يدعو إلى الله تبارك وتعالى وإلى الإسلام سرًّا، وكان طبيعيًّا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه[1].

هذا، وقد استمرت تلك المرحلة ثلاث سنوات، فكيف يدَّعي هؤلاء أنه تأخر في تبليغ دعوته رغم أنه استجاب لأمر ربه فور بعثته؟!

٢. الجهر بالدعوة:

ومعلوم أنه ﷺ لما أُمر بالجهر بالدعوة، صعد على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي". قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾[2][3].

وكانت الدعوة الجهرية بعد نزول قوله ﷻ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الحجر)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ (الشعراء).

ومما سبق يتبين أن الأمر ببدء الدعوة، وترتيب مراحلها كان من الله تبارك وتعالى، وبذلك يتضح أن النبي ﷺ لم يتأخر في أداء مهمته في التبليغ. ثم إن صبر الرسول ﷺ على إيذاء المشركين كان صبر المتيقِّن من نبوته الثابت على ما يدعو إليه، المدعوم بعصمة من الله.

ودليل ذلك أن المشركين لم يفتُروا عن أذى رسول الله ﷺ، منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله تبارك وتعالى عليهم، ويدل على مبلغ هذا الأذى تلك الآيات الكثيرة التي كانت تتنزَّل عليه في هذه الفترة تأمره بالصبر، وتدله على وسائله، وتنهاه عن الحزن، وتضرب له أمثلة من واقع إخوانه المرسلين، مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ (المزمل). وقوله ﷻ: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الإنسان). وقوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (النمل). وقوله ﷻ: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ (فصلت).

ويحسن بنا أن نطالع بعض الأمثلة الدالة على بعض ما تعرَّض له ﷺ من الإيذاء والتعذيب، ومنها - حسبما ذكر د. الصلابي:

- **قال أبو جهل:** هل يُعفِّر محمدٌ وجهه بين

---

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص١١٠، ١١١ بتصرف يسير.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء، قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٤٤٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٥٢٩).

٣. الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م، ص٧٩، ٨٠ بتصرف.

أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته أو لأعفرنَّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو يَنكُص[1] على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: "لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا"[2].

وفي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أَنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزَبَره[3]، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثرُ مني، فأنزل الله ﷻ: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ (العلق)، قال ابن عباس: "فوالله، لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله"[4].

- **عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:** بينما رسول الله ﷺ قائم يُصلِّي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جَزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسَلاها، فيجيء به ثم يُمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وَضَعَه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضُهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطَلِقٌ إلى فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وهي جويرية ـ فأقبلت تَسْعى، وثبت النبي ﷺ حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبّهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: "اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش"، ثم سمّى: "اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعُتبة بن ربيعة، وشَيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأُميَّة بن خلف، وعُقبة بن أبي مُعَيط، وعمارة بن الوليد"، قال ابن مسعود: فوالله، لقد رأيتهم صَرعَى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القَليب، ثم قال رسول الله ﷺ: "وأُتْبع أصحاب القليب لعنة"[5].

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى أن الذي رمى الفرث هو عُقبة بن أبي مُعيط، وأن الذي حرَّضه أبو جهل، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول ﷺ، وشقَّ عليهم الأمر؛ لأنهم يرون أن دعوة محمد ﷺ مستجابة.

هذا بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من أذى المشركين، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية.

ومع ما له ﷺ من عظيم القَدْر ومنتهى الشرف، إلا أنه قد حَظِي من البلاء بالحِمْل الثقيل، والعناء الطويل، منذ أول يوم صدع[6] فيه بالدعوة، ولقد لقي النبي ﷺ

---

1. يَنكُص: يرجع.
2. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ (العلق) (٧٢٤٣).
3. زَبَرَ: نَهَرَ.
4. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس رضي الله عنهما (٢٣٢١)، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة اقرأ (٣٣٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٥).
5. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب سترة المصلي، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئًا من الأذى (٤٩٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين (٤٧٥٠).
6. صَدَع بالأمر: جَهَر به.

من سفهاء قريش أذى كثيرًا، فكان إذا مر على مجالسهم بمكة استهزءوا به، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة[1] يُكَلَّم من السماء، وكان أحدهم يمر على الرسول ﷺ فيقول له ساخرًا: أما كُلِّمْت اليوم من السماء؟

وهكذا لم يقتصر الأمر على مجرد السخرية والاستهزاء والإيذاء النفسي، بل تعداه إلى الإيذاء البدني، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدو الله أمية بن خلف في وجه النبي ﷺ، هذا ولم تتوقف حِدَّة الابتلاء والأذى بعد هجرته ﷺ إلى المدينة، بل أخذت خطًّا جديدًا بظهور أعداء جدد، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكة، صار له ﷺ أعداء من المنافقين واليهود وغيرهم[2].

وبهذا يتبين مدى التعذيب والإيلام والإيذاء الذي تعرض له النبي ﷺ عندما صدع بالدعوة، أفيصبر النبي ﷺ على أمر يشك في حقيقته؟! والمنطق والعقل يقتضيان أنه ﷺ لو كان شاكًّا في أمر نبوته لما صبر على كل هذا الإيذاء، ولما قال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: ما أنا بأقدر أن أدع لكم ذلك على أن تستشعلوا لي منها شعلة[3].

نخلص من جملة ما سبق إلى أن النبي ﷺ كان على يقين من نبوته وصبر على تبليغ مقتضاها، ولِمَ لا وهو الذي سبق أن مهَّد الله تبارك وتعالى له ببعض الإرهاصات، التي تدل على أنه سيكون له شأنٌ عظيم فيما بعد، وبعد ذلك مرت عليه مراحل تدريجية تُمهد بما سيحدث له بدءًا بالرُّؤَى الصادقة في المنام، ثم نزول جبريل ﷺ في الغار ليتمَّ ما بدأه، ويُعدّه لتبليغ الرسالة إلى الناس، وقد تحمل النبي ﷺ في سبيل ذلك من العناء والتعب والأذى الكثير، غير شاكٍّ في أمر نبوته ولا مرتاب؛ فبلغ الرسالة على أكمل وجه كما أمره ربه، وأشهد في نهاية حياته أصحابه على ذلك، فقال في حجة الوداع: "هل بلغت؟ فقالوا: نعم، فقال: اللهم اشهد"[4]®.

الخلاصة:

- لجوء النبي ﷺ لخديجة واستشارته ورقة بن نوفل، كان طلبًا للطمأنينة ولزيادة اليقين، وذلك لما عرف من علم ورقة ببشارات الكتب السابقة بالنبي المنتظر، ولهذا قصد إلى زوجته وابن عمها للتخفيف عما أصابه من فزع وكرب نتيجة لقائه بجبريل ﷺ، ولم

---

١. أبو كَبْشَة: هو زوج حليمة السعدية مُرضِعة النبي ﷺ، وهو أبو النبي ﷺ من الرضاع، وكان كفار قريش يُكنون النبي بأبي كبشة استهزاءً منه.

٢. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٢: ٢٥٥ بتصرف يسير.

٣. حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٢/ ١٧٦)، برقم (٦٨٠٤)، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم بعضًا" (٦٦٦٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (٤٤٧٧).

® في **"ثبات النبي ﷺ على الحق وعدم تأثره بضلال قومه"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السادسة، من هذا الجزء. وفي **"تسامح النبي ﷺ أمام إيذاء قومه له"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). وفي **"إيمان النبي ﷺ بدعوته"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). وفي **"إخلاص النبي ﷺ لدعوته وحماسته في نشرها"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

يكن ذلك شكًّا منه ﷺ ولا ارتيابًا في نبوته أو حقيقة اصطفائه.

- لقد أطاع النبي ﷺ أوامر ربه تبارك وتعالى في تبليغه الوحي؛ فبعد نزول آيات المدثر قام رسول الله ﷺ يدعو إلى الله تبارك وتعالى وإلى الإسلام سرًّا، ولما أُمر بالجهر بالدعوة في قول الله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الحجر)، لم يتأخر عن دعوة الناس إلى الإسلام، على الرغم مما لقيه من الأذى والعذاب والصَّد؛ إيمانًا منه بنُبُوّته، وثقة في نصر الله تبارك وتعالى.
- لو كان النبي ﷺ شاكًّا أو حائرًا في أمر نبوته لما استطاع تغيير العقائد والأفكار والتصورات، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه، تحت ضغط الأذى والصدِّ من قِبَل مشركي قريش.

الشبهة التاسعة

ادِّعاء محاولة النبي ﷺ الانتحار(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشكِّكين أنَّ النبي ﷺ حاول الانتحار أكثر من مرة، ويستدلون على ذلك بأنه لما تأخَّر الوحي عليه فترة تتراوح ما بين سنتين ونصف إلى ثلاث سنوات، حاول الانتحار بإلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال، وقد آنسهُ القرآن في قوله ﷻ: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ (الضحى). وأنه أُصيب باليأس والإحباط لعدم إيمان الناس بدعوته، فحاول قتل نفسه بدليل قوله ﷻ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (الكهف)، ويرمون من وراء ذلك إلى اتِّهامه ﷺ بما يتنافى مع عصمته ﷺ؛ مُحاولةً منهم لنفيها عنه ﷺ تدريجيًّا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) كان النبي ﷺ في فترة انقطاع الوحي يرتاد الأماكن التي كان جبريل ؑ يظهر له فيها؛ اشتياقًا إليه وليس عزمًا على الانتحار الذي يتعارض مع مبادئ دعوته ﷺ، ثم إن سبب نزول سورة الضحى لا علاقة له على الإطلاق بمحاولة الانتحار المزعومة.

٢) مُدَّة انْقطاع الوحي عن النبي ﷺ لم تكن طويلة كما يدَّعون بقدر ما كانت ثقيلة على نفس النبي ﷺ، خاصة في بداية البعثة.

٣) إنّ حِرْص النبي ﷺ على دعوة قومه للإيمان، وتألُّمه لعدم اسْتِجابتهم أمرٌ يُحسب له، ولا يحسَب عليه كما يدَّعون.

التفصيل:

أولا. ارتاد النبي ﷺ ذرا الجبال ائتناسًا بأماكن ظهور جبريل ؑ لا عزمًا على الانتحار:

ممَّا لا شك فيه أنَّ الوحي ولقاء جبريل ؑ والاتِّصال بالله، كان ـ كل ذلك ـ زاد الرسول ﷺ في مشقَّة الطريق، وسقياه في هجير الجحود، وروحه في

(*) هل القرآن معصوم، عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. سيد رسل الله وأباطيل خصومه، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

لأواء[1] التكذيب، وكان النبي ﷺ يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس الشاردة العصيَّة العنيدة، ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصْبوب على الدَّعوة من طغاة المشركين.

على أن آية الضحى التي استدلوا بها في سياق إثبات محاولته ﷺ الانتحار، ليست كما زعموا، ولم تنزل في هذا الشأن؛ بل حين انقطع الوحي عن النبي ﷺ مدة من الزمان، قال المشركون: إن محمدًا قد ودَّعه ربه، وحزن النبي ﷺ حزنًا شديدًا لانقطاع الوحي، ولما يقوله كفار قريش، فأنزل الله ﷻ سورة الضحى وبها قوله ﷻ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ (الضحى)، فكانت هذه السورة بموضوعها وتعبيرها ومشاهدها وظلالها وإيقاعها - لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائفًا من ود، ويدًا حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتَنْسم بالروْح والرِّضَى والأمل، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين على قلب النبي ﷺ[2]، وعليه فليس في الآية الكريمة موطن الشاهد أي إشارة من قريب ولا من بعيد تدل على أن النبي ﷺ قد حاول الانتحار كما يدَّعي بعضهم.

وهناك من الطاعنين من تعلَّق بزيادة وردت في صحيح البخاري، ملحقة بحديث هو في أعلى درجات الصحة، واتهم من خلالها النبي ﷺ بمحاولة الانتحار؛ فقد ذكر الإمام البخاري قصة مجيء جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في غار حراء ضمن حديث طويل، وكان مما ورد في هذا الحديث قول البخاري: "ثم لم ينشب ورقة أن تُوُفِّي، وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردَّى[3] من رءوس شواهق[4] الجبال، فكلَّما أوفى[5] بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدَّى له جبريل، فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًّا؛ فيَسْكُن لذلك جأشه[6]، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي[7] غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدَّى له جبريل فقال له مثل ذلك"[8].

وهذه الزيادة ليست على شرط الصحيح؛ لأنها من بلاغات[9] الزهري وليست موصولة؛ بل من قبيل المنقطع، والمنقطع من أنواع الضعيف، والبخاري لا يخرِّج إلا الأحاديث المسندة المتصلة برواية العدول الضابطين، ولعل البخاري ذكرها لينبهنا إلى مخالفتها لما صحَّ عنده من حديث بَدْء الوحي، الذي لم تُذْكر فيه هذه الزيادة.

ثم إن ما اسْتفاض من سيرته ﷺ يردُّ ذلك؛ فقد حدثت له حالات أثناء الدعوة إلى ربه أشد وأقسى من هذه الحالة، فما فكَّر في الانتحار بأن يلقي نفسه من شاهق جبل أو يبخع[10] نفسه.

---

1. اللأواء: الشدة.
2. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٩٢٥.
3. يتردَّى: يُلقِي نفسه.
4. الشواهق: المرتفعات، جمع شاهقة.
5. أَوفَى بالشيء: أشرف عليه.
6. الجَأش: القلب أو النفس.
7. فترة الوحي: انقطاعه.
8. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا (٦٥٨١)، وقوله: حتى حزن النبي... إلى أخر الحديث ليست ضمن الحديث الموصول كما سنبينه.
9. البلاغ: ما يرويه الراوي بصيغة "فيما بلغنا"، وهو نوع من الأحاديث المنقطعة.
10. يَبخَع: يُهلِك نفسه.

ونحن لا نُنْكر أنه ﷺ قد حصلت له حالة أسى وحزن عميقين على انْقطاع الوحي خشية أن يكون ذلك عدم رضا من الله عليه، وهو الذي كان يهوّن عليه كل شيء من لأواء الحياة وشدائدها ما دام ذلك في سبيل الله، وفيه رضا الله ﷻ.

والتعليل الصحيح لكثرة غَشَيَانِه ﷺ في مُدَّة الفَتْرة رءوسَ الجبال وشواهِقَها، أنَّ الإنسان إذا حصل له خير أو نعمة في مكان ما فإنه يحب هذا المكان، ويتلمَّس فيه ما افتقده، فلما انقطع الوحي صار ﷺ يُكْثِر من ارْتِيَاد قِمَم الجبال، ولاسيَّما حِراء، رجاء أنه إن لم يجد جبريل في حِراء، فليجده في غيره، فرآه راوي هذه الزيادة وهو يَرْتاد[1] الجبال، فظن أنَّه يريد هذا، وقد أخطأ الرَّاوي المجهول في ظنه قطعًا.

وليس أدل على ضعف هذه الزيادة من أنَّ جبريل كان يقول للنبي ﷺ كلَّما أوفى بذروة جبل: "يا محمد إنك رسول الله حقًّا"، وأنه كرَّر ذلك مرارًا، ولو صحَّ هذا لكانت مرة واحدة تكفي في تثبيت النبي ﷺ، وصرفه عما حدَّثته به نفسه كما زعموا[2].

ثم إن هذه الزيادة ليست على شرط البخاري في صحيحه، فهو لم يخرِّجها في صحيحه بسنده إلى النبي ﷺ، ففي صحيح البخاري روايات غير مسندة، وهذا أمر لا بد من معرفته حتى لا يقع خلط ولَبْس بدعوى أن كل رواية أوردها البخاري في صحيحه يطلق القول بصحتها، فلا بد أن نفرِّق بين الحديث المسند في صحيح البخاري، والمعلَّق، وبين الموصول فيه، والمرسل الذي جاء في الحديث الموصول عَرَضًا كهذه الزيادة المرسلة التي جاءت في حديث عائشة الموصول.

ولمزيد من بيان وتوضيح هذه المسألة نقول: "إن الأحاديث التي أوردها البخاري في صحيحه تنقسم ثلاثة أقسام":

١. **القسم الأول: هو الأحاديث المسندة والمرفوعة إلى النبي ﷺ**؛ وهذه الأحاديث صحيحة بلا ريب.

٢. **القسم الثاني: وهو الأحاديث المعلَّقة**؛ والحديث المعَلَّق هو الذي سقط من أول إسناده راوٍ فأكثر على التوالي، وهذه الأحاديث المعلقة يوردها الإمام البخاري في تراجم الأبواب ومقدماتها.

وحكم الحديث المعلَّق أنه مردود؛ لأنه فقد شرطًا من شروط القبول، وهو اتصال السند، وذلك بحذف راوٍ أو أكثر من إسناده مع عدم علمنا بحال ذلك المحذوف، وقد قام الحافظ ابن حجر - رحمه الله - بجهد جهيد تجاه الأحاديث المعلقة الواردة في صحيح البخاري، وذلك بتتبع أسانيدها فوجد أنها قد وردت بأسانيد متصلة في دواوين السنة المختلفة، وأنها قد بلغت درجة الصحيح إلا النَّزْر اليسير منها.

٣. **القسم الثالث: الموقوفات**؛ وهي أقوال الصحابة أو التابعين، وهذه الموقوفات منها ما هو صحيح، ومنها ما هو غير ذلك، وتُعرف الصحة من غيرها بواسطة أسانيد هذه الموقوفات[3].

---

١. يرتاد: يتلمَّس.

٢. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبوشهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٥، ٢٦٦ بتصرف يسير.

٣. عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، مرجع سابق، ص٢٧٦.

والإمام البخاري ـ رحمه الله ـ يجزم منها بما صح عنده ولم يكن على شرطه، ولايجزم بما كان في إسناده ضعف أو انقطاع، إلا حيث يكون منجبرًا، إما بمجيئه من وجه آخر وإما بشهرته عمن قال.

فلو نظرنا إلى صنيع الإمام البخاري في هذه الزيادة المرسلة لوجدناه أوحى إلى تمريضها حينما أورد جملة الإمام الزهري الاعتراضية ـ فيما بلغنا ـ وهي بلاشك صيغة من صيغ التمريض والتضعيف.

والحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ أجاب لنا عن تساؤل ملحٍ، وهو ما سبب إيراد الإمام البخاري هذه الموقوفات والمعلقات في صحيحه في الوقت الذي اشترط فيه الصحة؟ فقال رحمه الله: "إنما يورد ما يورد من الموقوفات من فتاوى الصحابة والتابعين وتفاسيرهم لكثير من الآيات على سبيل الاستئناس والتقوية لما يختاره من المذاهب في المسائل التي فيها الخلاف بين الأئمة، فحينئذ ينبغي أن يقال... إن المقصود من هذا التصنيف بالذات هو الأحاديث الصحيحة المسندة، وهي التي ترجم لها، والمذكور بالعَرَض والتتبُّع والآثار الموقوفة، والأحاديث المعلقة، والآيات المكرمة، فجميع ذلك مترجم به...

ولكن المقصود بالذات هو الأصل، فافهم ذلك فإنه مخلَص حسن، يندفع به اعتراض كثير عما أورده المؤلف من هذا القبيل"[1].

وقال في موضع آخر: "إلا أن الجواب عما يتعلق بالمعلَّق سهل؛ لأن موضوع الكتابين ـ يقصد الصحيحين ـ إنما هو المسندات، والمعلق ليس بمسند، ولهذا لم يتعرض الإمام الدارقطني فيما تتبعه على الصحيحين إلى الأحاديث المعلقة، التي لم توصل في موضع آخر لعلمه أنها ليست من موضوع الكتاب وإنما ذكرت استئناسًا واستشهادًا"[2].

ويؤكد د. عماد السيد الشربيني عدم صحة الزيادة الواردة في الحديث، ويذكر مجموعة من الأدلة التي تثبت عدم صحتها، ومنها:

١. معارضتها لأصل من أصول الإسلام، وهو عصمة الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، بمعنى: حفْظ الله ظواهرهم وبواطنهم، وتفكيرهم وخواطرهم، وسائر أعمالهم، حفظًا كاملًا، فلا يقع منهم قط ما يُشكِّك في نبوتهم ورسالاتهم، وهذا البلاغ المعمري أو الزهري ـ نسبة إلى معمر والزهري راويي الحديث ـ لم يُبقِ لعصمة النبي ﷺ مكانًا في مدة الحزن اليائس التي تقول أُقصوصة هذا البلاغ: إنه ﷺ مكثها وهو يغدو مرارًا كي يتردَّى من شواهق الجبال، ولا سيَّما على مذهب من يرى أن مدة فترة الوحي ـ وهي مدة الحزن اليائس ـ قد طالت إلى ثلاث سنوات، أو سنتين ونصف سنة، أو ستة أشهر، وفي هذا البلاغ الضعيف تصريح بأن صاحبه يذهب مذهب من يرى طول مدة فترة الوحي؛ لأن ما ذكر فيه من الغدو مرارًا لكي يلقي بنفسه من ذُرا الشواهق الجبلية يقتضي طول المدة، ولا سيما مع تمثُّل جبريل عليه السلام له وقوله: أنا جبريل، وأنت رسول الله حقًّا أكثر من مرة.

يتعارض هذا البلاغ مع ما يجب أن يكون عليه

١. هدي الساري مقدمة فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار الريان، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٢.

٢. المرجع السابق، ص٣٦٤.

النبي ﷺ من رسوخ الإيمان بنبوته، وكمال اليقين برسالته، ولا شك أن ما جاء في هذا البلاغ من تبدِّي جبريل عليه السلام للنبي ﷺ كلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منها نفسه، وقوله له: يا محمد، أنت رسول الله حقًّا، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدَّى له جبريل عليه السلام فقال مثل ذلك - لا شك أن ذلك يصوِّر مدى ما بلغه ذلك الحزن اليائس - في زعم قائليه - من نفس النبي ﷺ حتى جعله يتشكَّك في تبدِّي جبريل عليه السلام له، وفي إخباره أنه رسول الله حقًّا، فالنبي ﷺ - كما تصرِّح به عبارة هذا البلاغ - لم يكد يسكن جأشه لتبدِّي جبريل له وإخباره أنه رسول الله حقًّا حتى يعود إلى عزيمته في إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال، فيتبدَّى له جبريل مرة أخرى، ويقول له: يا محمد، أنت رسول الله حقًّا.

فأين سكون جأشه الذي أحدثه في نفسه جبريل، وإخباره أنه رسول الله تبارك وتعالى حقًّا؟ وأين رسوخ إيمانه برسالة ربه تبارك وتعالى التي شرَّفه بها قبل فترة الوحي، وأنزل عليه في أول مراتب وحيها في غار حراء قرآنًا يُتْلَى، حتي يعود عن عزيمته لإلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال إذا طالت عليه فترة الوحي؟!

٢. إن ما تضمَّنه هذا البلاغ يشمل أمرين:

الأول: ظاهر محسوس، يمكن مشاهدته، والحكم بوجوده أو عدم وجوده بمقتضى إمكان مشاهدته حسًّا.

الآخر: باطن محجوب في داخل النفس، لا يمكن معرفته إلا بإخبار صاحبه الذي دار في نفسه، أو إخبار من أظهرهم عليه بنقل ثابت عنه، فذهاب النبي ﷺ أعالي الجبال وشواهقها التي أَلِفَ الصعود إليها في أزمان خلواته، وتطلُّعاته للتفكُّر في عجائب آيات الله الكونية، وبدائع مَلَكُوته، أمر محسوس، يمكن الحكم عليه برؤيته ومشاهدته، ولا حَرَج في أن يكون النبي ﷺ قد حزن في فترة الوحي؛ اشتياقًا لأنوار الشُّهود الرُّوحاني الأعلى الذي كان يغمره في أوقات نزول الوحي، ونزول آيات القرآن المبين، حزنًا كان يغدو منه إلى ذرا الجبال التي كانت مأنس روحه، تطلُّعًا إلى آفاق أشواقه لشهود تجليات أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي سبق له أن تجلَّى في آفاقها بصورته الملائكية الروحانية العالية.

وكون هذا الذهاب إلى ذرا شواهق الجبال لقَصْد التردِّي منها ليقتل نفسه - كما هو نص عبارة البلاغ الضعيف - أمر باطن محجوب بأستار الضَّمير في حنايا النفس لا يعلمه، ولا يطَّلع عليه إلا الله علام الغيوب، وإلا صاحبه الذي دار في حنايا نفسه وعزم على تحقيق ذلك عمليًّا، وإلا من يظهره عليه صاحبه العليم به، بإخبار منه إليه، وكل ذلك لم يثبت[1].

على أن هناك مؤشرات أخرى تدل على ضعف هذه القصة، فمن تلك المؤشرات: ما رواه الإمام البخاري عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٢٤، ٢٢٥.

بقرن الثعالب"[1][2].

فهنا ذكر النبي ﷺ أن أشد ما وقع عليه، هو ذلك الأذى النفسي الحاصل من تكذيب أهل الطائف له، حتى إنه بقي مهمومًا حزينًا لم يستفق إلا وهو بعيد عن الطائف، نعم، إن حزن النبي ﷺ على فتور الوحي ثابت في نصوص أخرى، غير أن حزنه ما كان ليبلغ حد الرغبة في إلقاء نفسه من علو، وإلا لكان هذا أجدر بالذكر من حادثة الطائف المذكورة هنا.

ومع هذا كله، وبفرض صحة هذه القصة جدلًا، فليس فيها ما يعيب شخص النبي ﷺ أو يقدح في عصمته، وبيان ذلك أنه قد همّ -على فرض صحة الرواية- بأن يلقي بنفسه، والهمّ هنا لم ينتقل إلى مرحلة التنفيذ، وذلك شبيهٌ بما حكاه الله تعالى عن يوسف عليه السلام في قوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ (يوسف:٢٤)، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في منهاج السنة: "ولهذا لما لم يذكر عن يوسف توبة في قصة امرأة العزيز، دلّ على أن يوسف لم يذنب أصلًا في تلك القصة". وهذا كحديث النبي ﷺ: "ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة"[3].

١. قَرْن الثعالب: قرية بينها وبين مكة واحد وخمسون ميلًا.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين. والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى (٣٠٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين (٤٧٥٤).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦١٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة كُتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (٣٥٤).

ثم نقول: إن العصمة متحققة للنبي ﷺ في هذه الحالة، ووجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى صرف عنه هذا السوء، كما صرف عنه قبل مبعثه حصول التعري، وشرب الخمر، والجلوس مع فتيان قريش، وغير ذلك مما هو مبثوث في السيرة.

ثانيًا. ترجيح ثقل انقطاع الوحي عنه ﷺ دون طول مدته:

ذكر د. محمد أبو شهبة اختلافات المؤرخين وكتّاب السّيَر في تحديد المدة التي فتر فيها الوحي عن رسول الله ﷺ فقال: "قيل: كانت أيامًا، روى هذا ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس، وروى أن أقصاها أربعون يومًا، وقيل: ستة أشهر، وقيل: سنتان ونصف، وقيل: ثلاث سنين، ونسب هذا إلى ابن إسحاق، والذي في السيرة لابن هشام عن ابن إسحاق عدم التحديد بمدة.

والذي أرجحه هو الأول، وأن أقصاها أربعون يومًا، ويليه القول الثاني، وأما القولان الأخيران فإني أستبعدهما، فالفترة إنما كانت ليستردَّ النبي ﷺ أنفاسه مما حدث له من ضغط جبريل عليه السلام، وما عراه من الهول والفزع لأول لقاء بين بشر وملك، وليحصل للنبي ﷺ الشوق إلى لقاء جبريل عليه السلام بعد هذه الفترة.

أما أن يقضي النبي ﷺ ثلاث سنين أو سنتين ونصف سنة من عمر الدعوة الإسلامية من غير وحي ودعوة، فهذا ما لا تقبله العقول، ولا يدل عليه نقل، وفي هذه الفترة كان النبي ﷺ يداوم الذهاب إلى حراء، وإلى ما جاوره من الجبال عسى أن يجد هذا الذي جاءه حتى وصل جبريل ما انفصم[4]، وعاد الوحي

٤. انفَصَم: انقطع.

وتتابع"[1].

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه ما نقله د. منير محمد الغضبان عن المقريزي في كتاب "إمتاع الأسماع" إذ يقول: "يقول المقريزي: قيل إن فترة الوحي ـ انقطاعه ـ كانت قريبة من سنتين، وقيل: كانت سنتين ونصفًا، وفي تفسير عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كانت أربعين يومًا، وفي كتاب "معاني القرآن" للزجّاج كانت خمسة عشر يومًا، وفي تفسير مقاتل ثلاثة أيام، ورجَّحه بعضهم وقال: ولعلّ هذا هو الأشبه بحاله عند ربه، ثم تبدَّى له الملك بين السماء والأرض على كرسي، وثبّته وبشّره أنه رسول الله، فلما رآه فَرِق[2] منه، وذهب إلى خديجة فقال: "زمّلوني زمّلوني"، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥)﴾ (المدثر)، فكانت الحالة الأولى بغار حِراء حالة نبوة وإيحاء، ثم أمر الله تعالى في هذه الآية أن ينذر قومه ويدعوهم إلى الله ، فكان ـ فيما قاله عروة بن الزبير، ومحمد بن شهاب، ومحمد بن إسحاق ـ من حين أتت النبوة وأنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١)﴾ (العلق)، إلى أن كلَّفه الله الدعوة وأمره بإظهارها فيما أنزل عليه من قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ (الحجر)، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ (الشعراء)، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩)﴾ (الحجر) ـ ثلاث سنين.

ونلاحظ أن المقريزي رجّح الآراء التي تعتبر فترة انقطاع الوحي فترة قصيرة حول الأربعين والخمسة عشر والثلاثة من الأيام، بينما ساق الأقوال الأولى عن السنتين والسنتين والنصف دون إسناد، وفي ترجيح المقريزي يزول الإشكال الكبير حول هذه الفترة التي لا نجد لها ذكرًا أو تاريخًا، ولو حُسِبَتْ هاتان السنتان والنصف من المرحلة السرِّية لكانت مرحلة الدعوة فيها لا تعدو سنة أو نصف سنة، ومن المستبعد جدًّا أن يكون ذلك"[3].

وعلى كلٍّ فإن "فترة الوحي ـ طالت أو قصرت ـ شأن من شئون الله تعالى التي ينفرد بحكمتها، فقد كانت لطفًا من الله تعالى لنبيه ﷺ ورحمة به؛ ليستجمَّ من عناء ما لاقى من روع المفاجأة، وشِدّة الغَطّ[4]، وشدة الوحي، لاستفراغ بشريته ليزداد تشوُّفًا وتشوُّقًا إلى تتابع الوحي، وتقوية لروحانيته، على احتمال ما يتوالى من الله ﷻ إليه، حتى يتم استعداده لتبليغ رسالته إلى الخلق كافة بصبر وقوة، ويقين لا يدانيه يقين في أن الله ﷻ سيتم عليه نعمته"[5]®.

---

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٤، ٢٦٥.

٢. فَرِق: فزع.

٣. المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٧، ١٨.

٤. الغَطُّ: هو العصر والضَّمُّ، والمقصود به: عَصْر جبريل عليه السلام وضمه للنبي ﷺ عند أول لقاء بينهما.

٥. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٣٣.

® في **"فتور الوحي عن النبي ﷺ"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي).

ثالثًا. تألم النبي ﷺ لعدم إيمان قومه مما يحسب له لا عليه:

عندما أمر الله ﷻ النبي ﷺ بالدعوة إليه في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)﴾ (المدثر)، والرسول ﷺ لم يألُ جهدًا في دعوة قومه، وكان يحزن أشد الحزن، ويأسف أيّما أسف بإعراض قومه عنه، وعدم استجابتهم لما يدعو إليه؛ لأنه يعلم أن هذه الدعوة فيها خَيْرا الدنيا والآخرة، ولا يحيد عنها إلا من سفه نفسه، ونتيجة هذا الحزن الشديد، وهذا الأسف العميق أنزل الله ﷻ قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ (الكهف).

قال الإمام الشعراوي: "أي: تجهد نفسك في دعوة قومك إجهادًا يهلكها، وفي الآية إشفاق على رسول الله؛ لأنه حمّل نفسه في سبيل هداية قومه ما لم يحمّله الله له، وألزمها ما لم يلزمه، فقد كان ﷺ يدعو قومه فيعرضون ويتولّوْن عنه، فيشيّع آثارهم بالأسف والحزن، كما يسافر عنك حبيب أو عزيز، فتسير على أثره تملؤك مرارة الأسى والفراق، فكأن رسول الله ـ لحبه لقومه وحرصه على هدايتهم ـ يكاد يهلك نفسه أَسَفًا، وقد حدَّد الله تعالى مهمة الرسول ﷺ، وهي البلاغ، وجعله بشيرًا ونذيرًا، ولم يكلِّفه من أمر الدعوة ما لا يطيق، ففي الآية مظهر من مظاهر رحمة الله تبارك وتعالى برسوله ﷺ"[1].

ورغم كل هذا يدعي هؤلاء المتوهمون أن النبي ﷺ حاول قتل نفسه نتيجة الإحباط الذي أصابه لعدم استجابة قومه!! قد لا يعاب على شخص آمن بمبدأ أو دعوة ما أن يموت في سبيل نشر دعوته هذه، بل يُمدح بأنه شجاع مات من أجلها، فإذا زاد حرص النبي ﷺ على دخول قومه في دينه، وحزن على عدم إيمانهم حتى أثَّر الحزن عليه، أبعد ذلك يُتَّهم أنه أراد أن ينتحر حزنًا؟!

إن الشدائد لا تؤثِّر في عزائم أصحاب المبادئ والإيمان والقيم، فكيف تؤثّر في نبي صاحب رسالة سماوية خاتمة؟!

لقد خرج النبي ﷺ والمسلمون من المحن التي تعرضوا لها ـ على قساوتها وشدتها ـ أقوى عودًا وأصلب مكسرًا لا تلين لهم قناة ولا تضعف لهم عزيمة، لقد استمروا في ثباتهم على طريق الهدى والتقى والإصرار على محاربة الشرك ومطاردته والقضاء عليه.

ويستفاد مما سبق أن محمدًا ﷺ كان داعية لا يفتر عن الدعوة إلى الله، بل يبشِّر بدعوته وينشرها ويبلغها للناس، وأنه لم يعرف اليأس قطّ، ولم يشك في اصطفاء الله ﷻ له، وهذا ناتج عن إعداد الله ﷻ له وتنشئته في ظروف أهلته لذلك ﷺ®.

الخلاصة:

- كان النبي ﷺ في فترة انقطاع الوحي يرتاد الأماكن التي ظهر له فيها جبريل عليه السلام لاشتياقه إليه، وليس لغرض الانتحار كما يدعي المتوهِّمون.

---

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٤، ص٨٨٣٩، ٨٨٤٠.

® في "حرص النبي ﷺ على هداية قومه ورحمته بهم" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي).

- الرواية الواردة في صحيح البخاري والتي اتهم من خلالها النبي ﷺ بمحاولة الانتحار - ليست على شرط الصحيح؛ لأنها من بلاغات الزهري وليست موصولة؛ بل من قبيل المنقطع، الذي هو من أنواع الضعيف، ولعل البخاري ذكرها لينبهنا إلى مخالفتها لما صح عنده من حديث بدء الوحي.
- ليست ثمة أدنى علاقة بين سبب نزول سورة الضحى، وبين محاولة الانتحار المزعومة.
- اختلف أهل السير في مدة انقطاع الوحي، فقيل: كانت ستة أشهر أو أربعين يومًا أو خمسة عشر يومًا؛ وقيل سنتين ونصف، وقيل ثلاث سنوات. والراجح أنها لم تزد عن خمسة عشر يومًا أو أربعين يومًا؛ وذلك أن مدة الدعوة السرية كانت ثلاث سنوات فقط، فكيف يتفق هذا مع الرأي الذي يحدد فترة انقطاع الوحي بسنتين ونصف أو بثلاث سنوات؟!
- لقد كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على هداية قومه، فكان يحزن ويتألم أشد الحزن إذا صدَّه قومه، أو خذلوه في دعوته، وهذا أمر يُحسب للنبي ﷺ ولا يُحسب عليه، ونزل قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (الكهف) للتخفيف عن النبي ﷺ حتى لا يتعب نفسه ويهلكها، فإنما الهدى هدى الله يهدي به من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

الشبهة العاشرة

ادعاء أن النبي ﷺ شك في دينه وما أُنزل إليه من ربه(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أن النبي ﷺ شك في دينه وما هو عليه مما نزِّل إليه من وحي، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سبأ)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (يونس)، وقوله ﷺ في الحديث: "نحن أحق بالشك من إبراهيم"[1]. ويرمون من وراء ذلك إلى نفي عصمة النبي ﷺ بدعوى شكِّه في دينه؛ لأنه إن شك فيما أُنزل إليه وأُمر بتبليغه؛ فغيره أحق بالشك فيه منه حسبما يزعمون.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن الواقع والمنطق يقضيان باستحالة أن يأمر قائد من القادة - من غير أصحاب الدعوات السماوية - أتباعه بشيء، ثم يشك هو في صحته؛ فلا يعقل أن يدعو نبي من الأنبياء الناس إلى التوحيد والإيمان بالله، ثم

(*) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله ﷻ: ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الحجر) (٣١٩٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (٣٩٩).

يشك فيه، وإذا تقرَّر هذا في حق الأنبياء عامة؛ فهو في حق خاتم الأنبياء والمرسلين صاحب الرسالة المهيمنة المتمِّمة ثابتٌ من باب أولى.

٢) إن آية أو شطر آية في القرآن الكريم كُلّه ما دلّت على شكِّه ﷺ في دينه - لا نصًّا ولا إيماء - وإن ما استشهد به هؤلاء على ذلك محض تعسُّف وتحميل لنصوص القرآن ما لا تحتمل.

٣) إن سؤال إبراهيم عليه السلام الذي سأله ليس فيه شيء من الشك، وما ينبغي أن يكون؛ فسؤاله فقط عن هيئة الإحياء، لا عن إثبات قدرة الله على الإحياء، واعتقادها من بدهيات الفطرة وأساسيات النبوة.

٤) إن ما أراده النبي ﷺ في الحديث المذكور هو تمام تنزيه الخليل إبراهيم عليه السلام في مقام تواضعه ﷺ معه من جهة، ونفي الشك عنه عليه السلام من جهة أخرى، وليس معنى نفي الشك عن سيدنا إبراهيم عليه السلام إثباته في حق النبي محمد ﷺ!!

التفصيل:

أولا. استحالة أن يخالف الأنبياء - بما فيهم محمد ﷺ - شيئًا مما جاءوا به من عند الله تبارك وتعالى أو أن يشكّوا فيه:

أجمعت الأمة سلفًا وخلفًا على ضرورة عصمة الأنبياء من الكفر والشك والريب؛ وذلك لأن العصمة صفة أساسية لهم، فلا يعقل أن يدعو النبي الناس للتوحيد والإيمان، ويكفر بما جاء به، وإذا كان هذا خُلُقا ممقوتًا في دنيا القادة والمصلحين، أو الناس عامة فأولى بالبعد عنه الأنبياءُ والمرسلون، وهؤلاء الرسل الذين اختارهم الله لهداية الخَلْق هم الصَّفْوة النبيلة الخيِّرة من عباده، كما قال عز وجل: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٥).

وبعد أن ذكر جماعة من الأنبياء، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) ﴾ (ص)، وكان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - مصطفين وأخيارًا؛ لأنهم حَمَلَة أكرم رسالة، ولا يليق بأكرم الرسالات إلا أكرم البشر؛ ولأنهم في مقام القادة الهداة، ولا يتصدر القوم إلا أكملهم وأرفعهم في هذه المهمة بالذات[1].

"إن كمال العقل وعصمته من الكفر والشرك والشك، ومن تسلُّط الشيطان عليه، صفة أساسية في رسل الله عز وجل، وشرطٌ ضروري من شروط صحة رسالة جميع الرسل، وهي جزءٌ من الكمال البشري الذي كمَّلهم الله عز وجل به، وهو عاملٌ مهم، وسبب قوي من أسباب تبليغ الرسالة إلى أقوامهم، وإذا كان الكمال العقلي صفة أساسية في رسل الله عز وجل، فإمامهم - في ذلك - سيدنا محمد ﷺ "[2].

ومن الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء ما يأتي:

- لو صدر الذنب عنهم لوجب زجرهم؛ لأن الدلائل دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن زجرهم - عليهم الصلاة والسلام - غير جائز، لقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (الأحزاب: ٥٧)، فكان صدور الذنب عنهم ممتنعًا.

١. المصطفون الأخيار، عطية صقر، دار مايو الوطنية للنشر، القاهرة، ١٩٩٧، ص٨.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٦٥.

- كل من أقدم على الذنب كان ظالمًا لنفسه، لقوله ﷻ: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ (فاطر: ٣٢)، والعهد في قوله ﷻ: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (البقرة) إما أن يكون عهد النبوة، أو عهد الإمامة، وهذا العهد لا يصل للظالم؛ لذلك لا يكون النبي ظالمًا.
- الراجح بين العلماء - رحمهم الله تعالى - أن الأنبياء أفضل من الملائكة، ومعلوم أن الملائكة ما أقدموا على شيء من الذنوب، فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء لامتنع أن يكونوا زائدين في الفضل على الملائكة.
- إن الله ﷻ في قوله حكاية عن إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (ص)، استثنى المخلصين من إغوائه وإضلاله، ثم إنه ﷻ شهد للرسل بأنهم من المخلصين حيث قال: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ﴾ (ص: ٤٦). وقال في حق يوسف: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف)، وذلك يوجب القطع بعدم صدور المعصية منهم[1].

ثانيًا. ليس في القرآن ما يدل على شك النبي ﷺ فيما أنزل إليه من ربه، وهو الذي تحمّل عبء الدعوة إليه سنين عددًا:

إن ثقة النبي ﷺ في التوحيد الذي بُعِثَ به، ويقينه بنصر الله له كانا على رأس الدوافع التي جعلها الله سببًا في تثبيته، والتمكين لدينه، والشواهد في هذا كثيرة، أمَّا ما استشهد به بعضهم على خلاف ذلك فمن قبيل الفهم المغلوط لمدلول القرآن وتحميل الآيات والألفاظ ما لا تحتمل، وتفسير النص على غير وجهه.

وما ظننًّا يومًا أن تدعونا الحاجة إلى نفي اتهامه ﷺ بالشك في دينه وما كان عليه من الإيمان، لولا أن بعضهم توهم هذا المعنى في آيتي: سبأ ويونس، ونحن إذا ذهبنا إلى تفسير قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سبأ). فإننا نجد أن الآية تُوضِّح مدى ضلال الكفار، بعد أن أثبتوا وأقروا أن الرزاق هو الله ﷻ، قيل: قال ذلك أصحاب رسول الله ﷺ للمشركين: والله ما نحن وأنتم على أمر واحد، وإن أحد الفريقين مهتد، وهم لا يشكون أنهم على هدى، وأولئك على ضلال، وإنما على جهة الاستهزاء فالمعنى: نحن على هدى وأنتم الضالون[2].

فالكلام في الآية الكريمة سيق على لسان الصحابة - رضي الله عنهم - للكفار، وقد دار الحوار بينهما، فأراد الله ﷻ أن يؤكد لهم - أي: الكفار - أنهم في ضلال مبين.

وهذا اللون من الكلام يُسمَّى الكلام المنصِف، وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيُّظ واحتداد في الجدال، ويسمَّى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر، ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة[3].

وأما قوله ﷺ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (يونس: ٩٤)، معنى الآية - كما رُوي عن ابن عباس وغيره -: احذر

١. انظر: عصمة الأنبياء، الإمام فخر الدين الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٩: ٣٥.

٢. مختصر تفسير الطبري، أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبي، دار المنار، القاهرة، د. ت، ص٤٣١.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٢، ص١٩٢.

كل الحذر - ثبَّت الله قلبك - أن يخطر ببالك شيء من شك النبي ﷺ فيما أوحى الله إليه، وأنه من البشر، فمثل هذا الخاطر المذموم لا يجوز على النبي جملة لثبوت عصمته، بل قال ابن عباس: "لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل أحدًا ممن قرأ الكتاب من قبله، فالمراد على سبيل الافتراض البعيد الحصول، وهذا قول عامة المفسرين"[1].

وقد قالوا: إن في السورة نفسها ما دلَّ على هذا التأويل، قال ﷻ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ (يونس).

فهذا تقرير لحقيقة حاله ﷺ وشهادة له بأنه ما شك فيما أُنزل عليه، ولا سأل أهل الكتاب، وكان من عباد الله المؤمنين؛ ومن هنا يتضح أن هذا التخيير ليس فيه أدنى شك منه ﷺ، إنما هو من قبيل الاستهزاء بالكفار، وتوضيح مدى ضلالتهم وكفرهم، بعد أن أثبتوا أن الرزَّاق هو الله ﷻ ®.

ثالثًا. إن السؤال الذي سأله سيدنا إبراهيم عليه السلام كان عن هيئة الإحياء، لا عن إثبات قدرة الله تعالى على الإحياء:

إن قول إبراهيم عليه السلام حين طلب من ربه أن يُرِيَهُ كيف يحيي الموتى وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وقول الله له: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾، وقوله عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (البقرة: ٢٦٠)، ليس من قبيل الشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى؛ لأن النبي إبراهيم عليه السلام لم يشك في إخبار الله ﷻ له بإحياء الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب، أي: بمشاهدة فعل الرب؛ إذ ليس الخبر كالمعاينة، على ما ورد في الأثر، وليستأصل دابر المنازعة بسكون النفس، أو منازعة أهل المخاصمة، فتحقق له بهذا: العلم الأول - وهو علم اليقين - ثم العلم الثاني الذي أراده - وهو عين اليقين - بكيفيته ومشاهدته - أي: ملاحظة هيئته وطريقته - ولا مانع من ذلك عقلًا وتعلُّمًا في مقام استزادة العلم، وطلب زيادة العلم مشروع، كما قال ﷻ لنبيه، وهو أعلم بالحق: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طه).

وإبراهيم الخليل عليه السلام إنما أراد اختبار منزلته عند ربه، والعلم بإجابة دعوة الله له، إذ سأل ربه ذلك، ويكون معنى قوله ﷻ: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بناء على هذا التفسير: تصدق بمنزلتك مني وخِلَّتك - أي: كونك خليلًا عندي، واصطفائك بالرسالة وغيرها.

ثم إن إبراهيم عليه السلام لما احتج على المشركين بأن ربه يحيي ويميت، حكى الله تعالى نص كلامه قائلًا: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٨) فطلب - أي إبراهيم - أن يرى كيفية إحياء الموتى، لتتقوَّى حجته، ويصح احتجاجه على المشركين عيانًا، فتحقق له ما يريد، وهو إلزام غيره في الحال.[2]

ويؤكد على أنه ليس في سؤال سيدنا إبراهيم عليه السلام ما

١. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٤٥٦.

® في **"نفي كون شكوى النبي ﷺ لخديجة ورجوعه إلى ورقة بن نوفل عن شك في نبوته"** طالع: الشبهة الثامنة، من هذا الجزء.

٢. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٤٥٤، ٤٥٥ بتصرف يسير.

يدل على أنه شك، أن السؤال وقع بـ "كيف" الدالة على حال شيء موجود مقرر عند السائل والمسئول، كما تقول: كيف علم فلان؟ فكيف في الآية سؤال عن هيئة الإحياء، لا عن الإحياء نفسه، فإنه ثابت مقرر لدى سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو ما شهد به رب العزة لسيدنا إبراهيم ردًّا على سؤاله، بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ والاستفهام هنا تقرير للنفي، وهو الشك، كأنه قال له: ألست مؤمنًا بالبعث؟ فكان جوابه عليه السلام بـ "بلى" لإثبات النفي وهو الشك، والمعنى: أنا مؤمن بالبعث كما علمت ما في قلبي، لكنني أريد أن يطمئن قلبي برؤية الكيفية فقط لأعتبر بذلك.

فما شك إبراهيم عليه السلام ولم تكن لديه أية شبهة في قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، إذ لم يقل لله عز وجل: أتستطيع أن تحيي الموتى؟ وإنما أراد أن يرى الهيئة، كما أننا لا نشك في وجود الفيل، والتمساح، والكسوف، وزيادة النهر، ثم يرغب من لم ير ذلك منا أن يرى كل ذلك، ولا يشك في أنه حق، لكن ليرى العجب الذي يتمثّله في نفسه، ولم تقع عليه حاسة بصره قط.

فواضح في السؤال والجواب أن الخليل إبراهيم عليه السلام لم يسأل لشك أو شبهة أو تردّد، وهذا ظاهر، إذ لم يقل لله تعالى: هل تقدر أن تحيي الموتى أو لا تقدر؟ فالسؤال كان حول كيفية الإحياء، وليس حول إمكانيته أو عدم إمكانيته.

وكيف يشكُّ من وصفه ربه بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الأنعام)، والرشد والإيقان، أسمى مراتب العلم، الذي لا يصح معه شك أو حتى شبهة[1].

رابعًا. التفسير الصحيح لحديث الرسول المستشهد به:

ليس من شك في أن قوله صلى الله عليه وسلم: "نحن أحق بالشك من إبراهيم" [2] حجة لنا؛ إذ فيه نفي للشك عن سيدنا إبراهيم عليه السلام وعن نفسه صلى الله عليه وسلم، وهذا من أحسن الأقوال وأصحها وأرجحها في هذا الصدد، فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول: إن الشَّكَّ مستحيلٌ في حق إبراهيم عليه السلام، فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقًا إلى الأنبياء، لكنت أنا أحق به من إبراهيم؛ لأن ما يجوز في حق واحد من الأنبياء يجوز في حقهم جميعًا، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم عليه السلام لم يشك.

وقد يُفهم من قوله صلى الله عليه وسلم: "نحن أحق بالشك من إبراهيم" أن هذا الذي تظنونه شكًّا، أنا أولى به، ولكنه ليس بشك، وإنما هو لطلب مزيد من اليقين.

وهذا الكلام مما جرت به العادة في المخاطبة، لمن أراد أن يدفع عن آخر شيئًا، كأن يقول الرجل: ما تريد أن تقوله في حق فلان، قُلْهُ لي، ومقصود هذا القائل لا يبعد عن مقصوده صلى الله عليه وسلم، ومعناه: لا تقل ذلك؛ لأنه ليس كذلك، فثق به كما تثق بي.

وإنما خُص إبراهيم عليه السلام لكون قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٦٠) قد

١. رد شبهات حول عصمة النبي صلى الله عليه وسلم، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٤٠، ٢٤١ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله عز وجل: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الحجر) (٣١٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب .. (٣٩٩).

يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منه احتمال الشك، وإنما رجّح إبراهيم عليه السلام عَلَى نفسه ﷺ تواضعًا وأدبًا، أو قبل علمه ﷺ أنه خير وسيد ولد آدم عليه السلام[1].

إن المقصود ـ كما علمنا ـ من الحديث إذن هو نفي الشك عن الأنبياء جميعًا؛ لأنهم معصومون من كل الظنون والخطايا، وكذا من الشك في عقيدتهم.

إضافة إلى ذلك أنه لا يفهم من قوله ﷺ اعترافه بأحقيته في الشك من إبراهيم، "بل ذلك نفي لأن يكون إبراهيم قد شك، أي: هو زجرٌ، إذ قد ورد أنه لما نزل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، سمع قوم ذلك، فقالوا: شك إبراهيم، ولم يشك نبينا، فكانت هذه المقولة من نبينا إبعادًا للخواطر الضعيفة أن تظن هذا بإبراهيم، أي نحن موقنون بالبعث وإحياء الله الموتى، أي: ولم نشك في قدرته عز وجل على ذلك، فلو شك إبراهيم؛ لكنا نحن أولى بالشك منه، وهذا القول منه ﷺ إما على طريق الأدب مع إبراهيم، أو أن ﷺ يريد أمته الذين يجوز عليهم الشك؛ لِفَقْد عصمتهم، أو على طريق التواضع والإشفاق، أو الخوف من تزكية النفس، إن أريد بقصة إبراهيم اختبار حاله، أي امتحان كماله؛ ليعلم منزلة قربه من ربه، أو إن أريد من القصة التوصُّل إلى زيادة يقينه، أي ليزداد حصول علم يقينه بمعرفة عين يقينه"[2].

فَعُلم من هذا كله أن إبراهيم عليه السلام ما شك، وأن النبي ﷺ كأبيه إبراهيم عليه السلام في اليقين، ولو وقع فيه الخليل لجاز للنبي ﷺ ـ حاشاهما من ذلك ـ، فلما لم يثبت في حق الخليل؛ انتفى عن النبي ﷺ على طريق الأولى والأحرى!

الخلاصة:

- ليس في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ (سبأ)، ما يوحي بالشك، أو يدل على وقوع النبي ﷺ فيه؛ ذاك أن الآية توضح مدى كفر الكفار وضلالهم، وتثبت إيمان النبي ﷺ وأصحابه، بدليل أن الكفار في بداية الآية شهدوا بأن الرزاق هو الله عز وجل، ثم لم يقروا له بحقه في إفراده بالعبودية؛ فهو يعيب عليهم هذا الضلال.
- يقول ابن عباس في تفسير قوله عز وجل: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ (يونس: ٩٤): "ما شك رسول الله ﷺ ولم يسأل أحدًا من أهل الكتاب"؛ وذلك لأن الله زكّاه في جميع خصاله وأفعاله.
- إن سؤال سيدنا إبراهيم كان عن هيئة الإحياء، لا عن قدرة الله في إحياء الموتى؛ لأن هذا ثابت في قلب سيدنا إبراهيم؛ وهو الذي وصفه الله بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠﴾ (النحل).
- ليس في الحديث المستدل به ما يدل على ما ذهب إليه هؤلاء، وغاية ما هنالك أن قول النبي ﷺ: "نحن أحق بالشك من إبراهيم" وارد في سياق تنزيه النبي ﷺ للخليل إبراهيم عليه السلام بنفي الشك عنه، وليس معنى

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٤٢ بتصرف يسير.

٢. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٤٥٥، ٤٥٦.

نفيه عن إبراهيم عليه السلام إثباته في حق محمد ﷺ؛ وإنما هذا مما جرت به العادة في المخاطبة، لمن أراد أن يدافع عن آخر شيئًا.

الشبهة الحادية عشرة

ادعاء أن النبي ﷺ أوشك على الوقوع في الفتنة (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن النبي ﷺ أوشك على الوقوع في الفتنة، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ له: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (الإسراء).

ويتساءلون: أليس في هذا ما يتنافى مع عصمته ﷺ؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) بالوقوف على الروايات الواردة في سبب نزول الآيات ـ مناط الاستدلال ـ تتأكد لنا عصمته ﷺ من الوقوع في الفتنة، أو مجرد الاقتراب من الوقوع فيها.

٢) إنّ المتأمل في الآيات يجدها تحتاط للنبي عدة احتياطات؛ ففيها من القرائن ـ أمثال "لولا" و"كاد" و"شيئًا قليلًا" والملاطفة ـ ما ينفي عنه ـ مجرد الركون القليل، ويُدْخِل "قد" في حيز الامتناع؛ فيصبح بذلك تحقيقها معدومًا، ويصير المعنى: لولا أن ثبتناك لتحقَّق قرب ميلك القليل إليهم، ولكنه لم يقع لأنَّا ثبتناك.

التفصيل:

أولا. الروايات الواردة في سبب نزول الآيات ـ مناط الاستدلال ـ تؤكد عصمته ﷺ من الوقوع في الفتنة، أو مجرد الاقتراب من الوقوع فيها:

قال ابن عباس في بيان سبب نزول آيات سورة الإسراء حسبما أورده القرطبي في تفسيره: "نزلت في وفد ثقيف، أتوا النبي ﷺ فسألوه شَطَطًا[1]، وقالوا: مَتِّعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهْدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحَرِّم وادينا كما حرمت مكة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم، فَهَمَّ رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك؛ فنزلت هذه الآية".

وقيل: هو قول أكابر قريش للنبي ﷺ: اطرد عنا هؤلاء السُّقَّاط والموالي، حتى نجلس معك ونسمع منك، فهمَّ بذلك حتى نُهِي عنه.

وقال قتادة: "ذُكِرَ لنا أن قريشًا خَلَوْا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلِّمونه ويفخّمونه، ويسوّدونه ويقاربونه، فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدُنا يا سيدَنا، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عَصَمَهُ الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية" [2]، وبهذا يتأكد ـ مع اختلاف الروايات في سبب نزول الآية الكريمة ـ أن الله عصم نبيه ﷺ من الوقوع في الفتنة، ومن كيد الكائدين.

هذا وقد علَّق صاحب "التحرير والتنوير" على جملة محامل المفسرين التي حملوا الآيات عليها والتي

(*) سيد رسل الله وأباطيل خصومه، د. عبد الصبور مرزوق، مرجع سابق. شبكة اللادينيين العرب. Ladeeni.net

١. الشَّطَط: مجاوزة الحد.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٠، ص٢٩٩، ٣٠٠.

استقصاها القرطبي وأسلفنا ذكر معظمها، وارتأى ابن عاشور أن من تلك المحامل ما ليس له حظ من القبول؛ لوهن سنده وعدم انطباقه على معاني الآية، ومنه ما هو ضعيف السند، ولا تتحمله الآية إلا بتكلُّف على أن ابن عاشور وُفِّق في الوقوف على مردِّ ذلك عند المفسرين من أخبار، وخرج من ذلك بأمثل ما يناسب تلك الأخبار - لئلا تكون فتنة للناظرين فراعى - رحمه الله - تفسيرها بما تعطيه معاني تراكيبها مع ملاحظة ما تقتضيه أدلة عصمة الرسول ﷺ من أن تتطرق إليه خواطر إجابة المشركين لما يطمعون، فقال فضيلته:

إن رغبة النبي ﷺ في اقترابهم من الإسلام وفي تأمين المسلمين، أجالت في خاطره أن يجيبهم إلى بعض ما دعوه إليه مما يرجع إلى تخفيف الإغلاظ عليهم أو إنظارهم، أو إرضاء بعض أصحابه بالتخلي عن مجلسه حين يحضره صناديد المشركين، وهو يعلم أنهم ينتدبون إلى ذلك لمصلحة الدين أو نحو ذلك، وليس فيه فوات شيء على المسلمين، أي كادوا يصرفونك عن بعض ما أوحيناه إليك مما هو مخالف لما سألوه.

فالموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ (الإسراء: ٧٣) للعهد لما هو معلوم عند النبي ﷺ بحسب ما سأله المشركون من مخالفته، فهذه الآية مسوقة مساق المنّ على النبي بعصمة الله إياه من الخطأ في الاجتهاد ومساق إظهار مَلَل المشركين من أمر الدعوة الإسلامية وتخوُّفهم من عواقبها وفي ذلك تثبيت للنبي وللمؤمنين وتأييس للمشركين بأن ذلك لن يكون[1].

هذا وقد أورد الإمام القرطبي - نفسه - في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا ٧٤﴾ (الإسراء) كلاما مؤداه أن ظاهر الخطاب للنبي ﷺ وباطنه إخبار عن ثقيف، والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي: كادوا يخبرون عنك بأنك مِلْتَ إلى قولهم؛ فنسب فعلهم إليه ﷺ اتساعًا على سبيل المجاز، كما تقول لرجل: كدت تقتل نفسك، أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت؛ ذكره المهدوي. وقال القشيري ما كان منه هَمٌّ بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى موافقتهم، ولكن تمَّ فضل الله عليك فلم تفعل. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصومًا، ولكن هذا تعريف لأمته لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه[2].

ثم إن الحق سبحانه وتعالى يريد بهذه الآية والتي بعدها: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾ (الإسراء) أن يستلَّ السَّخيمة[3] على النبي محمد ﷺ من قلوب أعدائه، وكأنه سبحانه وتعالى يقول لهم: يا قوم إن لم يوافقكم محمد على ما كنتم تريدون منه من الانصراف عما أُنزِل إليه من ربه، فاعذروه؛ لأن الأمر عندي والتثبيت مني، ولا ذنب لمحمد فيما خالفكم فيه، وهذا نفسه هو ما أدّاه التهديد الشرطي في الآية الثانية، فنقل به سبحانه وتعالى الكره من صدور القوم لمحمد ﷺ إليه جل شأنه،

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص١٧١، ١٧٢ بتصرف.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٠، ص٣٠١.

٣. السّخيمة: الحقد والحسد.

ومعناها: أنه لو كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات[1].

قال القرطبي: وهذا غاية الوعيد، وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم[2].

وأيا ما كان من أمر فإن هذا ما لم يحدث، وكان عدم وقوعه دليلًا بينًا على عدم وَشْك النبي ﷺ الركون إليهم، حتى لو كان الركون إليهم شيئًا قليلًا.

ثانيًا. إن المتأمل في الآيات يجدها تحتاط لرسول الله عدة احتياطات:

استُهِلَّت الآيات بالفعل "كادوا" أي قاربوا، ومعلوم أن المقاربة غير الفعل؛ فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له، لكنه لم يحدث، إنهم قاربوا أن يفتنوك عن الذي أنزل إليك لكن لم يحدث؛ لأن محاولتهم كانت من بعيد... كما قالوا مثالًا: نعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة.

ثم إن الآية الثانية لم تقل: "لولا تثبيتنا لك لركنت إليهم"، لا، بل لقاربت أن تركن؛ فمنعت بذلك مجرد المقاربة، أما الركون فهو أمر بعيد وممنوع نهائيًا، وغير متَصَوَّر من رسول الله ﷺ، ومع ذلك أكد سبحانه هذا المعنى بقوله: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ أي: ركونًا قليلًا[3]، ولم يقتصر سبحانه على الوصف بـ "قليلًا"، وإنما أورد قبلها كلمة "شيء" المتوغلة في إبهام جنس ما تضاف إليه أو جنس الموجود مطلقًا، والمفيدة التقليل غالبًا، فكان في ذكر كلمة "شيء" ووصفها بالوصف "قليلًا"؛ تهيئة لتوكيد معنى التقليل[4].

هذا ولا يفوتنا أن نلمح إلى لطيفة مؤداها أن النبي ﷺ معصوم بطبيعته سليم الفطرة، فلو تصورنا عدم التثبيت له من الله، ماذا كان يحدث منه؟ يحدث مجرد "كاد" أو "قرب"؛ أي لم يكن ليحدث منه ﷺ أكثر من أن يقارب شيئًا قليلًا، ومعنى المقاربة: مشروع فِعْل لم يحدث، وفي هذا ما يدلُّ على أن لرسول الله ﷺ ذاتية مستقلة [5] هَيَّأَ لها الله من العصمة أسبابًا متصلة، كلما انقضى سبب قام مقامه آخر حتى تحصل المنعة ويُحفظ مُبَلِّغ الدين ليتحقق حفظ الدين ممثلًا في الذكر المبين الذي قال الله عنه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)؛ فلما كان الذكر محفوظًا اقتضى ذلك حفظ مبلغه وعصمته.

ويحسن في هذا المقام أن نُجمل القول خاصة في الآية الثانية: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (الإسراء) لنقف على مدلول الركون، ونصيب النبي ﷺ منه، والحق أن الكلام في الآية يجوز أن يكون مستقلًا غير متصل بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ (الإسراء: ٧٣)، ويجوز أن يكون تكملة لما قبله فيكون الركون إليهم ركونًا فيما سألوه منه على

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٤، ص٨٦٩١، ٨٦٩٢ بتصرف.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٠، ص٣٠١.

٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٤، ص٨٦٨٨: ٨٦٩٠ بتصرف.

٤. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص١٧٥.

٥. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٤، ص٨٦٩٠.

نحو ما ساقه المفسرون.

ولمزيد من الإيضاح نقول: إن المعنى على الوجه الأول - استقلال الكلام - أن الركون مجمل في أشياء هي مظنة الركون، ولكن الركون مُنْتَفٍ من أصله لأجل التثبيت بالعصمة، كما انتفى أن يفتنه المشركون عن الذي أُوحِيَ إليه بصرف الله إياهم عن تنفيذ فتنتهم.

والمعنى على الوجه الثاني - اتصال الكلام بما قبله - أنه لولا أن عصمناك من الخطأ في الاجتهاد وأريناك أن مصلحة الشدة في الدين والتنويه بأتباعه - ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا - لا تعارضها مصلحة تأليف قلوب المشركين، ولو كان المسلمون راضين بالغضاضة من أنفسهم استمالة للمشركين، فإن إظهار الهوادة في أمر الدين يطمع المشركين في الترقي إلى سؤال ما هو أبعد مدى مما سألوه.

ولما كان الأمر كذلك كانت مصلحة ملازمة موقف الحزم معهم أرجح من مصلحة ملاينتهم وموافقتهم، أي: فلا فائدة من ذلك، ولولا هذا كله ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾، أي: كدت تميل لهم بأن تعدهم بالإجابة إلى بعض ما سألوك استنادًا لدليل مصلحة مرجوحة واضحة، وغفلة عن مصلحة راجحة خفية؛ اعتزازًا بخفة بعض ما سألوا في جانب عِظم ما وعدوا به من إيمانهم[1].

ثم جاءت "إذن" جزاءً لـ "كدت تركن"، ولكونها جزاء فصلت عن العطف؛ إذ لا مقتضى له، فركون النبي ﷺ إليهم غير واقع ولا مقارب الوقوع؛ لأن الآية قد نفته بأربعة أمور؛ وهي:

- لولا الامتناعية.
- فعل المقاربة المقتضي أنه ما كان يقع الركون، ولكن يقع الاقتراب منه.
- التحقير المستفاد من "شيئًا".
- التقليل المستفاد من "قليلًا".

وبالجملة نقول: أي لولا إفهامنا إياك وجه الحق الخُشي أن تقترب من ركون ضعيف قليل، ولكن ذلك لم يقع، ودخلت "قد" في حيز الامتناع فأصبح تحقيقها معدومًا، أي لولا أن ثبتناك لتَحقَّق قُرْبُ ميلك القليل، ولكن ذلك لم يقع لأنا ثبتناك[2].

الخلاصة:

- أورد القرطبي في تفسيره كلامًا للمهدوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ (الإسراء) مؤداه أن ظاهر الخطاب للنبي ﷺ وباطنه إخبار عن ثقيف، والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي كادوا يخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم، فنسب فعلهم إليه ﷺ اتساعًا على سبيل المجاز، كما تقول لرجل: كدت تقتل نفسك، أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت.
- قال القشيري: ما كان منه همٌّ بالركون إليهم؛ بل المعنى: ولولا فضل الله عليك لكان منك الميل إلى موافقتهم، ولكن تمَّ فضل الله عليك فلم تفعل.
- قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصومًا،

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص١٧٤، ١٧٥ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص١٧٥، ١٧٦ بتصرف يسير.

ولكن الآية تعريف للأمة؛ لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه.

- في الآيات الكريمات قرائن عدَّة، من شأنها أن تحتاط لرسول الله ﷺ؛ فقد استُهِلَّت بالفعل "كادوا" الذي يفيد المقاربة، ومعلوم أن المقاربة غير الفعل، فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له، دون أن يحدث.

- لو اعتبرنا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ على سبيل استقلال الكلام - وهذا جائز - لكان المعنى: أن الركون مجمل في أشياء هي مظنة الركون، ولكن الركون منتفٍ من أصله لأجل تثبيت النبي ﷺ بالعصمة، كما انتفى أن يفتنه المشركون عن الذي أُوحي إليه بصرف الله إياهم عن تنفيذ فتنتهم.

- ولو اعتبرنا الآية نفسها على سبيل اتصال الكلام - وهذا جائز أيضًا - لكان المعنى: لولا أنْ عصمناك من الخطأ في الاجتهاد وأريناك أن مصلحة الشدة في الدين لا تعارضها مصلحة تأليف قلوب المشركين، لولا ذلك كله لقد كدت تركن إليهم قليلًا بأن تعدهم بالإجابة إلى بعض ما سألوك؛ استنادًا لدليل مصلحة مرجوحة واضحة، وغفلة عن مصلحة راجحة خفية؛ اغترارًا بخفة بعض ما سألوا في جانب عظم ما وعدوا به من إيمانهم.

- في الآيات قرائن تؤكِّد خلاف ما استدلَّ بها هؤلاء عليه، ومنها: "لولا الامتناعية"، وفعل المقاربة "كدت"، والتحقير المستفاد من "شيئًا"، والتقليل المستفاد من "قليلًا"، وفصل العطف في "إذن" التي هي جزاء لـ "كدت تركن"، ذاك الفصل الذي يشعر أنه لا حاجة للعطف، ويدل على أن ركون النبي ﷺ غير واقع ولا مقارب الوقوع، ثم في الملاطفة - أخيرًا -؛ إذ بدأ الخطاب معه بذكر ثباته وسلامته بموجب العصمة قبل ذكر معاتبته - إن كان ثمة معاتبة.

- لعل في عدم تحقُّق تعذير الله لنبيه: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ (الإسراء) ما يدل على عدم وقوعه ﷺ فيما يستوجبه من مقاربة الوقوع في الفتنة، وإلا لاقتضى حصول الجزاء، وهذا ما لم يحدث.

- بالنظر لجملة القرائن ندرك دخول "قد" في قوله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ (الإسراء) في حيز الامتناع؛ فيصبح تحقيقها معدومًا، والمعنى: لولا أن ثبتناك لتحقَّق قُرب ميلك القليل، ولكن ذلك لم يقع لأنَّا ثبتناك.

الشبهة الثانية عشرة

ادعاء أن القرآن الكريم يثبت وقوع النبي ﷺ في المعصية(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أثبت وقوع

(*) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء القرآن والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق. عصمة الأنبياء عن الزلات والأخطاء، أبو بكر أحمد الباقوري، مرجع سابق. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق. سيد رسل الله ﷺ وأباطيل خصومه، د. عبد الصبور مرزوق، مرجع سابق.

النبي ﷺ في الذنب والمعصية، مما استوجب معاتبة الله تبارك وتعالى له واستغفاره، ثم عفوه بعد ذلك عنه، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ (عبس)، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنفال)، وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٣)، وقوله ﷻ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ (الشرح)، وقوله ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ (النساء). ويتساءلون: كيف يكون الرسول ﷺ معصومًا، والقرآن يثبت له بعض الأفعال التي تخالف عصمته؟

وجها إبطال الشبهة:

١) إن العتاب الذي وُجِّه للنبي ﷺ في الآيات ـ مناط الاستشهاد ـ ليس إلا لاختياره ﷺ الحَسَن مع وجود الأحسن، وسياق الآيات شاهد على ذلك، وهي ـ مع ذلك كله ـ تبين عظيم مكانته وفضله عند ربه في الدنيا والآخرة.

٢) اشتملت آيات العتاب في القرآن الكريم على بعض الحِكَم والأسرار؛ لكي تستفيد منها الأمة في حياتها؛ لأن النبي ﷺ كان أسوة لأمته يجب عليهم اتباعه.

التفصيل:

أولا. التنبيهات الموجَّهة إلى الرسول ﷺ في القرآن، هي مجرد عتاب له لاختياره الحسن مع وجود الأحسن:

معلوم أن الأنبياء أئمة المجتهدين؛ حيث يجتهدون في الأمور التي لم ينزل فيها الوحي، سواء أكانت أحكامًا أم أمورًا شخصية أم أمورًا اجتماعية، وفي معظم الأحوال تتوافق هذه الاجتهادات تمامًا مع المراد الإلهي، وفي أحيان قليلة قد لا تُصيب هذا الهدف تمامًا مع أنهم يتحرّون الرضا الإلهي على الدوام، وقد يُعدُّ بالنسبة لمستواهم الرفيع خطأً؛ لأن عليهم أن يحققوا ما يريده الله بدقة، ولكن خطأهم في الاجتهاد لا يُعدّ ذنبًا أبدًا ولا يُخِلُّ بعصمتهم؛ لذا فلا يُحاسبون عليه[1].

- ونحن إذا تأملنا قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ (عبس) نرى أن هذه الآيات لم تثبت للنبي ﷺ ذنبًا، ولكنها من باب العتاب في اختيار الحسن وترك الأحسن؛ وذلك أن النبي ﷺ كان مشغولًا ذات يوم بدعوة أشراف قريش إلى الإسلام، وإذا بعبد الله بن أم مكتوم يجيء ويسأل الرسول ﷺ عن بعض الأمور الدينية، وكان عبد الله رجلًا أعمى، شرف بهداية الإسلام من قبل، ولم يقدِّر تشاغله ﷺ بدعوة هؤلاء الزعماء، وكان النبي ﷺ حريصًا على هدايتهم كل الحرص، وكان يتألّفهم ويستميلهم إليه طمعًا في أن يسلموا، فلا تلبث جماهير العرب أن تقتدي بهم في إسلامهم، ولكن عن أي شيء جاء هذا الصحابي يسأل؟ إنه مسلم، فطبيعي أنه لن يسأله عن ماهية الإسلام أو كيفية الدخول فيه، بل جاء يستزيده من الهداية والعلم ويقول: "يا رسول الله، علمني مما علمك الله".

وجد الرسول ﷺ نفسه بين قوم غلاظ مشركين يدعوهم إلى الإسلام، ورجل وديع مسلم يستزيده من

١. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٣٠ بتصرف.

العلم، فآثر الإقبال على أولئك الصناديد، وعبس في وجه ابن أم مكتوم هذا وأعرض عنه، ليس استهانة به ولا غضًّا من شأنه، ولكن حرصًا على هداية هؤلاء المشركين، وخوفًا من أن تفوت هذه الفرصة السانحة لدعوتهم، فأنزل الله تعالى على رسوله تلك الآيات السالفة، يعاتبه فيها ذلك العتاب الإرشادي، ويفهِّمه أن حرصه على الهداية ما كان ينبغي أن يصل به إلى حد الإقبال الشديد على هؤلاء الصناديد، وهم عنه معرضون، ولا إلى حد الإعراض العابس في وجه هذا الضعيف الأعمى، وهو عليه مقبل.

وكأني بك تحس معي حرارة هذا العتاب، وذلك لتقرير مبدأ من المبادئ العالية، هو الإعراض عن المعرضين مهما عظم شأنهم، والإقبال على المقبلين مهما رقّ حالهم[1].

فليس ثمة إثبات ذنب للنبي ﷺ في هذه الآيات؛ لأنها إعلام لنا أن ذلك المتصدِّي له ممن لا يتزكى، فالخطاب لنا.

وفِعْل النبي ﷺ لما فَعَل، وتصدّيه لذاك الكافر، كان طاعة لله، وتبليغًا عنه، واستئلافًا له، كما شرعه الله له، لا معصية أو مخالفة له.

وما قصّه الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين، وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله ﷻ: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (عبس).

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج٢، ص٣١٥، ٣١٦ بتصرف يسير. وانظر: القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٦٨٣، ٦٨٤.

ونخلص مما سبق إلى أن ما في الآيات السابقة ليس إلا عتابًا من الحق سبحانه على ما فعله رسول الله ﷺ مما ظهر له صلاحه وترجّح عنده نجاحه، وكان الواقع الذي قدره الله ﷻ بخلاف ذلك، والعتاب لا يقتضي ولا يلزم منه أن يكون بعدَ ذنبٍ أو مخالفة كما هو الجاري بين الناس في معاملاتهم، فقد يعاتب الأخُ أخاه والحبيبُ حبيبه على ترك الأَوْلى، بل على ترك الأكمل[2].

وهذا يدل على عصمته ﷺ من الوقوع في أي ذنب يستوجب اللوم أو الذم. إذن كان فعل النبي ﷺ من العبوس والإعراض، وتصدّيه لذلك الكافر؛ طاعة لله ﷻ وتبليغًا لدعوته كما أمره ربه واستمالة للكافر رجاء إسلامه؛ لأن الله ﷻ أمره بالتبليغ والدعوة ولين الجانب لمن يدعوه، وعليه فلا معصية ولا مخالفة لله ﷻ.

- وإذا انتقلنا إلى قوله ﷻ: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنفال)، فإننا نجد أن الرسول ﷺ لم يكن مذنبًا فيما فعله، وهذا يوضحه العرض الآتي:

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأنفال).

نزلت الآيات وكأنها تحمل تنبيهًا للرسول ﷺ، مفاده أنه لا يجوز أن يكون لنبي أسرى، إذن فما العمل بالنسبة

٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص١٠٣، ١٠٤ بتصرف.

للأسرى؟ ماذا يُفعل بهم؟ يجب ألا يكون للنبي أسرى، حتى يقوي وضعه دون الحاجة إلى معونة من أحد، أي ما كان له إطلاق الأسرى حتى مقابل الفدية؛ لأن هذا سيسرع من تمكين المؤمنين في الأرض ويقوّيهم ويعجِّل وصولهم إلى توازن مع أعدائهم، ويجعل منهم قوة، والرسول ﷺ وأصحابه يهدفون إلى الوصول إلى هذه الغاية أيضًا. إذن هناك اجتهاد، ولكن كان هناك اجتهاد أفضل وأحسن، أي أنكم اجتهدتم وأخذتم الحسن وغاب عنكم الأحسن الذي يريده الله ﷻ منكم، ولولا أنه كُتب في القدر ألا أعاقبكم فيما أخذتم لجاءكم عذاب عظيم، ولكن هذا الكتاب وهذا الحكم موجود منذ الأزل؛ لذا فلن يأتيكم مثل هذا العذاب.

إن الرسول ﷺ عندما قام بردّ المشركين على أعقابهم في معركة بدر نزل النصر بردًا وسلامًا على قلوب المؤمنين، وكأنه أطفأ بذلك حريقًا دام في قلوبهم خمس عشرة سنة؛ لأنه لم يبق هناك ألم لمْ يتجرعوه من هؤلاء الكفار، ولم يبق هناك ظلم لم يصبهم منهم، فقد أخرجوهم من ديارهم وبيوتهم وأهليهم في مكة، تحمّلوا كل هذه الآلام والدموع دون أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد كان ذلك ممنوعًا عليهم حتى وقت قريب، ثم صدر لهم الإذن بالدفاع عن أنفسهم لأنهم ظُلموا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ (الحج). أجل، أصبح المؤمنون مخوّلين بالدفاع الفعلي عن أنفسهم ومقابلة القوة بالقوة، فكانت معركة بدر أول معركة كبيرة بين المؤمنين والكفار حيث انتصر فيها المسلمون وأسروا عددًا كبيرًا من الكفار.

فماذا يفعلون في هؤلاء الأسرى؟ كانت هذه الحادثة الأولى من نوعها وهذه مسألة لم يكن لها أي حكم إلهي سابق أو أي إيضاح سابق، وهنا قام الرسول ﷺ كعادته دائمًا واستشار أصحابه، فالذي يتقرر في هذه المشورة هو الذي سيعيِّن كيفية التعامل مع الأسرى.

كان الرسول ﷺ يحب إطلاق سراح هؤلاء الأسرى، تمشيًا مع خُلُقه الليِّن وكذلك مع التوجيه الإلهي السابق له؛ لأن القرآن الكريم خاطبه ووجّهه في هذا الاتجاه: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ (الحجر)، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥)؛ حتى أصبح العفو والصفح طبعًا من طبائعه وخلقًا من أخلاقه، وأصبح أي تصرف يخالف هذا غير متوقع منه؛ ذلك لأن القرآن الكريم كان يمدحه ويقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم)، ولكل فرد نصيب معين من الخُلُق، أما هو ﷺ فله الخُلُق الكلي الشامل لكونه في الذروة من التخلُّق بخلق الله تعالى.

كان خلقه وقناعته تميلان نحو العفو على الدوام، ومع ذلك كان يستشير أصحابه في كل شأن، فاستشار أولًا أبا بكر رضي الله عنه، فكان جوابه: "يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فيكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا لنا عضدًا"، ثم توجه رسول الله ﷺ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: "ما ترى يا ابن الخطاب"؟ فأجابه عمر رضي الله عنه: "والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكّنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكِّن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه؛ حتى يعلم الله أنه ليست في

قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم".

وأخيرًا استقر رأي رسول الله ﷺ مع رأى أبي بكر ﷺ منجذبًا إليه من طبيعة حلمه وخلقه الليِّن المتسامح، وطمعًا في أن يهديهم الله ﷻ للإسلام في المستقبل فيكونوا له عضدًا.

ولنستمع إلى بقية الحادثة من عمر بن الخطاب ﷺ، إذ يقول: فَهَوِي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئتُ فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ: "أبكي للذي عَرَضَ عليَّ أصحابُكَ من أخذهم الفداء، لقد عُرِض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة" - شجرة قريبة من النبي ﷺ - وأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال: ٦٩) فأحل الله الغنيمة لهم[1].

إن الله تبارك وتعالى أعطى نبيه الإذن والصلاحية والقابلية للاجتهاد، فقام بهذا الاجتهاد وتوصّل إلى الحسن، ولكن الله تبارك وتعالى كان يريد لأحب مخلوق لديه أن يصل إلى الأحسن والأجمل؛ ولهذا السبب قام بتنبيهه وتذكيره، أي لا يوجد هنا ذنب أو إثم، ثم يجب الانتباه إلى الأسلوب المستعمل في الآيات الكريمة تجاه الرسول ﷺ: ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنفال).

وكلمة "لولا" في اللغة العربية تُستعمل عند "امتناع الشئ لوجود غيره"، إذن يجب الانتباه عند ذلك إلى معنى الآية التي تقول بأن حكمًا صدر منذ الأزل وأنه تبعًا لذلك الحكم ستأخذون الغنيمة وتستفيدون منها.

فكأن الرسول ﷺ اجتهد في هذا الحكم الإلهي من ذلك الوقت، ولكن استباق هذا الحكم آنذاك كان حسنًا، أما انتظار صدور الحكم فكان هو الأحسن[2].

نخلص من كل ما سبق إلى أن الرسول ﷺ لم يكن مذنبًا فيما فعله، وذلك من وجوه متعددة:

١. أن النبي ﷺ عمل بذلك بمقتضى المشاورة التي أمره الله بها في قوله ﷻ: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران).

٢. أنه ﷺ جنح إلى رأي من قال بالفداء، لما فيه من الرحمة والعطف واللين، بمقتضى المقام الذي أقامه الله تعالى فيه، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

٣. أن فعله ﷺ كان موافقًا لما سبق من الكتاب الأول، الذي قضى الله تعالى فيه حِلّ الغنائم له ﷺ خاصة، ولم تحل لأحد قبله، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ (الأنفال: ٦٨) يعني: في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم.

٤. كما أن قبوله ﷺ الفداء، وافق قضاء الله ﷻ

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (٤٦٨٧).

٢. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٧٧: ٨٣ بتصرف.

السابق في الكتاب الأول، كما أنه وافق أيضًا الشرع اللاحق، النازل في الكتاب الحكيم، وهو قوله ﷻ: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال: ٦٩)، فكيف يقال في أمر وافق الكتاب الأول ووافق الشرع النازل بعده: إنه خطأ؟

٥. أن نزول التشريع بإحلال الغنائم، وهو قوله ﷻ: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾، هو إقرار لما فعله رسول الله ﷺ وتصويب لما رآه؛ إذ لو كان فعله خطأ فكيف يقرُّه عليه ويجعله شرعًا باقيًا؟

٦. لو كان موقفه ﷺ مع أسرى بدر خطأ لأمره الله ﷻ أن يردَّ الفداء، وأن يستغفر الله ﷻ من الخطأ الذي وقع فيه، ولكنه ﷻ أقرَّه على ذلك وشرع له الغنيمة فقال ﷻ: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾، فلو كان ما فعله خطأ لما أقره الله ﷻ عليه. ومن ثم فقد كان ﷺ يشيد بهذه النعمة ـ نعمة حِلّ الغنائم لهذه الأمة دون غيرها ـ في جملة من المناقب التي خصَّه الله تعالى بها فيقول: "أُعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد قبلي... وأُحلَّت لي الغنائم، ولم تكن تَحِل لأحد قبلي"[1][2].

"والحقيقة أن التحذير الوارد هنا والدرس المراد تلقينه هو للمسلمين جميعًا، أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فلم يكن له من قبل ـ ولن يكون له من بعد ـ أي ميل للدنيا، فهذا التحذير موجه للمسلمين في شخص الرسول ﷺ لكي يعتبروا من جهة، ولا تُمس كرامتهم من جهة أخرى، وهنا يتبين مدى الحساسية التي تبديها التربية الإلهية عند توجيه خطابها للمستمع"[3].

● أما قول الله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٣٤)، فإن المرء عندما ينظر إليه يتخيل وكأن هناك ذنبًا تمَّ اقترافه، ولكن الأمر بخلاف ذلك، فالآية تفيد تكريم النبي ﷺ وتعظيمه وبيان عظيم فضله ومكانته عند الله ﷻ بأعظم ما يكون البيان؛ خلافًا لمن وهم ففهم منها عتابه أو تأنيبه؛ لأن النبي ﷺ لم يخالف أمرًا ولا نهيًا، يستوجب ما فهمه ذلك الواهم.

فرسول الله ﷺ لما عزم على الخروج إلى تبوك استأذنه بعض المنافقين في التخلُّف لأعذار أبدوها، فأذن لهم فيه لسببين:

- أن الله ﷻ لم ينزل حكمًا في ذلك بأمر ولا نهي.
- أنه ﷺ لم يرد أن يجبرهم على الخروج معه، فقد يكون في خروجهم على غير إرادتهم ضرر؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية ليبين له أن ترك الإذن لهم كان أولى، لما يترتب عليه من انكشاف الصادق من الكاذب فيما أبدوه من الأعذار، واستفتح رب العزة ما أنزله بجملة دعائية هي قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٤٣) على عادة العرب في استفتاح كلامهم بهذه الجملة أو بقولهم: غفر الله لك، أو جعلت فداك، أو نحوها، يقصدون تكريم المخاطب إذا كان عظيم القدر، ولا يقصدون المعنى الوصفي للجملة.

ولو بدأ رب العزة حبيبه ومصطفاه بقوله ﷻ: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٤٣)، لخيف عليه من هيبة هذا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب المساجد، باب قول النبي: "جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا" (٤٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد (١١٩١)، واللفظ له.

٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص١١١: ١١٣ بتصرف.

٣. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٨٤.

الكلام، لكنه ﷻ برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في عذره من الكاذب؟ وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب.

وبعض المتوهمين يعتقدون أن هذه الآية تدل على أنه وقع من الرسول ﷺ ذنب، ولكن هذا قول من يجهل لغة العرب في استفتاح كلامهم بهذه الجملة ونحوها، يقصدون بها تكريم المخاطَب، إذا كان عظيم القدر، تحاشيًا منهم عن جعل الاستفهام أول كلام للمعظَّم.

وليس قوله "عفا" هنا في الآية بمعنى "غفر"، أي: ستر وترك المؤاخذة، بل بمعنى: لم يلزمك شيئًا في الإذن، كما قال ﷺ: "إني قد عفوت عنك عن صدقة الخيل والرقيق، ولكن هاتوا ربع العشر، من كل أربعين درهمًا، درهمًا"[1].

ولم تجب عليهم زكاة في خيل ورقيق قط، أي: لم يلزمكم ذلك، فليس معناه: إسقاط ما كان واجبًا، ولا ترك عقوبة هنا[2].

وصفوة القول أن يقال: إما أن يكون صدر عن رسول الله ﷺ ذنب أو لا؛ فإن قلنا: لا! امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله ﷻ: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إنكارًا عليه، وإن قلنا: إنه صدر عنه - حاشا لله - فقوله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ يدل على حصول العفو، وحصول العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه.

فثبت على التقديرين المذكورين، أن قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ ليس فيه ما يدل على كون رسول الله ﷺ مذنبًا، وهذا جواب شاف كاف قاطع.

- أما قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ (الشرح)، فمن تفكّر في سياق الآية يجد أنها تُظهر مِنَّة الله على نبيه ﷺ وتبين عظيم مكانته وفضله عند ربه ﷻ في الدنيا والآخرة، مما يؤكد أن ظاهر ما يطعن في عصمته غير مراد، وإنما هو في الحقيقة من جملة ما يمدح به ﷺ.

والمتأمل في الآية يجدها قد وردت بين مِنَّتين من منن الله على رسوله:

الأولى: شرح الصدر في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ (الشرح) شرحًا حسيًّا ومعنويًّا؛ ليسع مناجاة الحق، ودعوة الخلق جميعًا، وليكون موضع التجليات، ومهبط الرحمات.

الثاني: رفع ذكره ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ (الشرح) رفعًا بلغت قمته في الشهادة التي لا يكون الشخص مسلمًا إلا إذا نطق بها، فضلًا عن قرن اسمه ﷺ باسم الله ﷻ في الأذان والإقامة، والتشهُّد في الصلاة، وفي خطب الجمعة، والعيدين وفي خطبة النكاح، وجعل الصلاة والتسليم عليه ﷺ للمسلمين.

ومن ثم فلا يحق لمشكك أن يقول: إن الوزر هنا في الآية بمعنى الذنب، بل الصواب أن الوزر في الآية معناه ثقل الوحي وأعباء الرسالة، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ (المزمل)، حيث كان الاهتمام بهما يقضّ مضجعه، حتى سهّلهما الله تعالى

---

1. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب (١٢٣٢)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزكاة، باب زكاة الورق والذهب (١٧٩٠)، وحسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٤٤٧).
2. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص١٦٨: ١٧١ بتصرف.

عليه ويسرهما له.

والمعنى: أن الله تعالى أزال عنه كل ما كان يتحرَّج منه من عادات أهل الجاهلية، التي لا تلائم ما فطر الله عليه نفسه من الزكاء والسمو، ولا يجد بدًّا من مسايرتهم عليه، فوضع ذلك حين أوحى إليه بالرسالة، وكذلك ما كان يجده في أول بعثته من ثقل الوحي فيسَّره الله عليه بقوله ﷻ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ (الأعلى) إلى قوله ﷻ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ (الأعلى).

والآية تشير إلى أحوال كان النبي ﷺ في حرج منها، أو من شأنها أن توقعه في حرج، وأن الله كشف عنه ما به من حرج منها، أو هيَّأ نفسه لعدم النوء بها.

وكان النبي ﷺ يعلمها، كما أشعر به إجمالها في الاستفهام التقريري المقتضي علم المقرَّر بما قُرِّر عليه، فلعلها ما عليه أهل الجاهلية من نبذ توحيد الله ومن مساوئ الأعمال، وكان في حرج من كونه بينهم، ولا يستطيع صرفهم عما هم فيه، ولم يكن يترقب طريقها؛ لكي يهديهم، أو لم يصل إلى معرفة كنْه الحق الذي يجب أن يكون قومه عليه، ولم يطمع إلا في خويصة نفسه يودّ أن يجد لنفسه قبس نور يضيء له سبيل الحق، مما كان باعثًا له على التفكر والخلوة والالتجاء إلى الله، فكان يتحنَّث (يتعبَّد) في غار حراء، فلما انتشله الله من تلك الوحلة بما أكرمه به من الوحي، كان ذلك شرحًا لما كان يضيق به صدره يومئذ، فانجلى له النور، وأُمر بإنقاذ قومه، وقد يظنهم طلاب حق وأزكياء نفوس، فلما قابلوا إرشاده بالإعراض وملاطفته لهم بالامتعاض، حدث في صدره ضيق آخر أشار إلى مثله قوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ (الشعراء)، وذلك الذي لم يزل ينزل عليه في شأنه رَبْطُ جأشه بنحو قوله ﷻ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (البقرة: ٢٧٢)، فكلما نزل عليه وحي من هذا أكسبه شرحًا لصدره.

وكان لحماية أبي طالب إياه، وصدّه قريشًا عن أذاه، منفس عنه، وأقوى مؤيّد له ولدعوته، ينشرح له صدره، وكلما آمن أحد من الناس تزحزح بعض الضيق عن صدره.

وكانت شدة قريش على المؤمنين يضيق لها صدره، فكلما خلص بعض المؤمنين من أذى قريش بنحو عتق الصِّدِّيق بلالًا وغيره ينشرح صدره به، وبما بشّره الله من عاقبة النصر له وللمؤمنين تصريحًا وتعريضًا نحو قوله في السورة قبلها: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ (الضحى)، فذلك من الشرح المراد هنا.

وجماع القول في ذلك أن تجليات هذا الشرح عديدة وأنها سر بين الله ﷻ وبين رسوله ﷺ المخاطَب بهذه الآية.

وأما وضع الوزر عنه فحاصل بأمرين: بهدايته إلى الحق الذي أزال حيرته بالتفكر في حال قومه، وهو ما أشار إليه قوله ﷻ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ (الضحى)، وبكفايته مؤنة كُلف عيشه، التي قد تشغله عما هو فيه من الأنس بالفكرة في صلاح نفسه، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ (الضحى)[1].

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ١٥، ج٣٠، ص٤١٠: ٤١٢ بتصرف يسير.

نخلص مما سبق إلى أن الرسول ﷺ حُفظ من الذنوب قبل النبوة، وعُصم منها بعدها، فلا تقع منه، ووضْعُ الوزر عن الرسول ﷺ كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس.

- أما أمر الرسول ﷺ بالاستغفار في الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ (النساء) فلا يستلزم وقوع الذنب من الرسول ﷺ، يتبين هذا من سَوْق سبب نزول هذه الآية والتي قبلها، وذلك على التفصيل الآتي:

رُوي عن قتادة قال: ابتاع عمي - رفاعة بن رافع - جملًا من الدَّرْمَك[1] فجعله في مَشرَبة[2] وفي المَشْربة سلاح له - درعان وسيفاهما وما يصلحهما - فعُدي عليه من تحت الليل فنُقّبت المشربة، وأُخذ الطعام والسلاح.. قال: فتحسَّسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا نارًا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم.

فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، قال قتادة: فأتيت رسول الله فقلت: يا رسول الله، إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي - رفاعة بن زيد - فنقَّبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: "سأنظر في ذلك"، فلما سمع ذلك بنو أبيرق أتوا رجلًا منهم يُقال له: أسير بن عروة، فكلموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بيِّنة ولا ثَبَت[3]؟ قال قتادة: فأتيت رسول الله فكلمته فقال: "عمدت إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال لي: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء: ١٠٥)[4].

ويلاحظ من هذا: أن النبي ﷺ لم يحكم في هذه القضية قبل نزول الآيات بشيء وإنما توقف، وأن الذي حصل منه ﷺ هو حسن الظن ببني أبيرق، لإسلامهم، وعدم قيام دليل قوي، ولا بينة على سرقتهم، والغالب على المسلمين في ذلك العهد الصدق والأمانة، والغرض من النهي في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء)، هو: ألَّا يحسن الظن بقوم لمجرد أنهم مسلمون، وألَّا يساعد من يظن أنه صاحب الحق، بل يسوِّي بين الخصمين في كل شيء حتى تظهر براءة أحدهما وخيانة الآخر.

ويكون أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بالاستغفار من

---

١. الدَّرْمَك: الدقيق الأبيض.

٢. المَشْرَبة: الغرفة.

٣. الثَّبَت: الحُجة.

٤. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة النساء (٣٠٣٦)، والطبراني في معجمه الكبير، باب القاف، قتادة بن النعمان الأنصاري بدري يكنى أبا عثمان ويقال أبو عمر (١٥)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٠٣٦).

ذلك؛ لأنه أحسن الظن بقوم لأنهم مسلمون، ومال قلبه ـ بعد شهادة الشهود لصالحهم ـ إلى براءتهم.

هذه هي المحامل التي ينبغي أن تحمل عليها الآيات السابقة، وبها يتأكد أن الرسول ﷺ لم يقع منه ذنب، وغيره من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مثله[1].

وعلى هذا نستطيع أن نفهم كل الآيات الواردة في عتاب الأنبياء جميعهم وليس سيدنا محمد ﷺ فقط، على النحو الآتي:

١. أن عتاب الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الوارد في القرآن الكريم، هو في الظاهر عتاب، وفي الحقيقة كرامة وقربة إلى الله ﷻ، وتنبيه لغيرهم ممن ليس في درجتهم من البشر، بمؤاخذتهم بذلك، فيستشعرون الحذر، ويلتزمون الشكر على النعم، والصبر على المحن، والتوبة عند الزلة.

٢. أن الله تعالى يعتب على أنبيائه وأصفيائه ويؤدِّبهم، ويطالبهم بالنقير والقطمير من غير أن يلحقهم في ذلك نقص من كمالهم، ولا غض من أقدارهم، حتى يتمحضوا للعبودية لله ﷻ.

٣. أن غاية أقوال الأنبياء وأفعالهم، التي وقع فيها العتاب من الله ﷻ لمن عاتبه منهم ـ أن تكون على فعل مباح، كان غيره من المباحات أولى منه في حق مناصبهم السنية.

٤. المباحات جائز وقوعها من الأنبياء، وليس فيها قدح في عصمتهم ومنزلتهم، فهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات، مما يتقوّوْن به على صلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أُخذ على هذه السبيل أصبح طاعة، وصار قربة.

٥. أنه ليس كل من أتى ما يلام عليه يقع لومه، فاللوم قد يكون عتابًا، وقد يكون ذمًّا، فإن صح وقوع لومه، كان من الله عتابًا له لا ذمًّا؛ إذ المعاتب محبور (مسرور) والمذموم مدحور[2]، ومن هنا يتبين الفرق بين اللوم والذم، قال الشاعر:

إذا ذَهَبَ العِتَابُ فليسَ وُدٌّ

ويَبْقَى الوُدُّ ما بَقِي العِتابُ

٦. أن العتاب إنما كان على ما حَكَم فيه رسول الله ﷺ بالاجتهاد، والاجتهاد محتمل الخطأ، فكان تصحيح الخطأ في اجتهاده من الله ﷻ، بتوجيهه ﷺ إلى الأخذ بالصواب فعاد الحكم بذلك إلى الوحي.

٧. عدم ورود نَهْي عما عوتب فيه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حتى يكون عتابهم ثَمَّ ذمًّا[3].

نخلص مما سبق كله إلى أن التنبيهات التي خُوطب النبي ﷺ بها لم تكن نتيجة اقتراف خطأ أو ذنب، ولكنها من قبيل اختيار الحَسن مع وجود الأحسن، وهذا يشبه قيامنا بشرب ماء نقي مع وجود ماء نبع أكثر نقاءً وصفاءً؛ لذا فلا يجوز أبدًا تناول الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بمقاييسنا الدنيوية، وإطلاق الأحكام بحقهم من هذه الزاوية، هؤلاء الذين دُعوا للقَصْر وشُرفوا بالمثول في حضور السلطان، كيف يمكن مساواتهم مع الذين بقوا

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٨٠: ٤٨٢.

٢. المدحور: المطرود.

٣. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص١٦٨.

خارج القصر، ولم يستطيعوا حتى الاقتراب من الباب الخارجي لحديقته؟ وكيف يمكن وزنهم بالميزان نفسه؟ تبسُّم الموجودين خارج القصر يُعد صدقة، ولكن تبسُّم الماثلين في الحضور السلطاني قد يُعد إساءة.. الموازين مختلفة تمامًا.. لذا يجب تقييم التنبيهات الواردة في القرآن الكريم للنبي ﷺ من هذه الزاوية[1] ®.

ثانيًا. اشتملت آيات العتاب في القرآن الكريم على بعض الحكم والأسرار التي تستفيد منها الأمة في حياتها:

إن الناظر في آيات العتاب التي عاتب فيها الله ﷻ النبي ﷺ أو غيره من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يجد أنها تشتمل على حكم وأسرار تستفيد منها الأمة في حياتها، منها:

١. أن يجتهد الرسول ﷺ قدر استطاعته فيما لم ينزل فيه نص، حتى يقلِّده الخلق في الاجتهاد، فالمجتهد قد يخطئ أو يصيب، وإذا أخطأ فله أجر، وإذا أصاب فله أجران، ولا ريب أن رسول الله ﷺ كان في موضع الإمامة الكبرى للخلق، فكان من حكمة الله أن يجتهد ليقلِّده الخلق في الاجتهاد، ولبيان مشروعية الاجتهاد فيما ليس فيه نص، وأن يخطئ في بعض الأمور، لئلا يصرفهم خوف الخطأ في الاجتهاد عنه، ما دام أفضل الخلق على الإطلاق قد أخطأ، ومع خطئه لم يمتنع عن الاجتهاد، بل عاش طوال حياته يجتهد في كل ما لم ينزل عليه فيه وحي، حتى يتقرر في الناس مبدأ الانتفاع بمواهب العقول وثمار القرائح.

٢. وكذلك من الحِكم والأسرار في أخطاء الرسول الاجتهادية أمر له قيمته وخطره، وهو إقامة أدلة ناطقة على بشرية الرسول وعبوديته، وأنه وهو أفضل خلق الله، لم يخرج عن أن يكون عبدًا من عبيد الله، يصيبه من أعراض العبودية ما يصيب العباد، ومن ذلك خطؤه في الاجتهاد، ولكن الله لا يقره على الخطأ أبدًا.

٣. كذلك من الحكم والأسرار في ذلك العتاب، أنه دليل ناصع على عصمته وأمانته، وعلى صدقه في كل ما بلغ عن ربه، وعلى أن القرآن ليس من تأليفه ووضعه، ولكنه تنزيل العزيز الحكيم[2].

الخلاصة:

- إن الله تعالى قد جعل عصمة الأنبياء جميعهم سنة من سنن الحياة؛ لأنهم قدوة الناس وأسوتهم، وخلفاء الله في أرضه، ولكي يتم هذا الاتباع والاقتداء لا بد أن يكون الأنبياء معصومين، ثم إن عصمة النبي ﷺ معروفة لنا من دراسة السيرة، وذلك منذ

---

١. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٧٦ بتصرف يسير.

® في **"الحكمة من بعض الأوامر والنواهي للنبي ﷺ في القرآن"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء. وفي **"أحكام الأسرى في الإسلام"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة والعشرين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده). وفي **"عصمة النبي ﷺ من الذنوب ودلائلها"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء. وفي **"إرساء النبي ﷺ لمبدأ الشورى"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). وفي **"حقيقة إعراض النبي ﷺ عن ابن أم مكتوم"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السادسة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). وفي **"أخذ النبي ﷺ الفداء من العباس وسائر بني هاشم"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ).

٢. مناهل العرفان، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص٣١١: ٣١٣ بتصرف.

طفولته وإلى نهاية حياته وملاقاته ربه ﷻ.

- إن عتاب الله للنبي ﷺ الذي ورد في بعض الآيات، لم يكن بسبب أنه ارتكب ذنبًا أو إثمًا يقدح في عصمته ﷺ، إنما لتركه لما هو أَوْلى في علم الله المغيَّب عنه فيما لا وحي فيه، من الأمور التي لا تنكشف له إلا بوحي... وهي تدل على أنه ﷺ تَرَكَ الأولى والأفضل، وَتَرْكُ الأولى ليس بذنب.

- إن قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ ﴾ (عبس) مجرد عتاب من الله ﷻ لنبيه ﷺ، وليس دليلًا على أنه ﷺ خالف أوامر ربه، أو أنه وقع في الذنب، بل هو عتاب على ترك الأولى، لتقرير مبدأ من المبادئ العالية، وهو الإعراض عن المعرضين مهما عظم شأنهم، والإقبال على المقبلين مهما رقَّ حالهم.

- إن قوله ﷻ: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ ﴾ (الأنفال)، لم يثبت ذنبًا للنبي ﷺ ولكنه كان من قبيل تحليل شيء لأمة النبي ﷺ، وهو تحليل الغنائم التي لم تحل لنبي قبل نبينا ﷺ.

- إن من يتدبر قول الله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ (التوبة) يجد أن هذا العتاب كان في أمر لم ينزل فيه وحي، بل هو اجتهاد من النبي ﷺ، وهو دليل على مدى حب الله له؛ لأن العتاب لا يأتي إلا من الحبيب لحبيبه، ففي الآية الكريمة من معاني التكريم والتعظيم ما لا يخفى، وليس فيها نسبة الذنب له ﷺ.

- إن الوزر في قول الله تعالى: ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ﴾ (الشرح) ليس المقصود به هنا: الذنب - كما يظنون - ولكن المقصود به هنا: أثقال الجاهلية، أو أعباء الرسالة، حيث سَهّلها الله عليه.

- إن أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالاستغفار في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ ﴾ (النساء)، لا يستلزم وقوع الذنب منه ﷺ، بل هو مجرد تنبيه للنبي ﷺ كي لا يحسن الظن بقوم لمجرد كونهم مسلمين، وحسن الظن في ذاته لا يعد ذنبًا.

- إن هذا العتاب من الله ﷻ لرسوله ﷺ - ولغيره من الرسل - تعليم للأمة من بعده أن الله ﷻ لا يحابي أحدًا من خلقه، وهو دليل على عصمته ﷺ وأمانته في تبليغ الوحي، ودليل كذلك على بشريته ﷺ.

الشبهة الثالثة عشرة

ادعاء أن في القرآن من الأوامر والنواهي للنبي ﷺ ما ينفي عصمته(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أن أمر الله لنبيه ﷺ بالتقوى، ونهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين والمكذبين، وكذلك نهيه عن التكذيب بآيات الله، وتحذيره من الشرك - كل ذلك يتنافى مع عصمته ﷺ. ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ (الأحزاب: ١)، وبقوله: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ ﴾ (القلم)، وبقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ

(*) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء القرآن والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق.

كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (يونس)، ويقول ﷻ: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الزمر). هادفين من ذلك إلى تجريد النبي ﷺ من العصمة التي أثبتها له القرآن الكريم.

وجها إبطال الشبهة:

١) كان رسول الله ﷺ أتقى خلق الله وأخشاهم له، وفي آيات القرآن الكريم من جهة، وفي سنته القولية والفعلية من جهة أخرى، ما يؤكد تلك الحقيقة.

٢) ذكر المفسرون التوجيهات التي تبين مقصود الله ﷻ من الآيات - مناط الاستدلال، ويمكننا أن نجمل تلك التوجيهات في الآتي:

- أن الله ﷻ أمر النبي ﷺ ببعض الأوامر التي يستحيل أن يتركها النبي، ونهاه عن بعض النواهي التي يستحيل أن يفعلها؛ تمييزًا له ﷺ عن غيره من البشر.
- أن الأوامر والنواهي الواردة في هذه الآيات لا تقتضي الوقوع أو جواز الوقوع؛ لأنها مبنية على شرط مستحيل التحقق.
- أن الخطاب في هذه الآيات موجه للنبي ﷺ في الظاهر، ولكنه على الحقيقة موجه إلى جملة أصحابه، وعامة المسلمين.

التفصيل:

أولا. كان رسول الله ﷺ أتقى خلق الله وأخشاهم له، بشهادة القرآن والسنة:

في مقام الحديث عن عبادة النبي ﷺ وخوفه الشديد من الله ﷻ، يحسن أن نصدر الكلام بما أورده د. وهبة الزحيلي من الأدلة التي تؤكد تقوى النبي ﷺ، يقول فضيلته: كان الرسول ﷺ أشد الناس خوفًا من ربه، وأكثرهم عبادة، وألزمهم طاعة لله ﷻ وذلك على قدر علمه بربه، وامتثالًا لأمر الله ﷻ في آيات كثيرة، منها قوله ﷻ: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الحجر)، وقوله ﷻ: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ (الشرح)، أي: فإذا انتهيت أيها الرسول من أداء الرسالة وتبليغ الناس بها، فاتعب في الدعاء والعبادة، وإلى ربك وحده توجه بالدعاء والتضرع، ولا توجِّه رغبتك إلى غير ربك، فهو القادر المجيب.

- عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة ﷺ كان يقول: قال رسول الله ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا"[1]، وزاد الترمذي رفعه إلى أبي ذر ﷺ: "إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّتِ[2] السماءُ، وحُقَّ لها أن تئِط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون[3] إلى الله"[4].
- عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ صلَّى حتى

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا" (٦١٢٠).
٢. أَطَّت السماء: أَنَّت وأصدرت صوتًا من كثرة ازدحام الملائكة.
٣. تجأرون: تتضرَّعون وتستغيثون.
٤. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبي بن كعب ﷺ (٢١٥٥٥)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا" (٢٣١٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترغيب (٣٣٨٠).

انتفخت قدماه[1]؛ أي من كثرة صلاة الليل، فأنزل الله عليه من القرآن ما خفَّف به عليه وعلى من تبعه، وهو قوله ﷻ: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾ (المزمل)، وكذا قوله ﷻ: ﴿ طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ (٢) ﴾ (طه).

- وفي رواية أخرى أن المغيرة بن شعبة ؓ قال: إن كان النبي ﷺ ليقوم ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه، فيقال له فيقول: "أفلا أكون عبدًا شكورًا"[2].

- ورُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "كان عمل رسول الله ﷺ دِيمة[3]، وأيكم يطيق ما كان يطيق"؟[4] أي: لِـمَا كان له من قوة النبوة.

- وعن عائشة أيضًا قالت: "كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يُفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم"[5]. والمعنى: حتى نظن خلاف ذلك، وبنحو ذلك قال أنس: "كنتَ لا تشاء إلا أن تراه في الليل مصليًا إلا رأيته مصليًا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا"[6]. أي: أنه ﷺ يصلي وينام، ويصوم ويفطر، وكل ذلك باعتدال وتوسط.

- وقال عوف بن مالك: "كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك[7]، ثم توضأ، ثم قام فصلى، فقمت معه، فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوَّذ، ثم ركع، فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة، ثم سجد، وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورةً سورةً، يفعل مثل ذلك". أي: من تطويل الركوع والسجود والتسبيح المذكور[8].

- وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة"، أي: صلَّى في ليلة بتلاوة آية، وهي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ

---

1. أخرجه مسلم في صحيحه، صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٧٣٠٢).
2. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه (١٠٧٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد (٧٣٠٣)، واللفظ للبخاري.
3. الدِّيمة: المتواصل.
4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يخص شيئًا من الأيام (١٨٨٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العلم الدائم من قيام الليل وغيره (١٨٦٥).
5. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم شعبان (١٨٦٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صيام النبي في غير رمضان واستحباب أن لا يخلي شهرًا عن صوم (٢٧٧٧).
6. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصوم، باب سرد الصوم (٧٦٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧٦٩).
7. استاكَ: نظَّف أسنانه وفمه بالسواك.
8. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث عوف بن مالك الأشجعي الأنصاري ؓ (٢٤٠٢٦)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (١٠٤٩).

﴿لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ (المائدة)[1] اقتداء بعيسى عليه السلام في الكلام وإيماء إلى أنه ﷺ يريد المغفرة والرحمة ورفع العقوبة عن جميع أمة الإجابة، مع التسليم للإرادة الإلهية.

- وعن عبد الله بن الشخير قال: "رأيت رسول الله ﷺ يُصلِّي وفي صدره أَزِيز[2] كأزيز الرَّحَى[3] من البكاء"[4].

- وعن النبي ﷺ أنه قال: "إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"[5][6]، وإذا نحن تجاوزنا مقام العبودية والخشية اللتين شهد له ﷺ بهما القرآن والواقع على حد سواء ـ وجدنا الأمر نفسه فيما يتعلق بامتثاله شرع الله تعالى على النحو الذي يرضاه سبحانه مخالفًا بذلك أهل الكفر وأهواءهم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ (يونس).

فهذه الآية وإن كانت أمرًا من الله عز وجل أن يقول ذلك، فهي أيضًا تقرير لحقيقة حاله ﷺ ووصف له في المعنى بتلك الصفة الإيمانية العليا، وفي الآية أيضًا شهادة له ﷺ بأنه ما أطاع أهل الكفر في أهوائهم، وقد كان أنبياء الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كلهم بمحل من الخشية والخوف من الله تعالى، كما وصفهم الله جل شأنه بذلك في قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾ (الأحزاب)، وخوفهم ليس خوف معصية وإساءة، وإنما هو خوف إعظام وتبجيل.

ونبينا محمد ﷺ هو سيد الأنبياء وخاتمهم وأفضلهم، فهو إمامهم في ذلك الخُلُق، وتشمله هذه الآية شمولًا أوليًّا؛ لأنها في صدر الحديث عنه، فهي شهادة قرآنية إلهية له ﷺ بهذا الخلق العظيم[7].

ثانيًا. التفسير الصحيح للآيات المستشهَد بها:

إن توجيهات المفسرين للآيات مناط الاستدلال خير شاهد على بطلان ما ادعوه، ومنها:

١. أن الله عز وجل أمر النبي ﷺ ببعض الأوامر التي يستحيل أن يتركها، ونهاه عن بعض النواهي التي يستحيل أن يفعلها؛ **تمييزًا له ﷺ عن غيره من البشر.**

وقد عرض د. عماد السيد الشربيني لهذه القضية فقال: لله عز وجل أن يؤدِّب أنبياءه وأصفياءه، ويطلبهم بالنقير والقطمير من غير أن يلحقهم في ذلك نقص من كمالهم، ولا غض من أقدارهم، حتى يتمحصوا للعبودية لله عز وجل.

ألا ترى كيف نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن النظر

---

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب أبواب الصلاة، باب قراءة الليل (٤٤٨)، وصححه الألباني في الشمائل (٢٣٣).

٢. الأَزِيز: الصوت من شدة الاضطراب.

٣. الرَّحَى: آلة كان يُطحن بها الشعير والذرة عند العرب.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المدنيين، حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه (١٦٣٦٠)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة (٩٠٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٩٩).

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٧٠٣٣).

٦. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٥٦: ١٥٩.

٧. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص١٥١، ١٥٢.

لبعض المباحات فقال: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الحجر). على الرغم من قوله ﷻ في مقام آخر: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

فتأمل كيف أن الله ﷻ لم يحرم التمتع بالزينة وأكل الطيبات إذا كانت من كسب الحلال، ومع ذلك نهى رسول الله ﷺ عن النظر إلى زينة الحياة الدنيا وهي من المباحات، فكيف يحرم النظر إليها؟! ذلك لأن الله تعالى أخذ الأنبياء بمثاقيل الذر لقربهم عنده وحضورهم، وتجاوز عن العامة أمثال ذلك، فإن الزلة على بساط الآداب، ليست كالذنب على الباب، كما لا يخفى على أولي الألباب، ممن قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وتأمل قوله ﷺ يوم فتح مكة: "إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين"[1]. يعني: الإشارة بالعين في الأوامر حتى يفصح بها، والإشارة بالعين في الأوامر مباحة لغير الأنبياء، لكن نُهي عنها الأنبياء تنزُّهًا وتأكيدًا لرفع الالتباس.

بل إن رب العزة يأمر رسوله ﷺ بما شاء، وإن استحال تركه، نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ١)، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ (الضحى)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (يونس)، وقد كان ﷺ من أتقى وأخشى خلق الله ﷻ لله، وما قهر يتيمًا، وما نهر سائلًا، وإنما كان مثالًا أعلى للبذل والعطاء، ويكفيه ﷺ أن شهد له ربه ﷻ بقوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحاقة)، وهو ما شهدت به سيرته العطرة قبل أن يأتيه وحي الله تعالى وبعده.

فقد وصفته السيدة خديجة - رضي الله عنها - بقولها: "إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتَقرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق"[2]. فهي تصفه بهذه الصفات البالغة عظمة وخطورة، التي كان عليها قبل بعثته ورسالته، ولم يكن قد تحمَّل أعباء أمته، ولا قد أضفت عليه النبوة زيادة كمال وعظمة، فكيف به بعد ذلك كله؟! لا جرم أن كرمه ﷺ بعد ذلك سيكون بالغًا ذُروة الذُّرَى في كرم الأنبياء وسائر البشر، وهو ما دلت عليه الدلائل النقلية الكثيرة، منها ما روي عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: "لا"[3]. وهو يؤكد ما سبق من أن رب العزة يأمر نبيه ﷺ بما شاء، وإن استحال عليه تركه، ومن ثبت لديه دليل يؤكِّد خلاف ذلك فليأتنا به؟!

كما أن رب العزة ينهى رسوله ﷺ عما يشاء، وإن

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد (٤٣٦١)، والحاكم في مستدركه، كتاب المغازي والسرايا (٤٣٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٣).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٥٦٨٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط فقال: "لا" (٦١٥٨).

استحال وقوعه منه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ (المدثر)، أي: لا تعطِ شيئًا لتطلب أكثر منه؛ لأنه طمع لا يليق بك، بل أعط لربك، واقصد به وجهه، وهكذا كان خلقه، ﷺ وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ (الأنعام)، وما طردهم ﷺ من مجلسه، وما كان من الظالمين، أي: ممن ظلمهم بطردهم؛ لأنه لم يقع منه ذلك؛ فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترءون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل، وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ (الأنعام)[1].

وحديث سعد صريح في أن العتاب في الآية وقع على ما حدَّث به النبي ﷺ نفسه، وهذا على فرض التسليم به لا يقدح في عصمته ﷺ؛ لأن همه ﷺ بذلك كان ابتغاء مرضاة الله تعالى، برجاء إسلام قومه، وذلك لا يضر أصحابه رضي الله عنهم لعلمه ﷺ بأحوالهم، ورضاهم بما يرضاه، وإلا فما ورد على لسان سعد من همه ﷺ بالاستجابة لاقتراحهم لا حجة فيه، فقد أخبر حسب ظنه، وأخبر عن أمر لا يعلمه إلا علام الغيوب المطلع على أسرار قلوب خلقه.

ولعل مما يؤكد أن الإخبار عن هذا الهم بحسب ظن الراوي، وأن رسول الله ﷺ ما كان ليطردهم - ما أُنزل عليه ﷺ من قبل آية الأنعام، مما جاء على لسان نوح عليه السلام جوابًا على مثل اقتراح كفار قريش، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾ (هود).

ويؤكد هذا أنه لم يرد في رواية أن رسول الله ﷺ طرد أحدًا من أصحابه في مجلسه، بل الروايات جميعها تدل على أنه بمجرد اقتراح أهل الشرك على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم يومًا يجلسون معه دون الفقراء والعبيد، نزلت الآية جوابًا على اقتراحهم أو سؤالهم، بنهيه ﷺ عن ذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (الأنعام: ٥٢).

وهذه منَّة من الله ﷻ على رسوله ﷺ، حيث أدَّب نبيه ﷺ بأشرف الآداب، وأَجَلِّ الأخلاق، وعاتبه على الشيء - إن كان ثمَّ عتاب - قبل وقوعه؛ ليكون أشد انتهاء عن المخالفة، ومحافظة لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية والرعاية في العصمة[2].

١. أن الأوامر والنواهي الواردة في هذه الآيات لا تقتضي الوقوع أو جواز الوقوع؛ لأنها مبنية على شرط مستحيل التحقق:

فقوله ﷻ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (الزمر: ٦٥)،

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص (٦٣٩٤).

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص١٥٣: ١٥٨ بتصرف يسير.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (يونس: ١٠٦)، وقوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ (الشورى: ٢٤)، وقوله ﷻ: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (المائدة: ٦٧)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(الأنعام: ١١٦)، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾(الزخرف)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الحاقة)، فكل هذا شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع ولا الجواز، إذ لا يصح ولا يجوز على رسول الله ﷺ أن يشرك، ولا أن يدعو من دون الله أحدًا، ولا أن يخالف أمر ربه ﷻ ولا أن يتقوَّل على الله ما لم يقل، أو يفتري على الله شيئًا، أو يضل، أو يختم على قلبه، أو يشك.

على أن استحالة الوقوع أو جوازه في الآيات سالفة الذكر شبيه بقول القائل ـ ولله المثل الأعلى ـ: إن كان العدد (٥) عددًا زوجيًّا لقبل القسمة إلى صحيحيْن جزأين متساويين، أي أن الشرط في الآيات السابقة في حقه ﷺ معلق بمستحيل، فكما لا تنقسم الخمسة إلى صحيحين متساويين، فكذلك الشرط في الآيات السابقة لا يكون منه ﷺ لا وقوعًا ولا جوازًا.

يقول العلامة الطاهر ابن عاشور في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ (الاحزاب:١): والأمر للنبي بتقوى الله توطئة للنهي عن اتباع الكافرين والمنافقين؛ ليحصل من الجملتين قَصْرُ تقواه على التعلُّق بالله دون غيره، فإن معنى ﴿وَلَا تُطِعِ﴾مرادف معنى: لا تتَّق الكافرين والمنافقين، فإن الطاعة تقوى؛ فصار مجموع الجملتين مفيدًا معنى: يا أيها النبي لا تتَّق إلا الله، فعدل عن صيغة القَصْر ـ إلى ذكر جملتي أمر ونهي؛ لقصد النص على أنه قصر إضافي أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين؛ لأنه لو اقتصر على أن يُقال: لا تتق إلا الله، لما أصاخت إليه الأسماع إصاخة خاصة؛ لأن تقوى النبي ﷺ ربه أمر معلوم، فسلك مسلك الإطناب لهذا، كقول السَّمَوْأَل:

تَسِيلُ على حَدِّ الظُّباتِ[1] نُفُوسُنا
وليَسَتْ على غَيرِ الظُّباتِ تَسِيلُ

فجاء بجملتي إثبات السيلان بقَيْدٍ ونفيه في غير ذلك القيد؛ للنص على أنهم لا يكرهون سيلان دمائهم على السيوف، ولكنهم لا تسيل دماؤهم على غير السيوف.

فإن أصل صيغة القصر أنها مختصرة من جملتي إثبات ونفي، ولكون هذه الجملة كتكملة للتي قبلها عطفت عليها لاتحاد الغرض منهما، وقد تعيّن بهذا أن الأمر في قوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ والنهي في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله، فأشعر ذلك أن تشريعًا عظيمًا سيُلقَى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين.

وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأن النبي ﷺ لا يقبل أقوالهم ليَيْأسوا من ذلك؛ لأنهم كانوا يدبرون

1. الظُّبات: جمع ظُبَة، وهي حدُّ السيف والسِّنان والخنجر وما أشبهها.

مع المشركين المكايد، ويُظهرون أنهم ينصحون النبي ﷺ ويلحّون عليه بالطلبات نصحًا وتظاهرًا بالإسلام.

والمراد بالطاعة: العمل على ما يأمر به الغير أو يشير به لأجل إجابة مرغوبة، وماهيتها متفاوتة، ووقوع اسمها في سياق النهي يقتضي النهي عن كل ما تحقق فيه أدنى ماهيتها، مثل أن يعدل عن تزوج مُطلقة متبناه لقول المنافقين: إن محمدًا ينهى عن تزوِّج نساء الأبناء وتزوج زوج ابنه زيد بن حارثة، وهو المعنى الذي جاء فيه قوله ﷻ: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ (الأحزاب: ٣٧) وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ (الأحزاب: ٤٨) عقب قضيّة امرأة زيد، ومثل نقض ما كان للمشركين من جعل الظِّهار[1] موجبًا مصير المظاهَرة أُمًّا للمُظاهِر حرامًا عليه قربانها أبدًا، ولذلك أُردفت الجملة بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الأحزاب: ١) تعليلًا للنهي.

والمعنى: أن الله حقيق بالطاعة له دون الكافرين والمنافقين؛ لأنه عليم حكيم فلا يأمر إلا بما فيه الصلاح، ودخول "إنّ" على الجملة قائم مقام فاء التعليل ومغنٍ غناءها، وشاهده المشهور قول بشار:

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجِيرِ
إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ[2]

ويضيف الشيخ الشعراوي قائلًا: إن الكلام العربي مقسَّم إلى خبر وإنشاء؛ فالخبر هو القول الذي يوصف بالصدق إن طابق الواقع، وبالكذب إن خالفه.

أما الإنشاء فهو مقابل الخبر، وهو: قولٌ لا يوصف بصدق ولا بكذب، كأن تقول لإنسان: قِفْ، فهذا أمر لا يقال لقائله: أنت صادق، ولا كاذب، فقوله ﷻ لنبيه ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هذه نسبة كلامية من الله لرسوله، ليحدث مدلول هذا الأمر، وهو التقوى، لكن أكان رسول الله ﷺ غير تَقِيٍّ حتى يأمره ربه بالتقوى؟!

نقول: ليس بالضرورة أن يكون الرسول ﷺ عصى، فيأمره الله بتقواه، لكن الحق سبحانه ينشئ مع رسوله كلامًا بداية دون سابقة عصيان، أو: أنه الأمر الأول بالتقوى كما تقول لولدك في بداية الدراسة: اجتهد وذاكر دروسك، وأنت تعرف أنه مجتهد، لكن لا بد من تقرير المبدأ في بداية الأمر.. فمعنى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: ١)، أي: واصل تقواك حالًا، كما فعلتها سابقًا، وواصلها مستقبلًا، فلا تنقطع عنها أبدًا[3].

٢. أن الخطاب في هذه الآيات مُوَجَّه للنبي ﷺ في الظاهر، ولكنه على الحقيقة موجَّه إلى من دونه من المسلمين:

معلوم أنه ﷺ معصوم من مخالفة الأوامر، وارتكاب النواهي الواردة في الآيات، ومستحيل عليه فعلها؛ لعصمة الله ﷻ له، وإنما هذا إفهام لغيره من المسلمين، أن الرسول ﷺ وهو رسول رب العالمين، ذو المنزلة الرفيعة، والمقام الأسمى عند الله ﷻ إن افْتُرِضَ وقوع ذلك منه، فإن الله تعالى يجازيه على ما فرَّط، فكيف إذا فعل ذلك أحد من المؤمنين؟! لا شك أنه سيلقى عقابه

١. الظِّهار: أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظَهْر أمِّي، يريد أنها تَحْرُم عليه.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٠، ج٢١، ص٢٥٠، ٢٥١ بتصرف يسير.

٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٩، ص١١٨٨٧، ١١٨٨٨ بتصرف يسير.

من باب أولى، وذلك أيضًا إيضاح لقدرة الله ﷻ وأنه عَدْل، ولا يحابي أحدًا من خلقه فليس أحد من الناس بمأمن من عذابه تعالى حتى ولو كان نبيًّا، وهنا يفهم المؤمنون عامة هذه الحقائق، فيرتدعون عن المعاصي والذنوب والآثام، خوفًا منه تعالى وخشية، ما دام سبحانه لا يستثني أحدًا من عذابه إن أشرك، حتى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولكنهم لا يشركون لعصمة الله ﷻ لهم، ومن ظن أنّ الله تعالى يمكن أن يُقدِّر على الأنبياء وعلى خاتمهم ﷺ ارتكاب الكبائر من الكفر والشرك والشك أو نحو ذلك، فقد ظن السوء بربه[1]. تعالى الله عما يقول الكافرون علوًّا كبيرًا®.

الخلاصة:

- تشهد آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ أنه كان أتقى الناس لله ﷻ وأخشاهم له في كل أفعاله وأقواله، ولا يستقيم لعاقل بعد تلك الشهادة أن يطعن في تقواه لله وخشيته إياه، ولا أن يشكك في عصمته التي أثبتها القرآن نفسه في حقه ﷺ.
- جميع التفسيرات التي ذكرها المفسرون للآيات - مناط الاستدلال - تؤكد عدم صِحَّة ما ذهبوا إليه، وكان من بين هذه التفسيرات:

o أن الله تعالى أمر النبي ﷺ ببعض الأوامر التي يستحيل أن يتركها النبي، ونهاه عن بعض النواهي التي يستحيل أن يفعلها، وكان ذلك تمييزًا من الله للنبي ﷺ عن سائر الناس، ولله أن يؤدِّب نبيه بأشرف الآداب، وأجل الأخلاق، وأن يعاتبه على الشيء قبل وقوعه، وهذه غاية العناية والعصمة.

o أن الأوامر والنواهي التي جاءت في هذه الآيات لا تقتضي الوقوع أو جواز الوقوع؛ لأنها تعتمد على شرط مستحيل التحقق.

o أن الخطاب في هذه الآيات موَجَّه للنبي ﷺ في الظاهر، ولمن دونه من المسلمين في الحقيقة؛ إنذارًا لهم وتهذيبًا، وليعلم الناس أن الله عدل، لا يحابي من فرط في جنبه حتى لو كان نبيًّا، فما بال من دونه؟!!

الشبهة الرابعة عشرة

ادعاء أن خطأ النبي ﷺ في بعض اجتهاداته يتنافى مع عصمته (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن خطأ النبي ﷺ في بعض اجتهاداته يتنافى مع عصمته، ويستدلون على ذلك: بما كان منه ﷺ حين مرَّ بقوم يُلقِّحون النَّخل، فقال: "لو لم تفعلوا لصلح، فخرج شِيْصًا"[2]. ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في اجتهاداته ﷺ؛ بغية التشكيك في عصمته ﷺ.

---

1. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص١٥٨، ١٥٩.

® في "أمر الله للنبي ﷺ بالاستغفار لا يعني وقوعه في الذنب" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء.

(*) حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، وجرونباوم، ترجمة: عبد العزيز جاويد، وعبد الحميد العبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤م. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق.

2. الشِّيص: التمر الذي لم ينضُج.

وجه إبطال الشبهة:

معلوم أن الأنبياء - عليهم السلام - هم أئمة المجتهدين، بما يناط بهم من اجتهاد في غير أمور التشريع وفيما لم ينزل فيه نص، وليس من شك في أنهم يتحرّون تحقيق الرضا الإلهي، إلا أنهم قد يخطئون، ولا يخلُّ خطؤهم بعصمتهم؛ إذ لا يُعدُّ ذنبًا أصلًا، وحديث تأبير النخل من هذا القبيل.

التفصيل:

الأنبياء - عليهم السلام - قد يخطئون فيما قالوه مجتهدين، ولكنَّ خطأهم في الاجتهاد لا يُخِلُّ بعصمتهم؛ إذ لا يُعدُّ ذنبًا أصلًا:

إن اجتهادات الرسول ﷺ فيما لا وحي فيه، والتي هي ثمرةٌ لإعماله عقله وقُدْراته الفكرية، وملكاته البشرية من الممكن ألَّا تُصادف الصواب، ومن هنا كان الصحابةُ - رضوان الله عليهم - في كثير من المواطن، وبإزاء كثير من مواقف وقرارات وآراء واجتهادات للرسول ﷺ يسألونه - قبل الإدلاء بمساهماتهم في الرأي - هذا السؤال الذي شاع في السنة والسيرة: "يا رسول الله، أهو الوحيُ؟ أم الرأي والمشورة"؟ فإن قال: إنه الوحي، كان منهم السمع والطاعة، وإن قال: إنه الرأي والمشورة، فإنهم يجتهدون، ويشيرون، ويصوِّبون[1].

وحديث تأبير النخل الذي جاء عن طلحة بن عبيد الله قال: مررت مع رسول الله بقوم على رءوس النخل فقال: "ما يصنعُ هؤلاء"؟ فقلت: يُلَقِّحونه، فقال: قال رسول الله ﷺ: "ما أظن يغني ذلك شيئًا"، قال: فأُخبروا، فتركوه، فأُخبر رسول الله بذلك، فقال: "إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله"[2].

وعن رافع بن خديج قال: قَدِم رسول الله المدينة وهم يُأَبِّرون النخل فقال: "لعلَّكُم لو لم تصنعوا كان خيرًا"، فتركوه فنفضت[3]، فذكروا ذلك له، فقال: "إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا حدثتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشرٌ"[4]. وعن أنس أن رسول الله ﷺ مرّ بقوم يُلَقِّحون، فقال: "لو لم تفعلوا لصلح"، قال: فخرج شِيصًا، فمرّ بهم، فقال: "ما لنخلكم"، قالوا: قلت كذا وكذا، قال: "أنتم أعلم بأمور دنياكم"[5].

وواضح من الروايات أنه ﷺ لم ينههم، وإنما قال: "ما أظن يُغني ذلك شيئًا"، ولم يُرد ﷺ بذلك صرفهم عما هم فيه، بدليل أنهم لما تركوا التأبير، ووصل الخبر إليه ﷺ بيّن لهم، أنه ظَن، وأنه ما يصح أن يصرفهم الظن عن أمر يرونه صوابًا، فهم غلطوا في ظنهم أنه نهاهم.

أما ما ورد في إحدى الروايات من قوله ﷺ: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، فهو بيان منه ﷺ بأن أمور الدنيا،

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣١٧، ٣١٨ بتصرف.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره من معايش الدنيا (٦٢٧٥).

٣. نَفَضت: أسقطت ثمرها.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره من معايش الدنيا (٦٢٧٦).

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ذكره من معايش الدنيا (٦٢٧٧).

تلك التي يُرجى منها كثرة المال وحطام الدنيا هذه موكولة إلى دراسة الأمة وخبرتها، فإن الجانب العقدي والخلقي، والذي يرسم علاقة الإنسان بربه وبغيره من الكائنات، يقوم به الدين، أما الجانب التجريبي الذي به تُجمع الأموال ويستكثر من حطام الدنيا فهذا موكول للناس، يسلكونه بتجاربهم، لكن وفق المنهج الخلقي الذي يرسمه الإسلام، فليجمع المرء المال بكل وسيلة يراها، لكن دونها غش أوكذب، ودونها ربا، أو أي كسب محرَّم.

والنبي ﷺ لم تكن همته جمع المال أو الاستكثار من حطام الدنيا، وإنما كانت همته الآخرة، كما جاء في قوله ﷺ "ما لي وللدنيا، وما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها"[1]. وعليه فقد كان ﷺ متفرغًا لتبليغ رسالته للأمة وتعليمها، وهذه الأمور - أي أمور جمع المال والمعاش - موكولة إلى خبرة الأمة، ولكن القائمين بالتأبير لم يدركوا ذلك[2].

وعليه فإن ما قاله النبي ﷺ ظانًّا من قِبل رأيه جائزٌ أن يقع فيه خطأ ما دام الأمر غير تشريعي، وما قاله عن الله لم يجُز فيه ذلك، ولا فرق بين أمور الدنيا والدين، فالأمر الدنيوي الذي يقوله النبي ﷺ إما أن يكون قاله برأيه، أو يكون قاله وحيًا عن الله، وهذا - الثاني - لا يمكن أن يناله خطأ، بالإجماع، وأما الأول فمن الممكن أن يصاب بشيء من الخطأ، والأنبياء - عليهم السلام - في هذا سواء؛ ومن شواهد ذلك ما حدث مع داود عليه السلام؛ فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: "كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى"[3]. فها هما - عليهما السلام - اجتهدا رأيهما في مسألة دينية، فأصاب أحدهما، وفي سورة الأنبياء: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾(الأنبياء)، وهذا النوع كثير في القرآن والسنة، وتحته يندرج حديث تأبير النحل؛ إذ غاية القول فيه: أنه ﷺ اجتهد فيما لم يوح إليه، فصار الصواب في خلافه[4].

وعليه "فإن ما يجتهد فيه الرسول ﷺ، لعدم وجود نص محدد فيه، ويتأدّى به اجتهاده إلى رأي فيه، فإنه حتى ولو كان في واقع الأمر مخطئًا فيه لا يوصف بأنه ارتكب كبيرة، أو صغيرة خِسِّيَّة؛ لأنه بذل وسعه

١. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد، باب ما ذكر عن نبينا ﷺ (٣٤٣٠٣)، وأحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٣٧٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٣٨).

٢. المدخل إلى السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٣٧: ٣٩ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (ص) (٣٢٤٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين (٤٥٩٢).

٤. مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٥٩: ٦١ بتصرف.

وطاقته في الاجتهاد، حتى أداه إليه الحكم الذي اختاره، وهو غير مطالب بأكثر من هذا، إزاء أمر ليس عنده من الله فيه بيان وليس هو مبلغًا عن ربه في هذا الأمر: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، فضلًا عن أن المجتهد مأجور حتى وإن أخطأ في اجتهاده"[١].

نخلص من هذا كله إلى أن الأمور الدنيوية قسمان؛ الأول: وحي عن الله، وعصمة النبي ﷺ في هذا القسم ثابتة دون شك، والثاني: اجتهاد رأي، وهذا الذي قد يجوز فيه الخطأ، والخطأ فيه لا ينافي عصمته ﷺ.

ولكن قبل الختام يبقى سؤال يطرح نفسه، وربما يثور في نفوس بعضنا وهو: لماذا ألهم الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يشير عليهم بهذه الإشارة مع أنها لم تكن في مصلحتهم؟ ولماذا جعلهم الله يستسلمون لمجرد الإشارة، وهم المعروفون بالمراجعة والنقاش وكثرة السؤال؟

ولماذا لم يتدارك الله هذا الاجتهاد بالتصحيح قبل أن تنتج شيصًا للمسلمين يسخر منه اليهود، وأعداء الإسلام حين يصح نخلهم، ويسوء نخل المسلمين بسبب مشورة نبيهم ﷺ؟

والجواب عن ذلك يكمن في محاولة تلمُّس حكمة لهذه القصة، فإن حصلت بها قناعة واطمئنان فالحمد لله، وإلا فنحن مؤمنون أرسخ الإيمان بأن لله ﷻ في ذلك حكمة، وهو الحكيم الخبير، ولعل الحكمة في ذلك تدور حول ثلاثة أمور:

١. صرف بلاء الأعداء عن المؤمنين الذين لم تقو شوكتهم بعد؛ فقد كان من الجائز أن يطمع الكافرون في المدينة وتمرها، فيهاجموها من أجل نزول رسول الله ﷺ فيها، فخروج التمر شيصًا جعلها غير مطمع، وصرف الله بذلك هجوم الكافرين حتى يستعد المؤمنون، هذا احتمال.

٢. تعليم المسلمين الأخذ بأسباب الحياة بهذا الدرس العملي الذي كان قاسيًا عليهم فتنافسوا بعده في أسباب الحياة.

٣. اختبار صدق إيمانهم، فهذه القصة حتى اليوم ابتلاء واختبار، وقد نجح الصحابة ﷺ في هذا الاختبار القاسي - وهم في أول الإيمان - نجاحًا باهرًا، فقد استمروا في طاعة أوامره ﷺ، ولم يرد إلينا ردة أحد بسببها، بل لم يرد عتاب أحد منهم لرسول الله ﷺ عليها رغم خسارتهم، مما يشهد لهم بالإيمان الصادق المتين، ولعل تلك الحكمة الأخيرة هي أوجه الحكم في هذه القصة، والله أعلم بحكمته[٢].

الخلاصة:

- كل الأنبياء معصومون؛ لأنهم مختارون من قبل الله تعالى لأداء مهمة خاصة جدًّا؛ لذا فقد صانهم الله على الدوام وزوَّدهم بالعصمة، بحكم كونهم - عليهم السلام - أئمة الهدى وقدوة الإنسانية جمعاء.

- إن ما كان من النبي ﷺ لم يكن نهيًا عن تأبير النخل، وإنما رأى النبي ﷺ على سبيل الظن أنه لا يفيد، وما كان ينبغي لهم وهم العالمون بهذا الأمر أن يصرفهم الظن عن أمر يرونه صوابًا، فإن كان ثمة خطأ، فهو خطأ القائمين على التأبير، إذ أخطأوا في ظنهم أنه

---

١. عصمة الأنبياء، د. الحديدي، مرجع سابق، ص١٢٣.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٤٥١، ص٤٥٢ بتصرف يسير.

نهاهم، وليس خطأ النبي ﷺ.

- ليس من شك في أن الاجتهاد الدنيوي كالديني؛ فمنه ما يقوله النبي ﷺ برأيه، ومنه ما يكون وحيًا من الله، والخطأ في الأول محتمل، وفي الثاني محال.
- الروايات صريحة في أن ما قاله النبي ﷺ من قبل رأيه ظانًّا؛ يجوز أن يقع فيه الخطأ، وما قاله عن الله؛ لم يجز فيه ذلك، وليس النبي ﷺ بدعًا من الرسل في ذلك؛ فقد حدث أن أدرك سليمان ما أخطأ فيه داود.

الشبهة الخامسة عشرة

ادِّعاء أن النبي ﷺ كان مصابًا بالجنون والصَّرْع(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين أن النبي ﷺ كان مصابًا بالجنون، وتنتابه حالات من الصرع، ويستدلون على ذلك بما وصفه به قومه من الجنون وفقدان العقل، وبأنه ﷺ كان ضعيف البنية الجسدية مثله مثل سائر المصابين بالصرع وبأنه ﷺ كانت تصيبه حالات من التشنُّج والتعصُّب عندما يأتيه الوحي. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في عصمته ﷺ في عقله، ومن ثم إنكار نبوته ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

1) إن سيرة النبي ﷺ تشهد بكمال عقله ﷺ وبسلامة حواسه وبقوة بنيانه الجسدي.

2) كيف تؤمن أُمَّة بأكملها برسالة رجل مصروع؟! بل كيف يقنعهم بما جاء به فيصدقونه ويسيرون تحت قيادته؟! وكيف يصنع منهم أمة ذات حضارة عريقة إلا إذا كان ذا عقلية موهوبة وذكاء حاد، إضافة إلى التوفيق والتأييد من عند الله؟! لذا كان ﷺ أمة وحده.

3) ما كان يحدث له ﷺ عندما كان يأتيه الوحي في بعض صوره ليس بصَرْع، فالنبي ﷺ لم يكن يفقد الوعي، بل كان يدرك كل ما حوله، ثم يتلو على أصحابه ما نزل من القرآن، بخلاف المصروع الذي يفقد وعيه ولا يدرك شيئًا مما حدث له.

4) لقد تناقض المشركون مع أنفسهم حينما اتهموا النبي ﷺ بالجنون؛ لأنهم كانوا يعلمون مدى رجحان عقله ﷺ، فرد القرآن على مزاعم هؤلاء السفهاء، وبيّن تهافت أقوالهم.

التفصيل:

أولا. أجمع المؤرخون وأهل السير على أن رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها كان يتمتع بكامل قواه العقلية، والجسدية:

بداية نشير إلى أن كمال العقل وفطنته من أبرز صفات الرسل الذاتية التي منحهم الله تعالى إياها، وهي من لوازم الرسالة الإلهية، والاصطفاء الرباني لها: كما أنها عامل مهم، وسبب قوي من أسباب تبليغ رسالة الرسل إلى أقوامهم، ومعالجتهم بالتربية الحكيمة،

(*) هل القرآن معصوم، عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق. قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.

والقيادة السليمة وفق طبائعهم وأخلاقهم، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥)، وواضح من هذه الآية الكريمة التي تبين سبيل الدعوة أنها تعتمد على رجاحة العقل وفطنته.

فلابد أن يكون الرسول أكمل الناس عقلًا وفطنة، حتى يقيم الحجة على قومه على خير وجه، بحيث تكون ملزمة للخصم كل الإلزام، فإن آمن، وإلا جادله فاستعمل معه أسلوب المعارضة والمناقضة الذي يقتضي الحكمة والذكاء[١].

والمتأمل في سيرة النبي ﷺ يجدها خير دليل على ما كان يتمتع به ﷺ من كمال في عقله، وقوة في بدنه، فقد كانوا قبل البعثة يسمونه الصادق الأمين، وقد كانوا يتحاكمون إليه فيما يختلفون فيه، وهذا دليل على رجحان عقله، وقد ذكر المؤرخون قصة بناء الكعبة، وأن قريشًا اختلفوا في وضع الحجر الأسود، ومن يكون له الشرف في وضعه وأرادت كل قبيلة رفعه، حتى كادوا أن يتقاتلوا، وتواعدوا للقتال، ثم تشاوروا فيما بينهم فجعلوا أول من يدخل عليهم من باب بني شيبة يقضي بينهم.

فكان أول من دخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه، قالوا: هذا الأمين رضينا به وأخبروه الخبر، فوضع رسول الله ﷺ رداءه وبسطه على الأرض، ثم أخذ الحجر فوضعه فيه، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه. ففعلوا فلما بلغ موضعه، وضعه هو بيده الشريفة، فرضوا بذلك وانتهوا عن الشرور[٢].

وبذلك رفع ما بينهم من ذلك الخلاف الذي كاد يودي برجالهم، والذي حارت فيه عقولهم، وفيهم المشهورون بالعقل والحنكة والتجربة والسؤدد، حتى خلَّصهم من هذه المشكلة ذو الفطنة النبوية سيدنا محمد ﷺ، وهو يومئذ في سن الخامسة والثلاثين من عمره ﷺ، على الرغم من وجود الكبار العقلاء والنبلاء جدًّا، إلا أنه هو الذي حل المشكلة[٣].

فانظر إلى مدى حكمة النبي ﷺ ورجحان عقله، وقوة بصيرته، ولا شك أن هذا منحة من الله ﷻ له؛ لإعداده لحمل الرسالة، وقيادة الأمة.

"هذا ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة في طباعهم المتنافرة المتباعدة، وكيف ساسهم، واحتمل جفاهم، وصبر على أذاهم، إلى أن انقادوا إليه، فالتفوا حوله، وقاتلوا دونه أهليهم، وآباءهم وأبناءهم، واختاروه على أنفسهم، وهجروا في رضاه أوطانهم، وأَحِبَّاءهم من غير ممارسة سبقت له، ولا مطالعة كتب تعلم منها أخبار الماضين ـ تحقق أنه أعقل العالمين ﷺ" [٤].

وكما كان النبي ﷺ كامل العقل، فإنه كان يتمتع بقوة جسدية كبيرة، وكان شجاعًا مقدامًا، سليم الجسم، صحيح البدن، حتى إنه صارع رُكانة بن يزيد المشهور

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٩١ بتصرف يسير.

٢. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٤٢ بتصرف يسير.

٣. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٩٣ بتصرف.

٤. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، دار المحبة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص٢٠.

بشجاعته فصرعه، وقد كان ركانة هذا من أصلب الناس عودًا، وأشدهم بأسًا[١].

وقد كان من شدة قوته أنه ﷺ عمل برعي الأغنام في صغره، ثم سافر مع عمه أبي طالب إلى اليمن والشام، ولما رأت السيدة خديجة مدى صدقه - إلى جانب قوته وشدته وأمانته -، عرضت عليه أن يتاجر لها في مالها، ثم تزوجته لما وجدت فيه من الأمانة، وحسن الخلق.

وليس أدل على قوته وشجاعته من موقفه يوم إسلام سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، إذ يقول سيدنا عمر: فجلست بين يديه - أي بين يدي النبي ﷺ - فأخذ بمجمع قميصي فجبذني[٢] إليه، ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده، قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فكبَّر المسلمون تكبيرة سُمعت بطرق مكة[٣].

فهذه بعض المواقف التي تدل على مدى قوة عقله ورجاحته، وقوة بدنه ﷺ، وهذا ينفي مرضه البدني والعقلي، كما يدعي بعض المشككين.

ثانيًا. كيف تؤمن أمة بأكملها برسالة رجل مصروع، بل كيف يقنعهم بما جاء به، فيصدقونه ويعظمونه ويسيرون تحت قيادته:

إن مهمة النبوة مهمة خطيرة، ومسئوليةٌ لا يقدرُ على حملها إِلَّا من أعدَّه الله ﷻ إعدادًا يَليق بجلالِ هذه المهمة، وإن محمدًا ﷺ قد خَصّه الله تعالى بهذا الإعداد دون أبناء عصرِه كلِّهم، ونحن إذا نَفَذْنا ببصيرتنا في أعماق شخصية رسول الله ﷺ، وتتبعنا سيرته الشريفة تجلّى لنا بوضوح هذا الإعداد.

إن جميع الصفات النفسية التي خلقها الله ﷻ في محمد ﷺ هي غايةُ ما يُتَصوَّر في الإنسان من النّبلِ والسُّمو، وإن هذه الصفاتِ على ما هي عليه من الكمال والتكامل والوَفْرة ما اجتمعت إِلَّا في نبي، بل هي لم تكتمل في نبي كما اكتملت في محمد ﷺ.

والذي نريد أن ننبّه عليه هنا أن هذا النبل والسُمُوّ والاكتمال والتكامل لا يمكن أن يجتمع في نفسٍ إِلَّا بعنايةٍ إلهيَّة خاصَّة، ولمهمةٍ خاصة يريدُ الله ﷻ أن يُنيطها بمن توفرت فيه[٤].

ومن الصفات الأساسية التي لا بد لكل رسول أن يتصف بها العقل؛ إذ لا يُسلِّم الناس لأي شخص ولا يتبعون إنسانًا إلا إذا كان أرجحهم عقلًا، ليطمئنوا إلى أنه لا يسير بهم في الطريق الخطأ، كما أنه بدون العقل الذكي العبقري لا يستطيع صاحب الرسالة أن يقنع الآخرين بالحق الذي معه، وخاصة أصحاب المدارك الواسعة، والعقول الكبيرة، ولا يستطيع أن يردَّ هجمات المبطلين والمتكبرين والمنحرفين والمتنفعين، ولقد بلغ محمد ﷺ من رجاحة العقل وكماله الغاية القصوى التي لم يبلغها أحد سواه، وذلك بنعمة الله ﷻ وفضله.

ونحن نتساءل أيضًا: هل الذين آمنوا برسول الله ﷺ منذ خمسة عشر قرنًا واتبعوا الدين الذي جاء به، من

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٣١٣ بتصرف.

٢. جبذ: جذب بشدة.

٣. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص١٠٦.

٤. دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ من خلال سيرته الشريفة، د. محمد رواس قلعه جي، مرجع سابق، ص٩٥.

قادة الفكر على امتداد العصور، كلهم أغبياء مغرورون، لم يميزوا بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والصحة والمرض، والكمال والنقص[1]؟!

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيَى الأطباء، وما انتُدب له رسول الله ﷺ من تكوين شموس أبية، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية وقوانين الأخلاق، وقواعد النهضة والرقي، مع أنها أمة صحراوية النفوس، صخرية الطباع؟!

أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة، إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان، هي رائدة جميع الأمم بلا استثناء، وصاحبة العلم، وربَّة السيف والقلم، فهل المريض المتهوّس الذي لا يصلح لقيادة نفسه، يتسنّى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة، ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش الذي أبهر القاصي والداني[2]؟

ويتجلَّى كمال عقله ﷺ وسعة فكره في مواجهته ﷺ للعالم الذي انتشرت الجاهلية في جميع طبقاته حتى ضلت عقولهم، وتحويل هذه العقلية إلى عقلية لطيفة سليمة صائبة، وهو أمر يحتاج إلى عقل رجيح، وفكر صحيح، ولا ريب أن ذلك كان بتعاليم أحكم الحاكمين وبوحي رب العالمين، ولكن التعاليم الإلهية، والإيحاءات الربانية لا بد لها من عقل كبير مشرق منير قد أعدَّه الله لحملها، ويتجلَّى كمال عقله ﷺ في أساليب احتجاجه على عبدة الأوثان، وأدلته على اليهود والنصارى، وإلزامهم الحجة، وإفحامهم، وإلقامهم حجر الخذلان.

ويتجلَّى كمال عقله ﷺ في منهجه التربوي في تعليم الشاب الذي جاءه يستأذنه في الزنا بقوله: "أتحبه لأمك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتم، أتحبه لابنتك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم، أتحبه لعمتك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لعماتهم، أتحبه لخالتك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لخالاتهم، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: اللهم كفِّر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه"[3].

ويتجلَّى كمال عقله الشريف في يقظته مع المتربصين له بالعداوة، وأخذه بأنواع الحذر منهم، ورده مكرهم عليهم، فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود ولغتهم؛ أخذًا بأسباب التحفّظ من مكرهم وخديعتهم، ومن هنا قيل: من تعلَّم لغة قوم أمن مكرهم.

وأرسل يوم بدر من يكشف له عن عدد العدو، وهذا يدل على تمام يقظته التي يتجلَّى فيها كمال عقله الشريف، ومن ذلك أنه ﷺ كان يلبِّس أمور الحرب على أعدائه ويخفيها عنهم؛ كيلا يتفطنوا لها ويستعدوا للدفاع أو يزيدوا في الجمع، وفي ذلك حقن للدماء.

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٣١٦.

٢. المرجع السابق، ص٣١٤.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو بن وهب الباهلي عن النبي (٢٢٢٦٥)، والطبراني في المعجم الكبير، باب الصاد، صدي بن العجلان أبو أمامة الباهلي (٧٦٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٠).

وليس أدل على هذا من قوله ﷺ: "الحرب خدعة"[١].

وكل هذا يدل على كمال يقظته بأخذه بأسباب التحفّظ، والحيطة، أو بأسباب تخويف وإرهاب الأعداء، وهذا من كمال عقله ﷺ[٢].

ثم أنّى لمصروع أن يقود أمة بإدارة حكيمة، ورأي سديد، وتخطيط ناجع فعَّال حتى إن خططه الحربية لتدرّس في أعرق المؤسسات العسكرية وأحدثها اليوم، فإن سياسته ﷺ في إقامة الدولة الإسلامية وتدبير شئونها بحكمة وذكاء وحنكةٍ، من أكبر الدلائل على أن الله ﷻ قد حباه من الذكاء الفطري والحكمة الفياضة، وبُعْد النظر وحسن التصرّف في الأمور ما يقصر عنه كل وصف، وإن كنا لا ننكر دور العلم في صقل هذه الفطرة السياسية والتسامي بها، فإننا نعلم أن السياسة لا يتعلمها المرء في كتاب أو مدرسة بقدر ما تنضح بها فطرته، وإن المتصفح لسيرته الشريفة يظهر له هذا بكل وضوح.

ومن أنصع الأدلة على حنكته الفذة وسياسته الرشيدة ﷺ، أنه كان يعرف كيف يمتص الحقد من قلوب الناس ويحل مكانه الحب والاحترام؛ ويتضح ذلك في مواقف كثيرة، منها: موقفه مع أبي سفيان بن حرب الذي تصور يوم الفتح أن محمدًا ﷺ ربما يسلبه الشرف والمكانة التي هو فيها، ولكن الرسول ﷺ امتصَّ هذا الحقد بتصرفه الحكيم، وأكد له أن الإسلام لا يزيد العزيز إلا عزًّا؛ فأعلن: "أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...".

وكذلك يوم الفتح حين ظنت قريش أن الدائرة قد دارت عليهم، وأن رسول الله ﷺ سيقتص منهم وينتقم؛ حتى إن بعض أصحابه كان يقول: اليوم يوم الملحمة؛ ولكن رسول الله ﷺ يقول: "هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تُكسَى فيه الكعبة"[٣]. وغير ذلك من المواقف.

أَبَعْدَ هذا كله يقولون: مجنون مصروع، أمجنون مصروع يبني دولة وينشئ نظامًا ويقيم دينًا، ويعيش منهجه في أجيال الناس منذ أن قام إلى اليوم دون أن يصاب بنكسة أو خلل؟! أمجنون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزمجرة وحيدًا في وجه أمة صحراوية النفوس صخرية الطباع، ثم لا يكون منه في حال من الأحوال تخاذل أو ضعف، حتى يحوِّل هذه العواصف إلى أنسام عليلة وريح رخاء[٤]؟!

ثالثًا. هناك فروق كثيرة بين الوحي بأشكاله المختلفة، وبين حالات الصرع التي تنتاب المصروع، ويعاني منها أشد المعاناة:

إن ثمة فرقًا واضحًا بين صور الوحي الذي كان يتلقاه النبي ﷺ وبين أعراض مرض الصرع؛ إذ إن من أعراض مرض الصرع أن يرى المريض شبحًا، أو يسمع صوتًا، أو يشم رائحة، ويعقب ذلك وقوع المريض

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة (٢٨٦٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب (٤٦٣٧).

٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص٣٧: ٣٩ بتصرف يسير.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح (٤٠٣٠).

٤. النبي محمد، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ط٢، ص١٣٩ بتصرف يسير.

صارخًا على الأرض، فاقدًا وعيه، ثم تتملَّكه رعدة تشنجية تتصلَّب فيها العضلات، وقد يتوقف فيها التنفس مؤقتًا، ويعقب ذلك خور في القُوَى، واستغراق في النوم يصحو المريض منه خالي الذهن من تذكر ما حدث له.

فإذا كان هذا هو الثابت علميًّا، فهو بخلاف أمر رسول الله ﷺ فلم يكن يظهر عليه شيء مما ذُكر من أعراض هذا المرض عند نزول الوحي عليه، بل يظل في تمام وعيه، وكامل قوته العقلية، قبل الوحي وأثناءه وبعده، كما قال ﷺ لما سُئل: كيف يأتيك الوحي؟ قال: "أحيانًا يأتيني مثل صلصة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال"[1].

وقد كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي ﷺ في صورة الرجل فيحادثه أمام جمع من الناس وهم يشاهدونه، كما ثبت في حديث جبريل المشهور الذي سأل فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وكما جاء في حديث ابن عمر من إتيان جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ في صورة الصحابي الجليل دِحية الكلبي.

لقد عاش النبي ﷺ طيلة حياته في صحة نفسية وعصبية وعقلية دائمة، لم يطرأ عليه أي خلل في عقله أو أعصابه في يوم من الأيام، بل كان كمال عقله ﷺ ـ بشهادة القرآن والسنة والتاريخ ـ مضرب الأمثال[2].

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٦٢٠٥).

٢. ردُّ شبهات حول عصمة الرسول ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٣١٢، ٣١٣ بتصرف.

ثم إن الرسول عندما كان ينزل عليه الوحي كان يعرق، ويصاب برعشة خفيفة، ثم يأتيه مثل صلصلة الجرس، بعد ذلك يقول ما نزل عليه من الوحي مباشرة، وقد نزل على الرسول ﷺ (١١٤) سورة في مكة والمدينة، وظل الرسول ﷺ حافظًا لكل هذه السور إلى آخر يوم من حياته، وكان هو المرجعية الوحيدة للمسلمين والصحابة في كل ما يخص القرآن ونزوله، ومن المعروف أن المريض بالصرع، يُصاب بحالة فقدان للوعي تامة فلا يذكر شيئًا مما يحدث، ولا يذكر من هو، أو المكان الذي هو فيه، وهذا الأمر غير وارد مع الرسول ﷺ؛ لأنه كان في حالة وعي كامل يذكر كل ما جاء به الوحي، فأين الصرع الذي أُصيب به الرسول ﷺ كما يدَّعون؟

ومن المعروف أن المصاب بالصرع غير قادر على تحمّل مسئولية نفسه فضلًا عن غيره؛ لأن نوبات الصرع يمكن أن تأتي في أي وقت، وليس لها أعراض تمهيدية، ولكن الرسول ﷺ كان يقود أمة بأسرها، وكوَّن أول دولة إسلامية، ووضع أسس الحضارة الإسلامية، وبالإضافة إلى ما سبق فإن أهل مكة وهم أعداء شهدوا له برجاحة العقل وسلامة التفكير[3].

ومن هذا يتضح الفرق بين الوحي وحالات الصرع التي قد تصيب الإنسان، فتغير حاله، وتزيل عقله.

ثم لو كان النبي ﷺ مصابًا بمرض الصرع، لذكر ذلك أصحابه الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا نقلوها عنه، أو ذكره أعداؤه في ذلك العصر، هؤلاء

٣. محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، مرجع سابق، ص٤٣، ٤٤ بتصرف.

الذين كانوا يتربصون بالنبي ﷺ الدوائر، ويريدون أن يظفروا منه ولو بشيء يسير يُعيِّرونه به، أليسوا هم القائلين: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾(الزخرف)؟!

ومن ثم فإن أقصى ما عابوه عليه أنه فقير، ومثله في نظرهم لا يستحق أن يكون نبيًّا، فلو كان مريضًا بالصرع - كما زعم هؤلاء الحاقدون - لوجد أعداؤه في ذلك فرصة سانحة للطعن فيه[1].

ولقد كان من شدة حرص الرسول ﷺ على الوحي وتمام إدراكه للتنزيل أنه كان يسارع بتلاوة ما يوحى إليه قبل أن يفرغ الملك من إلقاء الفيض القرآني، فنُهي ﷺ عن ذلك ونزل قوله ﷻ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾(القيامة)، وهذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفَّل الله له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويوضحه.

ومما يدل على أن إحساسه ﷺ لم يكن يغيب عما حوله ومن حوله أثناء الوحي، ما جاء عن عائشة أنها قالت: "خرجت سودة بعدما ضُرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب، فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشَّى، وفي يده عَرْق[2]، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه ثم رفع عنه، وإن العَرْق في يدهما وضعه، فقال: إنه قد أُذن لكن أن تخرجن لحاجتكن"[3][4].

ومن ثم فإن ما كان يحدث لرسول الله ﷺ من حالات أثناء تلقِّيه الوحي، هي أبعد ما تكون عن حالات الإغماء الهستيرية التي تنتاب المصابين بالصرع والجنون.

تقول الباحثة هدى عبد الكريم مرعي: إن اتهام هؤلاء للنبي ﷺ بالإصابة بالصرع أمر يكذبه الواقع ويدحضه، وزعمهم أنه ﷺ نسي الليل والنهار والحلم واليقظة، وأنه يهيم بين شعاب الجبال، ويخرُّ مغشيًّا عليه، ما هو إلَّا نسيج خيال لا أساس له من الصحة، فلم يثبت عنه ﷺ أنه بلغ به الجهد في خلوته، وإن الروايات الصحيحة ترد كل هذه المزاعم والأقاويل الباطلة.

وليس أدل على انتفاء هذه الفِرية وبطلانها من كفاحه المرير في سبيل نشر دعوته، ومن سياسته الحكيمة وخططه الحربية وتنظيماته الاجتماعية، فلو كان مصابًا بالانهيار العصبي - كما يزعمون - فهل يَقوَى على

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٣١٥.

٢. العَرْق: عَظْم عليه لحم رقيق.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الأحزاب (٤٥١٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان (٥٧٩٦).

٤. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد أحمد سيد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢١٩، ٢٢٠.

مثل هذا النضال الطويل، وهل يؤثر عنه تلك السياسة البارعة والتنظيمات الدقيقة؟!

أما ادعاؤهم بأن ما كان يظهر على النبي ﷺ من أعراض حين كان يتصل بالوحي إنما هو من جرّاء أعراض صرع فادّعاء باطل، يدل على جهلهم المستحكم بحقيقة الوحي؛ لأن وحي الله لأنبيائه لا يمكن إخضاعه لقوانين البحث؛ لأنه فوق العقل وفوق العلم البشري.

وأعراض الصرع تختلف تمام الاختلاف عما كان يعتري النبي ﷺ عند اتصاله بالوحي، فهي أعراض مرضية مصحوبة باصفرار في الوجه وبرودة في الأطراف واصطكاك في الأسنان وغيبوبة كاملة، إذ يحتجب نور العقل ويخيّم الجهل، فلا يذكر من يصاب بذلك أي شيء مما حدث له، بل ينسى هذه الفترة من حياته نسيانًا تامًّا.

ثم إن نزول الوحي لم يقترن بغياب الوعي دائمًا، إذ كان يأتيه أمين الوحي أحيانًا في صورة رجل، فيحادثه ويوحي إليه بما شاء الله أن يوحي به إليه.

يقول د. محمد حسين هيكل في الرد على هذه الفرية: "وتصوير ما كان يبدو على محمد ﷺ في ساعات الوحي على هذا النحو الخاطئ من الناحية العلمية أفحشُ الخطأ، فنوبة الصرع لا تذر عند من يصيبه أي ذكر لما مرّ به أثناءها، بل هو ينسى هذه المدة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسيانًا تامًّا، ولا يذكر شيئًا مما صنع أو حلَّ به خلالها؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل، هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك مما يصيب النبي ﷺ أثناء الوحي، بل كانت تتنبه حواسه ومداركه في تلك الأثناء، تنبهًا لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقة ـ غاية الدقة ـ ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه، ثم إن نزول الوحي لم يكن يقترن حتمًا بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه، بل كان كثيرًا ما يحدث والنبي ﷺ في تمام اليقظة العادية.

فالصرع يعطِّل الإدراك الإنساني وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس، أما الوحي فسمو روحي اختص الله به أنبياءه؛ ليلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس، وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال وقرون وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها"[1].

وعليه فإن الوحي من الظواهر التي يعجز العلم حتى الآن عن إدراكها أو تفسيرها، ومن غير الإنصاف الحكم على الحالات التي كانت تعتري النبي ﷺ أثناء تلقيه الوحي بأنها نوع من الصرع أو الجنون، نعم الوحي ظاهرة لم يعرف العلم تفسيرها ـ حتى الآن ـ ولكن لا عيب على العلم في هذا ولا عجب، فعلمنا ما يزال قاصرًا عن تفسير بعض الظواهر الكونية القريبة منا كالشمس، والقمر، وغيرها من الكواكب الأخرى التي نراها، وكذا لا يزال عاجزًا عن التوصل إلى حقيقة الروح، وماهيتها، ومكان وجودها، فإذا كان هذا واقعًا في الحياة العادية وفيما نشاهد، كان عجزنا عن محاولة تفسير ظواهر الحياة جميعها بما فيها الوحي على الطريقة العلمية، عجزًا تامًا وتُعد محاولتنا تلك محاولةً عقيمة

١. الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم، مرجع سابق، ص٥٠٨: ٥١٠.

وإسرافًا معيبًا.

وأخيرًا نقول: إن المصابين باعتلال الأعصاب لا يتنبأون فتصدق نبوءاتهم، ولا يتصدُّون للخرافات هدمًا، ولا يصححون الانحرافات التي وقع فيها أصحاب الأديان السابقة، فيردونهم إلى جادة الصواب، ويقولون لهم: إن الله واحد لا اثنان ولا ثلاثة، وإنه رب العالمين لا رب هذه الأمة وحدها أو تلك، وإنه صاحب السلطان المطلق والقدرة اللامحدودة الذي لا يمسه لغوب، وإن البشر جميعًا سواسية أمام عدله الذي لا يحده حد، وإن الحياة ليست عبثًا لا طائل تحتها، بل هي ممتدة إلى ما بعد الموت حيث الحساب الدقيق والرحمة للضعف البشري، والانتقام من الجبارين على أساس من المسئولية الفردية التي تشمل نية الشخص وجهده وطاقته.

أمن الممكن أن يكون هذا كله نتاج أعصاب معتلة وعقل مضطرب، ونفس مكتئبة؟![1].

رابعًا. تناقض المشركين مع أنفسهم حينما اتهموه ﷺ بالجنون:

لقد تناقض المشركون مع أنفسهم حينما اتهموا النبي ﷺ بالجنون؛ لأنهم كانوا يعلمون تمام العلم رجحان عقله ﷺ، فردَّ القرآن على مزاعم هؤلاء السفهاء، وبيّن تهافت أقوالهم في كثير من الآيات:

إن ما يذهب إليه هؤلاء المدعون من اتهام النبي ﷺ بالجنون لأن قومه قد وصفوه بذلك - زعم باطل واه، ولقد عرض لنا القرآن مقالة هؤلاء السفهاء الذين اتهموا النبي ﷺ بالجنون، وناقشهم، وبيّن لهم طرائق الوصول إلى الحق، وكشف عن دخائل نفوسهم الخبيثة، ولو تتبعنا حديث القرآن عن هذا الجانب لوجدناه على النحو الآتي:

١. قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ (الحجر) والذكر هو القرآن، وسُمِّي به لشرف القرآن وعلو قدره، ولما فيه من الموعظة وخبر القرون السوالف، وعندما قال المشركون: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ قصدوا الاستهزاء والتهكم، فكان الرد المناسب لافترائهم هو: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر).

٢. بيّن القرآن استكبارهم وافتراءهم فقال ﷻ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الصافات)، فالقضية عند هؤلاء ليست بحثًا عن الحق، وليست معرفة بالقيم، وليست التزامًا بالصدق، وإنما هو التعصب للتقاليد البالية، والأعراف الفاسدة، والتعلُّق بمظاهر الحياة الخادعة.

وقد أوقعهم هذا في التخبط، فحين يريدون اتهام الرسول ﷺ بالجنون، إذ لا فكر، ولا وعي، ولا اختيار - يجمعون عليه وصف الشعر حيث الخيال الجامح، والتعبير الساحر، واختيار اللفظ البديع، والإيقاع المؤثر.

وكان الرد القرآني هنا هو: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الصافات)، والحق هو الثابت، وهو المطابق للواقع، والمجنون لا يعرف الحق، والشاعر لا

---

١. مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٢٠٦.

يلتزم بالواقع.

والدعوة للحق هي رسالة كل نبي، وقد التقى هتاف محمد ﷺ بهتاف إخوانه المرسلين، وتطابقوا في المبدأ والمعاد، وأصول العبادات، ومكارم الأخلاق، فليس في الأمر اختلاق ولا وهم.

٣. كشف القرآن عن عناد القوم ومكابرتهم مع وضوح الدلائل، وقوة البراهين فقال ﷻ: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) ﴾ (الدخان)، فدلائل النبوة واضحة، وكل من تأمل حياة محمد ﷺ قبل الرسالة وبعدها عرف أنه الصادق الأمين، أيده الله بالمعجزة التي تتحداهم صباح مساء أن يأتوا بمثلها.

٤. حرص القرآن في موضعين على تأكيد أن الاصطفاء الإلهي للوحي نعمة على محمد ﷺ وأن الله خير الشاهدين على خلقه، وسلوكه، فقال ﷻ: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) ﴾ (الطور). وقال ﷻ في سورة القلم: ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ (القلم).

وأعقب ذلك في السورة الأولى التحدي بالقرآن، فقال ﷻ: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ (الطور).

وتلا ذلك في السورة الثانية تحدٍّ من نوع آخر، يمكن أن نسميه التحدي بالخُلق والسلوك المحمدي، فقال: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾ (القلم)، أي: فستعلم يا محمد، ويعلم الناس كافة مَنْ المجنون ومَنْ الضال عن الحق.

٥. انطلق القرآن في حديثه عن هذا الجانب انطلاقًا يصعق قلوب المشركين، ويزيدهم قلقًا واضطرابًا:

إن الرسالة المحمدية ليست موجهة لكم فقط، ولا خاصة بزمانكم أو عالمكم، إنها رسالة للعالمين!!

وإن الرسول الذي يحرص على هدايتكم، ويقدم لكم سبيل شرفكم ومجدكم، مؤهَّل لقيادة العالمين، ويولي وجهه إلى الثقلين في دعوة مخلصة للتي هي أقوم، وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا المعنى في موضعين: فقال ﷻ في سورة القلم: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾ (القلم).

وهكذا فجعت سورة القلم المشركين في عقيدتهم وعقولهم بأن هناك عالمًا أرحب هو مجال هذه الدعوة، وفجأتهم بهذا الأمر العظيم، وقال ﷻ في سورة التكوير: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) ﴾ (التكوير).

فطرائق تفكير المشركين قد ضلت، وضاقت عليهم أنفسهم، فلا يدرون ماذا يقولون، إن محمدًا ﷺ قد وضحت لديه الدلائل، ويتحمل الرسالة في أمانة وصدق وثبات، محروسًا بعناية الله، حتى تصل دعوته إلى الآفاق.

٦. خلال حديث القرآن في تعقُّب هؤلاء المشركين والرد عليهم في زعم الجنون لصاحب الرسالة العصماء؛ اتجه في أكثر من موضع إلى تسلية الرسول ﷺ وتثبيت فؤاده، فلفت نظره إلى أن تلك سنة جارية مع رسل الله

يتحمَّلون البأساء والضراء، ويصبرون حتى يحكم الله بينهم وبين أقوامهم.

فحكى القرآن قصة موسى وأنه اتُّهم بالجنون، فقال ﷻ: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الشعراء)، هذا ما ادعاه فرعون على موسى، وقال ﷻ أيضًا: ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الذاريات)، وقبيل انتهاء هذه السورة ساقت الآيات عبرة للتاريخ وسنة كونية في تشابه المكذبين وتقارب أفكارهم، فقال ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الذاريات). وفي سورة القمر أُلصقت نفس التهمة بشيخ الأنبياء نوح عليه السلام، قال ﷻ: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ (القمر)، وهكذا تعقَّب القرآن المجيد شوارد فكر هؤلاء المشركين، وبيَّن تهافتهم وسوء منقلبهم؛ ليظل ذلك آية بينة على صدق محمد ﷺ وتصديق الله تعالى له[1].

ونخلص مما سبق كله إلى أن هذه الأدلة القرآنية التي ساقها الله تبارك وتعالى في سياق دفعه ما ذهب إليه المشركون من اتهام النبي ﷺ بالجنون تقف أدلةً قاطعةً على بطلان هذا الاتهام الذي نادى به - بعد المشركين - الطاعنون في عصرنا الحديث، مستندين إلى ما قاله المشركون قديمًا.

الخلاصة:

- إن المتأمل في سيرة النبي ﷺ يجدها خير دليل على كمال عقله ﷺ وفطنته، فقد كان ﷺ أعقل الناس وأذكاهم، وفي الذروة من الفطنة، ومن شواهد ذلك حله المشاكل المستعصية التي حارت في حلها العقول الكبيرة مثل حله لمشكلة قريش في وضع الحجر الأسود الذي تنافست فيه قبائلها، واستطاعته تدبير حال العرب وسياستهم وهم كالوحوش الشاردة المتنافرة في طباعها، حتى انقادوا إليه والتفوا حوله، وقاتلوا عنه أهليهم وذويهم.

- وكما كان ﷺ كامل العقل، كان قوي البنية الجسدية، فقد كان صحيح الجسم، سليم الحواس، ويشهد بذلك أنه ﷺ صارع ركانة بن يزيد المشهور بشدة بأسه وقوته - فصرعه

- لا يمكن لرجل له حكمة نبي الله محمد ﷺ وذكاؤه الذي مكّنه من أن يجعل من الأمة العربية المتخلِّفة بعد قرن من الزمان قائدة للأمم ورائدة لها في العلم والحضارة وكل ميادين الحياة - أن يوصف بالصرع والجنون، وهل يستطيع مصروع أو مجنون أن يقود نفسه حتى يتسنى له أن يقود أمة بأسرها إلى يوم القيامة.

- هناك فروق كثيرة بين حالات الصرع، وما ينتاب المريض من فقدان للذاكرة، وضعف وهوس واضطراب في الحركة، وانعدام وعي بما يدور حوله، وبين أنواع الوحي التي كانت تعرِض للنبي ﷺ، حيث كان على وعي بكل ما يقال له، ويبلغه على أكمل وجه كما أراده الله ﷻ.

- نعم لقد اتهم المشركون النبي ﷺ بالجنون، وأي شيء يشين محمدًا ﷺ في ذلك، وهذه هي سنة الله في

---

1. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد أحمد المسير، مرجع سابق، ص٢١٣: ٢١٨ بتصرف.

أنبيائه، فلم يبعث الله نبيًّا إلا رماه قومه بالجنون، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ (الذاريات)، وقد دحض القرآن هذه الفرية، وبين كذبها، فهي فرية قديمة؛ استند إليها مفترون جُدُد.

الشبهة السادسة عشرة

اتِّهام النبي ﷺ بفساد العقل (*)

مضمون الشبهة:

يتَّهم بعض الحاقدين النبي ﷺ بفساد العقل، زاعمين أنه كان يذكر أشياء لا تمتُّ للواقع بصلة، ويثبت وجود ما لا وجود له حقيقة، ولا يقوم دليل مادي على ثبوته، ويستدلون على ذلك بأنه أقرَّ بوجود الجنّ، مستشهدين بما ذكره القرآن الكريم في آيات كثيرة من حديث عن الجن ونحو ذلك، هادفين من وراء ذلك إلى إثبات فساد عقله؛ للخلوص في النهاية إلى إنكار عصمته ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الرسول ﷺ أرجح البشر عقلًا، وأحسنهم منطقًا، فقد خصّه الله ﷻ بخصائص عقلية وفكرية، لم يخص أحدًا بها سواه.

٢) إن عدم رؤية الشيء ليست دليلًا على عدم وجوده، وقبيح بالعاقل أن ينفي الشيء لعدم علمه بوجوده؛ فالكون حافل بالأسرار والخلائق المجهولة لنا، وعدم إدراكنا لها لا ينفي وجودها.

٣) عالم الجنّ مخلوق حقيقة، وثمة دليلان على وجوده: أحدهما نقلي، والآخر حِسِّي مشاهَد.

التفصيل:

أولا. الرسول ﷺ أرجح البشر عقلا:

لقد كان النبي ﷺ وافر العقل يزيد عقله على عقل غيره، راجح الرأي، ذكي اللُّب[1]، حادَّ الفهم، سريع الإدراك، قوي الحواس (وهي أسباب العلم من السمع، والبصر، والذوق، والشم، واللمس في جميع البدن)، معتدل الحركات والسكنات (من قيام وقعود ومشي ورقود، ونحو ذلك)، حسن الشمائل الخِلْقية والخُلُقية، حتى صار بين قومه وغيرهم أعقل الناس، وأذكاهم، فضلًا عما أفاضه الله عليه من العلم الاعتقادي والعملي وتقرير أحكام الشرع، دون تعلّم سَبَق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه، وإنما من تعليم الله اللدني، بإلقائه السريع في قلبه وعقله ووعيه، فلم يعد أحد يشكّ في نفاذ بصيرته، ورجحان عقله، وفهمه الأمور لأول وهلة دون تفكُّر ومهلة، فكأنه يثقب القلب بقوة فهمه، كما يثقب النجم الظلام بقوة ضوئه.

قال وهب بن مُنبِّه ـ وهو تابعيٌّ جليل من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية ـ: "قرأت في واحد وسبعين كتابًا، فوجدت في جميعها: أن النبي ﷺ أرجح

(*) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق.

١. اللُّبُّ: أخص من العقل، فإنه مختص بالعقل السليم والفهم القويم، ومنه قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١).

الناس عقلًا، وأفضلهم رأيًا، ووجدت أن الله ﷻ لم يُعْط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جَنْب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من رمال الدنيا"[1].

فالنبي ﷺ إذَنْ أوفر الناس وأرجحهم عقلًا، ولمَ لا وقد أرسله ربه برسالة لا تقتصر على قومه، وإنما للعالم أجمع، فكان من كرامة الله ﷻ لنبيه أن أعطاه عقلًا يتعامل به مع جميع الأجناس، ومختلف الألسنة، ويفهم به كلام من يكلمه سواء من قريش أم غيرها، أم حتى من العجم[2].

ثم كيف يدَّعي بعض الواهمين أن النبي ﷺ فاسد العقل، وثمة علماء غربيون ـ ممن وضعوا الحق في نصابه ـ شهدوا بكماله ﷺ، وبأنه أعظم قادة التاريخ، يقول عالم الاجتماع الإيطالي د. أوغسطين كرسيتا في كتابه "عبير الشرق": "إن محمدًا ﷺ كان ولا شكّ من أعظم قواد التاريخ، ويَصْدُقُ عليه القول بأنه كان مصلحًا قديرًا، وبليغًا فصيحًا، وجريئًا مغوارًا، ومفكرًا عظيمًا"[3].

ويقول المستشرق الإسباني جان ليك: "أي رجل أدرك من العظمة الإنسانية، مثلما أدرك محمد ﷺ؟! وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ؟! لقد هدم الرسول المعتقدات الباطلة التي تُتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق"[4].

١. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٧٧.

٢. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص١٧.

٣. عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، مرجع سابق، ص١٨.

٤. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٨٨.

وعليه فإن اتهام النبي ﷺ بفساد عقله، إنما هو ضرب من التعصُّب، ولا تضرُّه ﷺ أقوال الجهلاء واتهامات المتعصبين من المستشرقين، ولله در القائل:

ما يضرُّ البحر أضحى زاخِرًا

أنْ رَمَى فِيه غُلامٌ بحَجَرْ®

ثانيًا. عدم رؤية الشيء ليس دليلا على عدم وجوده، فالكون حافل بالأسرار والخلائق المجهولة لنا، وعدم إدراكنا لها لا ينفي وجودها:

في البداية نودّ أن نوضِّح أن الجِنّ عالم غير عالم الإنسان وعالم الملائكة؛ فبينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر، ويختلفون عن الإنسان في أمور أهمها: أنهم مخلوقون من نار في حين خُلق الإنسان من طين.

وقد سُمِّي الجِنُّ جنًّا؛ لاجتنانهم، أي: استتارهم عن العيون، قال ابن عقيل: "إنما سمي الجنّ جنًّا لاجتنانهم واستتارهم عن العيون، ومنه سُمي الجنين جنينًا، وسمي المجنّ مجنًّا؛ لستره للمقاتل في الحرب"، وقد جاء في محكم التنزيل: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف: ٢٧)[5].

ولعل استتار الجنّ عن عيون البشر، هو ما دفع الماديين منهم إلى إنكار وجودهم، وغاية ما عند هؤلاء

® في "كمال عقل النبي ﷺ ورجاحته" طالع: الشبهة الخامسة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، من هذا الجزء.

٥. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٩ بتصرف.

المنكرين أنه لا علم عندهم بوجودهم، وقد نسُوا أو تناسوا أن عدم رؤية الشيء ليس دليلًا على عدم وجوده، وقبيحٌ بالعاقل أن ينفي الشيء لعدم إدراكه له، وهذا مما نعاه الله على الكفرة في قوله ﷻ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ (يونس: ٣٩)، وهذه المخترعات الحديثة التي لا يستطيع أحد أن ينكر وجودها، أكان يجوز لإنسان عاش منذ مئات السنين أن ينكر إمكان حصولها لو أخبره صادق بذلك؟ وهل عدم سماعنا للأصوات التي يعجّ بها الكون في كل مكان دليل على عدم وجودها، حتى إذا اخترعنا الراديو، واستطاع التقاط ما لا نسمعه بآذاننا صدّقنا بذلك[1]؟!

فلا شك أن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار، والقوى والخلائق المجهولة لنا كنهًا وصفة وأثرًا، ونحن نعيش في أحضان هذه القُوَى والأسرار، نعرف منها القليل، ونجهل منها الكثير، وفي كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار، وندرك بعض هذه القوى، ونتعرف على بعض هذه الخلائق تارة بذواتها، وتارة بصفاتها، وتارة بمجرد آثارها في الوجود من حولنا.

ونحن ما نزال في أول الطريق، طريقِ المعرفة لهذا الكون، الذي نعيش نحن وآباؤنا وأجدادنا على ذَرَّةٍ من ذراته الصغيرة، هذا الكوكب الأرضي الذي لا يبلغ أن يكون شيئًا يُذْكر في حجم الكون أو وزنه!

وما عرفناه اليوم ـ ونحن في أول الطريق ـ يُعدّ بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائبَ أضخم من عجيبة الجنّ، ولو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي نتحدث عنها اليوم، لظَنُّوه مجنونًا، أو لظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجنّ قَطْعًا!

ونحن نعرف ونكشف في حدود طاقتنا البشرية المعدَّةِ للخلافة في هذه الأرض، وفق مقتضيات هذه الخلافة، وفي دائرة ما سخّره الله لنا؛ ليكشف لنا عن أسراره، وليكون لنا ذلولًا؛ كيما نقوم بواجب الخلافة في الأرض، ولا تتعدى معرفتنا وكشوفنا في طبيعتها، وفي مداها مهما امتد بنا الأجل ـ أي بالبشرية ـ ومهما سُخِّرَ لنا من قوى الكون، وكُشِفَ لنا من أسرار ـ لا تتعدى تلك الدائرة ـ ما نحتاج إليه للخلافة في هذه الأرض، وفق حكمة الله وتقديره.

وسنكشف كثيرًا، وسنعرف كثيرًا، ولسوف تتفتح لنا عجائب من أسرار هذا الكون وطاقاته، مما قد تعدّ أسرار الذرة بالقياس إليه لعبةَ أطفال! ولكننا سنظل في حدود الدائرة المرسومة للبشر في المعرفة، وفي حدود قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ (الإسراء)، قليلًا بالقياس إلى ما في هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا خالقه وقيّومه، وفي حدود تمثيله لعلمه غير المحدود، ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾ (لقمان).

فليس لنا ـ والحالة هذه ـ أن نجزم بوجود شيء أو نفيه، وبتصوره أو عدم تصوره، من عالم الغيب والمجهول، ومن أسرار هذا الوجود وقواه، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي، أو تجاربنا المشهودة، ونحن لم

1. المرجع السابق، ص١٤ بتصرف يسير.

ندرك بعدُ كلَّ أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها، فضلًا عن إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا!

وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلة في برنامج ما يُكْشَف لنا عنه أصلًا، وأسرار ليست داخلة في برنامج ما يكشف لنا عن كُنْهِه، فلا يكشف لنا إلا عن صفته أو أثره، أو مجرد وجوده؛ لأن هذا لا يفيدنا في وظيفة الخلافة في الأرض.

فإذا كَشَفَ الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى، عن طريق كلامه، لا عن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه ـ أيضًا ـ فسبيلنا في هذه الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم، نتلقاها كما هي، فلا نزيد عليها، ولا ننقص منها؛ لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة، وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار[1]!

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)﴾ (الإسراء).

إن هناك عوالم أخرى موجودة في هذا العالم على الرغم من أنها لا تقع تحت حسنا المباشر ومن هذه العوالم عالم الجن، وهو مخلوق خلقه الله بكيفية معينة، وخصّه بخصائص يختلف بها عن باقي المخلوقات.

"ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشد مظاهر الغفلة والجهل، من حيث يزعم أنه لا يؤمن إلا بما يتفق مع العلم، فيمضي يتبجّح بأنه لا يعتقد بوجود الجانّ؛ من أجل أنه لم يرهم ولم يحسّ بهم.

إن من البداهة بمكان أن مثل هذا الجاهل المتعالم، يستدعي إنكار كثير من الموجودات اليقينية لسبب واحد هو عدم إمكان رؤيتها، والقاعدة العلمية المشهورة تقول: "عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود"، أي عدم رؤيتك لشيء تفتش عنه لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقودًا أو غير موجود"[2].

ثالثًا. عالم الجنّ مخلوق حقيقة، وثمة دليلان على وجوده؛ أحدهما: نقلي، والآخر: حِسِّي مشاهَد:

إن عالم الجنّ مخلوق من قِبَل الله ﷻ وموجود حقيقة، وعلى المسلم أن يؤمن بوجودهم، وبأنهم كائنات حية كلَّفها الله ﷻ بعبادته كما كلَّفنا بذلك، ولئن كانت حواسّنا ومداركنا لا تشعر بهم؛ فذلك لأن الله ﷻ جعل وجودهم غير خاضع للطاقة البصرية التي بَثَّهَا في أعيننا، ومعلوم أن أعيننا إنما تبصر أنواعًا معينة من الموجودات بقدر معين وبشروط معينة[3].

وعالَم الجنّ ـ بحسب ما يُستخْلَصُ من ظواهر القرآن ومن صِحَاح الأخبار النبوية وحَسنها ـ نوع من المجردات، أي: الموجودات اللطيفة غير الكثيفة، الخفيَّة عن حاسَّة البصر والسمع، فهي موجودات روحانية مخلوقة من عنصر ناري، ولها حياة وإرادة وإدراك خاصّ بها لا يُدرى مداه.

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٢٧٠، ٣٢٧١.

٢. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص١١٤.

٣. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٣٦٨، ٣٦٩.

وهذه الموجودات النارية جنس من أجناس الجواهر تحتوي على الجن وعلى الشياطين، فهما نوعان لجنس الموجودات النارية التي لها إدراكات خاصة، وتصرفات محدودة وهي موجودات مُغَيَّبَةٌ عن الأنظار ملحقة بعالم الغيب لا تراها الأبصار، ولا تدركها أسماع الناس إلا إذا أوصل الله الشعور بحركاتها وإراداتها إلى البشر على وجه المعجزة خرقًا للعادة لأمر قضاه الله تبارك وتعالى وأراده[1].

وثمة دليلان يدلان دلالة قاطعة على وجود الجِنّ:

أولهما: الدليل النقلي؛ ويتمثل في الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، وهذه الآيات وتلك الأحاديث تنصّان صراحة على وجود عالَم الجن، وعلى كونهم مخلوقاتٍ موجودة بالفعل.

والمتأمل في كتاب الله ﷻ يقطع بوجود الجن حقيقة، وكيف لا وهو الكتاب الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت).

هذا وقد جاءت نصوص كثيرة في القرآن تقرر وجودهم، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ (الجن: ١)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ (الجن).

وهذه آثار من أحاديث النبي ﷺ الصحيحة التي تقطع بذلك أيضًا. وما كان للنبي ﷺ أن يقول هذا من عند نفسه، وقد قال عنه الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم).

فقد انصرف النبي ﷺ من الطائف راجعًا إلى مكة حين يَئِسَ من خبر ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلِّي، فمرَّ به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جن نُصَيْبِين، فاستمعوا لتلاوة الرسول ﷺ فلما فرغ من صلاته، ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصّ الله تعالى خبرهم على النبي ﷺ، فقال: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأحقاف)[2]. هبط هؤلاء الجن على النبي ﷺ وهو يقرأ ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: ﴿ أَنصِتُوا۟ ﴾.

هذه الدعوة التي رفضها المشركون بالطائف تنتقل إلى عالم آخر هو عالم الجن، فتلقوا دعوة النبي ﷺ ومضوا بها إلى قومهم، كما مضى بها أبو ذر الغِفَاري إلى قومه، والطُّفَيْلُ بن عمرو إلى قومه، وضِمَاد الأَزْدِي إلى قومه، فأصبح في عالم الجن دعاة يبلّغون دعوة الله ﷻ: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (الأحقاف).

وأصبح اسم "محمد" ﷺ تهفو إليه قلوب الجن، لا قلوب المؤمنين من الإنس فقط، بل أصبح من الجن حواريون حملوا راية التوحيد ووطَّنوا أنفسهم دعاة إلى

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٤، ج٢٩، ص٢١٨.

٢. إسناده صحيح: أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ذكر إسلام الجن، هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن (٥٢٥)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة الأحقاف (٣٧٠١)، وصحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي.

الله، ونزل في حقِّهم قرآن يُتلَى إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومن عليها. قال ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ (الجن).

كان هذا الفتح الرباني في مجال الدعوة ورسول الله ﷺ ببطن نخلة عاجز عن دخول مكة، فهل يستطيع عُتاةُ مكة وثقيف أن يأسِروا هؤلاء المؤمنين من الجن، وينزلوا بهم ألوان التعذيب؟! وعندما دخل النبي ﷺ مكة في جوار المطْعم بن عَدِي كان يتلو على صحابته سورة الجن، فتتجاوب أفئدتهم خشوعًا وتأثرًا من روعة الفتح العظيم في عالم الدعوة، وارتفاع راياتها، فليسوا هم وحدهم في المعركة، هناك إخوانهم من الجن يخوضون معركة التوحيد مع الشرك.

وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله ﷺ، جاء الوفد الثاني متشوِّقًا لرؤية الحبيب المصطفى ﷺ والاستماع إلى كلام رب العالمين.

فعن علقمة قال: سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: أُستُطِير[1] أو أُغْتِيلَ[2]، قال: فَبِتْنَا بِشَرِّ ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَلِ حراء، فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا شرّ ليلة بات بها قوم، فقال: "أتاني داعي الجن فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن"، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: "لكم كل عظم ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم"، فقال رسول الله ﷺ: "فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم"[3][4].

ونخلص من هذا كله إلى أن وجود الجن معلوم من الدين بالضرورة، يقول ابن تيمية: "لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله تبارك وتعالى أرسل محمدًا ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فهم مُقرّون بهم كإقرار المسلمين، وإن وُجِدَ فيهم من ينكر ذلك، كما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك".

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالضرورة، ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء

١. استُطِير: ذُهب به بسرعة كأنَّ الطير حملته.
٢. اغتِيل: قُتل خدعة.
٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (١٠٣٥).
٤. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٣٦٦: ٣٦٨.

عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيُّون، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره - كما يزعم بعض الملاحدة - فلَمَّا كان أمر الجن متواترًا عن الأنبياء تواترًا تعرفه العامة والخاصَّة، فلا يمكن لطائفة من المنتَسِبين إلى الرسل الكرام أن تنكرهم[1].

وثانيهما: الدليل الحسي المُشاهَد؛ لقد تجاهل هؤلاء الطاعنون الواقع المعيش والمشاهَد، وذلك حينما ادّعوا أن الجنّ شيء غير موجود؛ وذلك لأننا لا نراه ولا ندركه، وإذا التمس هؤلاء هذا الواقع فإنه سيُطْلعُهم لا محالة على أن كثيرًا من الناس في عصرنا وقبل عصرنا شاهد شيئًا من ذلك، وإن كان كثير من الذين يشاهدونهم ويسمعونهم لا يعرفون أنهم جنّ؛ إذْ يزعمون أنهم أرواح، أو رجال الغيب، أو رجال فضاء[2].

وإذا كان مثيرو هذه الشبهة - الماديون الحسّيون - لا يؤمنون إلا بما هو حِسِّي مشاهَد فلِمَ أغفلوا هذا الدليل الحسّي الذي يقطع بوجود الجن؟!

الخلاصة:

- لا يصح أن يُتَّهم النبي ﷺ بفساد عقله لذكره الجن؛ لأن وجود الجن حقيقة واقعة، وإن شكَّك في ذلك المشكِّكون، فقد كان ﷺ أرجح الناس عقلًا؛ إذ خصَّه الله بخصائص عقلية، وفكرية، ما خصَّ بها أحدًا من البشر، وقد اعترف برجاحة عقل النبي ﷺ أعداؤه قبل أتباعه.
- لا يمكن بحال من الأحوال إنكار وجود الجن لعدم رؤية البشر لعالَمهم، أو عدم علمهم به؛ لأن عدم العلم بالشيء لا ينفي وجوده؛ وذلك لأن الكون حولنا مليء بالأسرار التي لا نراها، ولا نحيط بها علمًا، فالبشر يعرفون ويكتشفون في حدود الطاقة البشرية المُعَدَّة للخلافة في الأرض، ووفق مقتضيات هذه الخلافة، وفي دائرة ما سخره الله لهم، أما ما هو خارج عن هذه الدائرة، فلا نملك إلا أن نتلقاه كما هو فلا نزيد عليه، ولا ننقص منه؛ لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة، هو الوحي الإلهي، وما أخبرت به الرسل الكرام.
- عالَم الجنّ عالم مخلوق وموجود حقيقة، والأدلة على وجوده نوعان؛ الأول: أدلة نقلية تتمثل في كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تقطع بوجود الجنّ، والآخر: أدلة حسية مشاهَدَة تتمثل في أن كثيرًا من الناس شاهد شيئًا من هذه المخلوقات، وإذا كان مثيرو هذه الشبهة لا يؤمنون إلا بما هو حسِّي - فلِمَ لا يؤمنون بوجود الجنّ وقد رآهم بعض الناس ؟!

الشبهة السابعة عشرة

ادعاء أن النبي ﷺ كان قاصر الفهم(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أن النبي ﷺ كان قاصر

1. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص١٧، ١٨.
2. المرجع السابق، ص١٨، ١٩.

(*) محمد في مكة، مونتجمري وات، مرجع سابق.

الفهم؛ إذ إنه لقصر فهمه، وخمول بديهته ألجأ جبريل ﷺ إلى أن يكرِّر فعل الأمر "اقرأ" على مسامعه ثلاثًا عند أول لقاء به، وما كان أغناه عن ذلك التكرار لو كان المتلقي أذكى، وأسرع بديهة من النبي ﷺ. وهم بذلك يشكِّكون في ذكائه ﷺ وفطنته، وسرعة بديهته؛ بُغْية الطَّعن في رجاحة عقله، وكمال عصمته ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن للأنبياء عامة بما فيهم محمد ﷺ من حدَّة الذكاء وسلامة الفهم وسرعة البديهة ما ليس لسواهم من سائر البشر، ولقد شهد للنبي ﷺ بذلك معاصروه؛ فحكَّموه في أصعب المواقف لرجاحة عقله، وإذا تركنا شهادة معاصري النبي ﷺ وحكمهم عليه؛ فبشهادة من نأخذ؟! وبحكم من نأتم؟!

٢) إن ما كان من تكرار جبريل الأمر بالقراءة لم يكن لقِصَر فهم النبي ﷺ، وإنما لمقاصد أخرى؛ منها:

- إيناس النبي ﷺ بالقراءة التي لم يكن له علم بها من ذي قبل.
- بيان أهمية هذا الدِّين وعظمته منذ أول ساعة لتلقِّيه.
- إبراز ثنائية المُلْقي والمتلقِّي، وتأكيد حقيقة خارجِيَّة التلقِّي عن ذات النبي ﷺ.

التفصيل:

أولا. الفطنة صفة لازمة للأنبياء والرسل عمومًا، بما فيهم محمد ﷺ:

معلوم أن الرسول مُعَرَّض - وهو يقوم بعملية التبليغ - لمناقشات الخصوم أو لتساؤلات الأتباع أو لاعتراضات المشككين وانتقاداتهم، فلا بد أن يكون لديه من الذكاء وقوة البيان وحِدَّة المعارضة ما يستطيع به أن يَدْحض شُبَهَ الآخرين فلا تقوم لهم حجة؛ إذ لو قامت لهم حجة لما كان له عليهم سلطان وذلك مقتضى قوله ﷻ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥).

وهذا لا يتمُّ إلا بأن تكون دعوة الرسول ﷺ حقًّا كلها؛ إذ غير الحق لا تكون حجته واضحة، والباطل دائمًا حجته داحضة، ولا يتم كذلك إلا بعقل يستطيع إحكام الحجة في العَرْض، فكم من حق لم يجد عقلًا فضاع، ولا يتم هذا كله إلا بفصاحة وبيان يمكن بهما عرض الحجة بالشكل الأكمل، ولا يتأتَّى هذا إلا لأعلم الناس وأذكاهم وأفصحهم.

والناس يتفاوتون عِلْمًا ويختلفون اختصاصًا؛ فمنهم رجل الدين، ومنهم السياسي، ومنهم الاقتصادي، ومنهم الطبيب... إلخ، وكل واحد من هؤلاء ينبغي أن تُقام عليه الحجة، فإن لم يكن الرسول أعلم الخلق لا يستطيع إقامة الحجة عليهم، والناس يتفاوتون ذكاءً وقوة حجة وعارضة، والرسول مهمته أن يقيم الحجة على كل البشر، فإن لم يكن أذكى البشر، فإنه لا يستطيع أن يفعل، وإنسان يحتاج إلى هذا كله لا بد له من لسان مبين، وفصاحة عظيمة، حتى إن موسى يوم كلَّفه الله بالرسالة قال كما يحكي عنه القرآن: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾(طه).

وباجتماع هذه الجوانب كلها تتحقق صفة الفطانة عند الرسول، وتدلُّ بذلك على أن صاحبها رسول الله حقًّا مع استكمال بقية الشروط؛ فالحق الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والحجة الكاملة البيِّنة الخاصة فيه، والعرض السليم الكامل الأداء، وإلزام الخصوم العجزَ عن أن يكون لهم موقف حق إلا بالمتابعة - كل هذا لا يتأتّى إلا لدعوة الله المحيط علمًا بكل شيء، ولرسوله الذي يختاره أهلًا لحمل دعوته: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٥)، ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾ (الأنعام).

وباستعراضنا لهذه الجوانب عند رسول الله محمد ﷺ نجد أن له من كل شيء ذروته؛ فمن حيث وفور العقل كان ﷺ أرجح الناس عقلًا، ومن حيث إن دعوته كلها حق فذلك لا مرية فيه، ومن حيث الفصاحة فهو أفصح العرب على الإطلاق، وأبينهم لغة ونطقًا وأداء، ومن حيث إقامة الحجة فإنك لن تجد إنسانًا يستطيع إقامة الحجة المقنعة على كل إنسان حسب مستواه العقلي بكل بساطة كما كان يفعل رسول الله ﷺ.

وبهذا تأتّى له أن يقيم الحُجَّة على الناس بدينه كله؛ عقيدة وعبادات وسلوكًا ومنهاج حياة، هذا مع توفيق الله له، وحكمته ﷻ في أن جعل القرآن الكريم قد فصّل كل شيء، وحاجّ كل إنسان فحجّه، فكان القرآن مع حديث رسول الله ﷺ الصحيح كما فحصه علماء الحديث - وهما محفوظان - حُجَّة الله على البشر في كل جيل إلى قيام الساعة[1].

وإذا تأملنا رجاحة عَقْل النبي محمد ﷺ بعيدًا عن كونه صاحب رسالة مقارنة ببني قومه وسائر البشر؛ نجد أن أحدًا من هؤلاء لم يتوفر العقل فيه كما توفر في محمد بن عبد الله ﷺ، ولو لم ينزل عليه الوحي ويُخاطَب من السماء لكان عقله وحده كافيًا لأن يُنْشِئ دولة، ويقيم مجتمعًا طيبًا فاضلًا.

ولكنَّ الله تعالى أتمَّ عليه نِعْمته، فجعله نبيًّا مرسلًا، فاجتمع له الكسب الذاتي بالإدراك بالفطرة الإنسانية العالية المكتملة بالتكوين الإنساني، والرسالة الإلهية الهادية المرشدة، وكانت الأولى مقدمة للثانية، وما كانت إحداهما لتغني عن الأخرى؛ فما كانت الرسالة تجيء لغير ذي عقل كامل وفكر مُدْرِك، وشخصية كريمة اختارها الله ﷻ لموضع رسالته وحمل أمانته.

وما كانت الكفاية العقلية في أسمى صورها بمغنية عن الرسالة؛ لأن العقل لا يمكن أن يكون وحده كافيًا في تدبير الحاضر والقابل إلى يوم الدين، إنما العقل يدبّر ما يحيط به، وهو من غير هداية الوحي لا يفكِّر إلا فيما بين يديه، ولا يخترق الحجب والأستار إلى ما وراء ما لديه، فلا بد من علم الله يمده بعلم القابل، وهو عالم الغيب والشهادة، فمهما تكن قوة العقل، فإنه لا يستطيع أن يصلح غير زمانه، وكل شيء عند ربك بمقدار.

وعجيب أن يوصَم النبي ﷺ بقصر فهمه بعدما بلغ من العمر أربعين سنة، وله منذ نعومة أظفاره ﷺ من التجارب والخبرات ما يكفي لدرء هذا المزْعَم؛ فمنذ نشأة محمد بن عبد الله ﷺ، والعقلُ المكتملُ حليتهُ العليا التي سما بها على الغلمان أترابه[2]، ولقد بدا ذلك لجده عبد المطلب الذي أخذه ليعوِّده أخلاق الرجال

---

١. الرسول ﷺ، سعيد حوَّى، دار السلام، مصر، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص١١١، ١١٢ بتصرف يسير.

٢. الأتراب: المماثلين له في السِّنِّ.

المكتملين.

ولما ذهب إلى بيت عمه أبي طالب بعد وفاة جده القريب، كان الغلام الرزين المكتمل وسط أولاد أبي طالب، لا يسبق الأيدي إلى الطعام، ولا يدخل في زحمة الاغتراف، بل يتريَّثُ غير نَهِمٍ ولا جشع ولا طامع بل كان الهادئ الرزين، قد يكتفي بالقليل، أو ما دونه حتى يتنبَّه إليه عمه الشفيق فيقرّب إليه ما يبعد، ويخصه بما يكفيه مئونة المزاحمة، حتى إذا بلغ قدرًا يستطيع فيه الاكتساب عمل برعي الأغنام ليأكل من عمل يده، ولينال من خير الدنيا بمقدار ما قدَّم فيه من نفع غير مُكثر ولا مقصر.

وعقله المدرك لمصيره بقابل حياته في قابل عمره، فهو يُعدُّ نفسه للتجارة عمل قومه، ومُكْتَسَب أرزاقهم ومنشط قواهم، فألحَّ على عمه أبي طالب أن يأخذه معه إلى الشام في قافلة تجارة قريش، ليكون على خبرة بالصَّفْق[1] في الأسواق، وليتعلم المصادر والموارد، ذلك وهو في الثانية عشرة من عمره حتى إذا عاد من هذه الرحلة المباركة، عاد وقد امتلأ عقله تجربة، فيمارس التجارة صغرت بضاعته أو كبرت، وهو على بينة من أمرها، عليم بأسواقها، والرائج منها والكاسد.

ولكمال عقله كان الشاب التاجر يحضر مجتمعات قريش، فهو يحضر ندوتها فاحصًا ما يقال فيها من حق يرضاه، وباطل يجفوه ولا يقرُّه، ويحضر حلف الفضول، ويرى لعقله الكامل المدرك أنه لا يسرُّه به حُمْرُ النَّعم[2]، ولا يرى نصرة للحق أقوى منه، ولو دُعي به في الإسلام بعد أن عمَّ الحق لأجاب تكريمًا له وإعلاءً لقدره.

وهكذا نراه قد أوتي عقلًا مدرِكًا مذ كان صغيرًا، وليس هذا فحسب؛ بل عمل على تغذيته بالتجارب والاتصال بالمجتمع؛ ليعرف خيره وشره، ويعمل على علاج أدوائه، إن واتاه الله ﷺ بفضل من عنده.

إننا ونحن نتكلم عن قوته العقلية النافذة إلى الحقائق، لا إلى الظاهر نتعرض لنفوره من التقليد غير المبني على دليل؛ فهو الذي نفر من عادات الجاهلية التي كانت تُحرِّم وتحلِّل من غير بينة ولا علم قائم على الحقائق المقرَّرة الثابتة، فلم نره يسجد لصنم قط؛ لأن حكم العقل يتقاضاه ألا يسجد لمن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ويكره ذكر الأصنام وعبادتها، فيستحلفه الراهب باللات والعزى، فيقول الغلام: ما كرهت شيئًا كما كرهتهما، ويختلف مع تاجر، فيستحلفه التاجر باللات والعزى، فيمتنع، فيسلِّم له التاجر بحقه من غير حلفه لأمانته.

ولقد علمت قريش كلها بكمال عقله، وقوة إدراكه، فرضيت به حَكَمًا، ساعة أن احتدم الجدل، وكادت السيوف تُمتَشَق[3]، والمعارك أن تنصب، فلما نادته القرعة أن أقدم، وافصل بين الناس بالحق، رضوا بحكمه؛ لأنه سيكون حكم العقل والحق - وأنَّى لشخص غير عاقل أو حكيم أن يهتدي إلى الحكم الذي يرضيهم جميعًا؟ - فيشركهم جميعًا في فضل حمل الحجر الأسود إلى موضعه من غير مشاحَّة ولا خصومة ولا تفاضل بينهم، ويحمله هو بيده ابتداءً فلا ينازعونه

١. الصَّفْق: البيع.

٢. حُمْر النَّعَم: الإبل الحمراء، وهي من أجود أنواع الإبل.

٣. تُمتَشق: تُستَل.

لفضل عقله، ثم يحمله هو وحده انتهاء ويضعه في موضعه بيديه الكريمتين، فيرضون ما يفعل.

ولكمال عقله لم يخض مع الخائضين في العصبية الجاهلية، فلم ينطق بها، ولم يجادل حولها، وكان يحب الوئام والسلام، ولا يحب الحرب والخصام؛ لذا لم يشارك في حرب الفجار، إلا بتنصيل السهام[1] عن أعمامه حماية لهم ورحمة بهم، بموجب الرحم الواصلة، لا بموجب الحرب التي أُحِلَّت فيها الحرمات والأشهر الحرم.

وإنه من المؤكد أن محمد بن عبد الله ﷺ كبح جماح هواه طول حياته قبل البعثة، فلم يفعل ما يفعله الغلمان وهو غلام، ولا ما يفعله الشبان في باكورة شبابه، ولا بعد أن صار رجلا سويًّا؛ فقد اكتملت أخلاقه كما اكتمل جسمه، فكان القوى الذي يسيطر على أهوائه، فلا ينحرف مع هوى، ولا تجمح به شهوة.

ومعلوم أنه متى ضعف سلطان الهوى؛ قَوِي سلطان الحق، وإذا قَلَّت حِدَّة الشهوة؛ استقام حكم العقل، فالعقل حكمه يناقض حكم الهوى والشهوة، والعاقل السيد هو الذي يسيطر على أهوائه وشهواته ويكون عقله هو المسيطر، وما تَضِلُّ العقول إلا إذا داخلت النفوسَ الأهواءُ وعكَّرت صفاءها، فمحمد بن عبد الله ﷺ كان أعقل قريش؛ لأنه الرجل الذي لم يسيطر عليه هوى كسائر سادات مكة.

وقد قال القاضي عياض في فضل عقله ﷺ وآثاره في الإسلام: "أما وفور عقله، وذكاء لبِّه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أَمْرَ بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديع سِيَره، فضلًا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع، دون تعلم سبقَ، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه - لم يمتر[2] في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا مما لا يُحْتاج إلى تقريره لتحققه".

ولقد قال وهب بن منبه: قرأت في أحد وسبعين كتابًا، فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلًا، وأفضلهم رأيًا. **ويقول ابن كثير**: "معلوم لكل ذي لب أن محمدًا ﷺ من أعقل خلق الله ﷺ، بل أعقلهم وأكملهم على الإطلاق في نفس الأمر".

إن مظاهر عقله ﷺ بدت واضحة بعد البعثة في سياسة رعيته، فقد كان الله يوحي إليه بالأحكام الشرعية، وما يجب من الرفق بالرعية، والأخذ على يد الظالم، وحماية الحق من الباطل، ويترك الرسول ﷺ ينفذ الحق في رعيته بالمسلك الذي يسلكه مختارًا، مسددًا، فإن تبيّن خطأٌ نبهه ﷺ إليه إذا كان أمرًا متصلًا ببيان الشريعة وأحكامها.

وإنه في الأمر الذي تركه ﷺ له بدا عقل النبي ﷺ في إحكام التدبير وكياسة الحكيم، وبهذا الإحكام وتلك الكياسة استقبل النبي ﷺ رسالة ربه، وأدار المدينة الفاضلة التي قامت على حكم الله ﷺ وأمره ونهيه، ونُفِّذَت فيها النظم الإسلامية[3].

---

١. تنصيل السهام: ركَّب فيها أنصالها، وهي رءوس السهام.

٢. لم يَمْتَرِ: لم يجادل.

٣. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص١٦٢: ١٦٥ بتصرف يسير.

وإذا أردنا أن نُدَلِّل على ذكاء النبي ﷺ وقوة مناقشاته التي أقام فيها الحجَّة على الآخرين، واستخدامه للحكمة في الأمر والنهي، وما منحه الله من مَلَكَة الإقناع التي تَشِي بفهم خارق وذكاء حادٍّ ـ لطال بنا المقام، وحسبنا الإشارة هنا إلى بعض من تلك النماذج والتي منها:

- ما جاء عن أبي أمامة ﷺ: أن فتًى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مَهٍ[1]، فقال: "ادنُ"، فدنا منه قريبًا، قال: "اجلس"، فجلس، قال ﷺ: "أتحبه لأمك"؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لأمهاتهم"، قال ﷺ: "أفتحبه لابنتك"؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم"، قال ﷺ: "أفتحبه لأختك"؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم"، قال ﷺ: "أفتحبه لعمتك"؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم"، قال ﷺ: "أفتحبه لخالتك"؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، فقال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم"، قال: فوضع يده ﷺ عليه ثم قال: "اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وأحصن فرجه"، قال: فلم يكن ـ بعد ـ ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[2].

- ومن نقاشه مع وفد نصارى نجران كما ترويه كتب السيرة في أمر عيسى ﷺ: قالوا: من أبوه؟ أي: عيسى، يريدون أن يقيموا الحجة بهذا السؤال على أنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقد ردَّ القرآن عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (آل عمران).

وردَّ عليهم رسول الله بقوله: "ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء"؟ قالوا: بلى، قال: "ألستم تعلمون أن ربنا قَيِّم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه"؟ قالوا: بلى، قال: "فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا"؟ قالوا: لا. قال: "فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم"؟ قالوا: لا. قال: "ألستم تعلمون أن ربنا صوَّر عيسى في الرحم كيف يشاء؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث"؟ قالوا: بلى. قال: "ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِّي كما يُغذَّى الصبي، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث"؟ قالوا: بلى. قال: "فكيف يكون هذا كما زعمتم"؟!

وبعد، فقد كانت هذه بعض نماذج من مناقشاته التي كان يقيم بها الحجة على الآخرين بالبساطة المقنعة والفصاحة الآسرة[3].

ومن ثَمَّ فإننا لا نبالغ أبدًا إذا قلنا: إن محمدًا ﷺ كان أرجح الناس عقلًا، وأفصحهم لسانًا وبيانًا، فقد توفَّر له من كمال العقل ما لم يتوفر لأحد من العالمين، ويكفي

---

١. مَهٍ: اسم فعل أمر، معناه: اكفف.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو بن وهب الباهلي عن النبي (٢٢٢٦٥)، والطبراني في المعجم الكبير، باب الصاد، صدي بن العجلان أبو أمامة الباهلي (٧٦٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٠).

٣. الرسول ﷺ، سعيد حوَّى، مرجع سابق، ص١١٢: ١٢٠.

أنه استطاع بهذا العقل الراجح أن يَسُوس العرب وهم كالوحش الشارد، والطبع المتنافر المتباعد، واحتمل جفاهم، وصبر على أذاهم، إلى أن انقادوا إليه واجتمعوا عليه[1] ®.

ثانيًا. الحِكَم التي تقف وراء تكرار الأمر بالقراءة من لدن جبريل عليه السلام:

إنَّ جبريل عليه السلام ما كَرَّر أمر النبي ﷺ بالقراءة - بترديد الأمر: "اقرأ" ثلاثًا - إلا لمقاصد وحِكَم جليلة، منها ما يأتي:

- إيناس النبي ﷺ بالقراءة التي لم يكن يعلمها، والتأكيد بأن حدثًا جديدًا سيتعرّض له النبي ﷺ اقتضى تكراره؛ لأهميته من جهة، وليألفه النبي ﷺ من جهة أخرى.

يقول الطاهر ابن عاشور: في تفسيره لآية: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ (العلق)، "وافتتاح السورة بكلمة "اقرأ" إيذان بأن رسول الله ﷺ سيكون قارئًا، أي تاليًا كتابًا بعد أن لم يكن قد تلا كتابًا، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ (العنكبوت: ٤٨)، أي: من قبل نزول القرآن الكريم؛ ولهذا قال النبي ﷺ لجبريل حين قال له اقرأ: "ما أنا بقارئ"، وفي هذا الافتتاح براعة استهلال للقرآن الكريم.

وقوله تبارك وتعالى "اقرأ" أمر بالقراءة، والقراءة نطق بكلام معين مكتوب أو محفوظ عن ظهر قلب، والأمر بالقراءة مستعمل في حقيقته من الطلب لتحصيل فعل في الحال، أو الاستقبال، فالمطلوب بقوله "اقرأ" أن يفعل القراءة في الحال أو المستقبل القريب من الحال، أي: أن يقول ما سَيُمْلَى عليه، والقرينة على أنه أُمر بقراءة في المستقبل القريب أنه لم يتقدم إملاء كلام عليه محفوظ فتطلَّب منه قراءته، ولا سُلِّمت إليه صحيفة فتطلب منه قراءتها، فهو كما يقول المعلم للتلميذ: اكتب، فيتأهب لكتابة ما سيمليه عليه"[2].

- بيان أهمية هذا الدين وعظمته وشدة الاهتمام به، وبيان للأمة أن دينها الذي تتنعَّم به ما جاءها إلا بعد شدة وكرب، وأن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن والقوانين الطبيعية حيث تلقَّى النبي ﷺ كلام الله - القرآن - بواسطة الملك جبريل عليه السلام وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني أو الاستشعار الداخلي، بل إن الوحي يتم من خارج ذات النبي ﷺ، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحَى وتبليغه، وأما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي كما يظهر في أحاديثه وأقواله ﷺ.

- التأكيد على أن الوحي إنما كان بالتلقِّي الخارجي ولم يكن نابعًا من ذات النبي ﷺ، بوجود مُلْقٍ - جبريل عليه السلام - ومتلقٍّ - النبي محمد ﷺ -، ولعل في تكرار الأمر وتكرار جواب النبي محمد ﷺ ما يبرز هذه الثنائية، ومعلوم أن "محمدًا ﷺ وهو في غار حراء فوجئ

---

1. انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٧، ص١١.

® في **"كمال عقل النبي ﷺ ورجاحته"** طالع: الشبهة الخامسة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة السادسة عشرة، من هذا الجزء.

2. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٥، ج٣٠، ص٤٣٥.

بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له: اقرأ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمرًا ذاتيًّا داخليًّا مرده إلى حديث النفس المجرّد، وإنما هو استقبال وتلقٍّ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس، وداخل الذات، وضم الملك إياه، ثم إرساله ثلاث مرات قائلًا في كل مرة: اقرأ، يُعَدّ تأكيدًا لهذا التلقِّي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يُتَصوّر من أن الأمر لا يعدو كونه خيالًا داخليًّا فقط"[1].

ويستبين لنا من ذلك أن ليس الأمر كما توهمه هؤلاء الزاعمون، وأن ما كان من تكرار جبريل فعل الأمر "اقرأ" على مسامع النبي ﷺ ليس لقصر فهمه ﷺ وحاشا لله أن يكون كذلك؛ بل ثمة حكم ومقاصد ـ كما ذكرنا ـ جهلها هؤلاء أو تجاهلوها.

الخلاصة:

- إن مهمة الأنبياء والرسل هي إقامة الحجة على البشر ـ كل البشر ـ، ومعلوم أن البشر يتفاوتون ذكاءً وعلمًا، فمنهم رجل الدين والسياسي والاقتصادي والطبيب وغيرهم، ولا بد أن يتوافر للنبي ـ أي نبي ـ من الذكاء والفطنة ما يقيم به الحجة على هؤلاء جميعًا وما يمكِّنه من مناقشتهم ومجادلتهم، ونحن إذا تأملنا حياة محمد ﷺ وجدناه قد بلغ ذروة الذكاء والفطنة، حتى إن قومه قد حكَّموه في وضع الحجر الأسود حين عجزت عقولهم عن حل هذه المشكلة العويصة، كما استطاع ﷺ أن يقيم الحجة على كل من خالفوه وتصدوا لدعوته سواء كانوا مشركين أم أهل كتاب، فهل يُوصف رجل مثل هذا بقصور الفهم؟!

- إن تكرار جبريل للنبي ﷺ الأمر بالقراءة لم يكن مردُّه إلى قصور فهم النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ وإنما كان ذلك لمقاصد وحكم جليلة، منها:
  - إيناس النبي ﷺ بالقراءة التي لم يكن يعلمها.
  - التأكيد على ثنائية المُلْقي والمتلقي، وأن الوحي ليس حديثًا نفسيًّا، ولكنه من لدن الحكيم العليم بواسطة جبريل عليه السلام.

الشبهة الثامنة عشرة

الزعم أنه ﷺ كان ضعيف الحُجّة لا يقوى على النقاش، متهوِّرًا يتصرف بلا حكمة(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغالطين أن النبي ﷺ لم يكن يملك القدرة على المناقشة والمحاجّة، وأنه كان متهورًا تنقصه الحكمة؛ ويستدلون على ذلك بأنه لم تكن لديه طريقة منظَّمة أو أفكار مرتبة في المجادلة، بل كان يقع كثيرًا في التكرار المعيب، والابتعاد عن الموضوع الذي هو بصدده؛ عجزًا منه عن صوغ الحجة المناسبة، وبأن أصحابه كثيرًا ما كانوا يشكّون في أقواله، كما في حديثه عن معجزة الإسراء، أو يحارون في تعليل تصرفاته المتهوِّرة ـ في زعمهم ـ كما في مسلكه في صلح الحديبية

---

1. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص١٠٠.

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

وهم بذلك يطعنون في عصمته ﷺ وحكمته ورجاحة عقله.

وجوه إبطال الشبهة:

١) كان النبي ﷺ أفصحَ العرب وأقواهم حُجَّةً وأقدرهم على الإقناع، وقد شهد له العرب بذلك، ولا عجب؛ فقد كان ﷺ من قريش، ونشأ في بادية بني سعد، وقد أوتي جوامع الكلم.

٢) كان الصحابة ذوي إيمان راسخ، فما حدث أن شك واحد منهم في حديث الإسراء ولا في غيره من كلامه ﷺ، ولم يكن نبيهم شخصًا مندفعًا غريب الأطوار - كما يزعمون - حتى تحيِّرهم تصرفاته وقراراته أو يحتاج إلى من يرشد تصرفاته.

٣) كان الرسول ﷺ مثالًا رائعًا لرجل الدولة الحكيم والسياسي البارع والقائد الناجح المتبصّر بدقائق الأمور القادر على معالجة المشكلات بالحكمة ورجاحة العقل، وإن موقفه في صلح الحديبية ليؤكد ذلك كله.

التفصيل:

أولا. كان النبي ﷺ أفصح العرب، وأقواهم حجة، وأقدرهم على الإقناع:

كان النبي ﷺ أفصح العرب، وهذا ما كانت تعرفه العرب له ﷺ، ويعرفه هو لنفسه؛ ولهذا كان ﷺ يقول: "أعطيت فواتح الكلم وخواتمه"[1].

فصاحته ﷺ وبلاغته:

يصف القاضي عياض فصاحة رسول الله ﷺ فيقول: "وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل، سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلُّف، أُوتي جوامع الكلم، وخُصَّ ببدائع الحِكَم، وعُلِّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورُها بلغتها، ويباريها في مَنزِع بلاغتها، حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله".

ولو كان فيهم أفصحُ منه لعارضوه به، فقد كان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعُه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوَّجُه في بني أسد، ومهاجَرَتُه إلى بني عمرو: وهم الأوس والخزرج، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة.

فكان ﷺ يعلم كل ذلك على حقه - أي لغات العرب على اختلاف مواطنهم واشتراك اللغات وانفرادها بينهم - كأنما تكاشِفُه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا، وأسدّهم لفظًا، وأبينهم عبارة، ولم يُعَرف ذلك لغيره من العرب.

وتصف أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بيان الرسول ﷺ، فتقول: "ما كان رسول الله ﷺ يسرِدُ[2] كَسَرْدِكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بَيِّنٍ فَصْلٍ،

---

١. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلوات، باب من كان يعلم التشهد ويأمر بتعليمه (٢٩٩٨)، وأبو يعلى في مسنده، حديث السيدة ميمونة زوج النبي ﷺ (٧٢٣٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٨٣).

٢. يسرد الحديث: يتابعه بلا توقف.

يحفظه من جلس إليه"[1].

وتصف أم معبد كلام الرسول ﷺ ـ وأم معبد هذه التي كان قد قابلها الرسول ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة ـ، فتقول: "حلو المنطق، فَصْل، لا نَزْر ولا هَذْر[2]، كأن منطِقَهُ خَرَزَاتٌ نُظِمْنَ، وكان جَهِير الصوتِ حَسنَ النَّغْمَةِ ﷺ"[3].

وكان الرسول ﷺ لا يحب الكلام الكثير بل على العكس ذم كثرة الكلام والثرثرة، فقد رُوي عنه ﷺ أنه قال: "إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون[4] والمتشدِّقون[5] والمتفيهقون"[6][7].

ويذكر الجاحظ كلام الرسول ﷺ فيقول: هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثرت معانيه، وجَلّ عن الصنعة ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله ﷻ على لسانه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ (ص).

لقد عاب التشْديقَ، وجانب أصحاب التقْعِيب[8]، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجَرَ الغريبَ الوحْشِي، ورغب عن الهَجِين السُّوقي، فلم ينطق إلا عن ميراثِ حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغَشَّاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زَلَّت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يَقُمْ له خصم، ولا أفحمَه خطيب، بل يبذّ[9] الخُطَب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلْج[10] إلا بالحق، ولا يستعين بالخَلابة[11]، ولا يستعمل المواربة[12]، ولا يَهْمِز[13] ولا يَلْمِز[14]، ولا يبطئ ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِب[15] ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قطُّ أعمّ نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح من معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه ﷺ.

---

1. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة (٢٦٢٥٢)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في كلام النبي ﷺ (٣٦٣٩)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (١٩١).
2. لا نَزْر ولا هَذْر: متوسط، لا قليل ولا كثير.
3. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب الحاء، حبيش بن خالد الخزاعي (٣٦٠٥)، والحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، كتاب الهجرة (٤٢٧٤).
4. الثَّرثار: كثير الكلام بلا داعٍ.
5. المُتشدِّق: الذي يتكلم بجانب فمه ويتكلف الكلام.
6. المُتفيهِق: المتوسِّع في الكلام الفاتح فمه للتفصُّح.
7. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب معالي الأخلاق (٢٠١٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٦٣).
8. التقْعِيب: التكلم بأقصى الحَلْق وفتح الفم.
9. يبذُّ: يغلب.
10. الفَلْج: الظَفَر عن طريق الحجة.
11. الخَلابة: الخديعة بِرفْق في الحديث.
12. المواربة: المداراة.
13. يَهْمِز: يغتاب.
14. يَلْمِز: يعيب الناس في وجوههم.
15. يُسهِب: يُطيل.

وتقترن صفة البلاغة بصفة الفصاحة في كلام الرسول ﷺ كما يذكر الماوردي فيقول: "إن كلامَه جامعٌ لشروط البلاغة ومعرِبٌ عن منْهَج الفصاحة، ولو مُزِجَ بغيره لتميَّز بأسلوبه، ولظهر فيه آثار التنافر فلم يلتبس حقه من باطله، ولَبان صدقه من كذبه، هذا ولم يكن متعاطيًا للبلاغة، ولا مخالطًا لأهلها، من خطباء أو شعراء أو فصحاء، وإنما هو من غرائز فطرته، وبداية جِبِلّته[1]، وما ذاك إلا لغاية تُراد، وحادثةٍ تُشاد".

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه وحكمه المأثورة، فقد ألَّف الناس فيها الدواوين، وجُمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يُوازَى فصاحةً ولا يُبارَى بلاغةً، كقوله ﷺ: "المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم"[2]، و"المرء مع من أحب"[3]، و"الناس معادن"[4]، و"المستشار مؤتمن"[5]، و"رحم الله عبدًا قال خيرًا فغنم، أو سكت فسلم"[6]. وقوله: "أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين"[7]. و"إنّ أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطَّأون أكنافًا[8]، الذين يألفون ويؤلفون"[9]. وقوله: "اتق الله حيث كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[10][11].

فلقد كان الرسولُ ﷺ أفصح خلق الله تعالى لسانًا، وأوضحهم بيانًا، أوتي جوامع الكلم وبدائع الحِكَم، وقوارع الزجر، وقواطع الأمر، والقضايا المحكمة، والوصايا المبرمة، والمواعظ البالغة، والحجج الدامغة،

---

١. الجِبِلَّة: الطبيعة.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب ؓ (٩٩٣)، وأبو داود في سننه، كتاب الديات، باب أيقاد المسلم بالكافر (٤٥٣٢)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٢٠٩).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله ﷻ (٥٨١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٦٨٨٨).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ (يوسف) (٣٢٠٢)، ومسلم في صحيحه، فضائل الصحابة، باب خيار الناس (٦٦١٥).

٥. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن (٣٧٤٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في المشورة (٥١٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٠٠).

٦. حسن: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب، باب رحم الله عبدًا قال فغنم أو سكت فسلم (٥٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، فصل في فضل السكوت عن كل ما لايعنيه وترك الخوض فيه (٤٩٣٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٥٥).

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٨. المُوَطَّأون أكنافًا: الذين لا يُؤذون من يصاحبهم.

٩. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق، باب حسن الخلق (٢٠١٥٣)، والطبراني في المعجم الصغير، حرف العين، من اسمه عبد الله (٦٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٥١).

١٠. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبي بن كعب ؓ (٢١٣٩٢)، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب معاشرة الناس (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧).

١١. البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٥٥ وما بعدها.

والبراهين القاطعة، وقد تحدث عن نفسه في هذا الميدان فقال: "أعطيت فواتح الكلم وخواتمه"[١].

لقد أوتي من الأسلوب السهل المُعْجِز ما لم يُؤت معلم ولا متعلِّم ممن دَانَت لهم العربية، وملكوا زِمامَها، فله جوامع الكلم وبدائع الحكم في لفظ ناصع وقول جزل، ومعانٍ صِحاحٍ خَالدة في عبارات مُضيئة مُشْرِقة لا تكلّف فيها، ومن ثم فلم يكن النبي ﷺ عاجزًا عن المناقشة والمحاورة كما يزعمون.

براعته ﷺ في المحاورة:

لقد كان ﷺ يُقابل الحجة بالحجة، والدليل بالدليل حتى يُقنعَ صاحبه بدعواه، ولو أردنا أن نستشهد بالأدلة من سيرته العطرة لطال بنا المقال، ولكننا نكتفي بموقف واحد من سيرته يبين لنا قدرته ﷺ على مجاراة الخصم ومقابلة حجته بالحجة، وذلك ما حدث بينه ﷺ وبين عتبة بن ربيعة عندما ذهب إليه عتبة ليقنعه بترك الدعوة، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فَرَّقت به جماعتهم وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

قال ﷺ: "قُلْ يا أبا الوليد أَسمع"، قال أبو الوليد: يا ابن أخي، إن كنتَ تُريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنتَ تُريد به شرفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنتَ تُريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرِئَك منه، فإنه ربما غَلَب التابعُ على الرجل حتى يُداوَى منه.

فسأله الرسول ﷺ: "أقد فرغت يا أبا الوليد"؟ قال: نعم، فقال له ﷺ: "فاسمع مني"، وتلا من سورة فُصِّلت، وكان عتبة ينصت إلى الرسول ﷺ حتى وصل إلى قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (فصلت)، فسجد الرسول ﷺ، ثم قال لعتبة: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك"[٢].

وما سبق يدل على أن الرسول ﷺ لديه القدرة على المحاجة بدليل أن عتبة أتى ليقنعه ﷺ بترك الدعوة؛ ولكنه حوّل الموقف لصالحه ﷺ، وشهد عتبة له بالصدق ونفى عنه أن يكون ساحرًا أو شاعرًا أو كاهنًا، عندما ذهب إلى أصحابه، وسألوه: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني قد سمعتُ قولًا، والله ما سَمعتُ مثلهُ قطُّ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل، وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لِقوله

١. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلوات، باب من كان يعلم التشهد ويأمر بتعليمه (٢٩٩٨)، وأبو يعلى في مسنده، حديث ميمونة زوج النبي ﷺ (٧٢٣٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٨٣).

٢. حسن: أخرجه محمد بن إسحاق في السيرة (١٨٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٧٩)، وحسنه الألباني في فقه السيرة، ص١٠٦.

الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإن تُصِبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب فملكُه ملكُكم، وعزُّهُ عزُّكم، وكنتم أسعدَ الناس به.

فقالوا له: سَحَرك والله[1].

فهذا أكبر دليل على قدرة النبي ﷺ على المحاجّة، ومُجاراة الخصم، وعلى حكمته ﷺ في المناقشة، مما يبطل افتراءات هؤلاء المغالطين.

ثانيًا. كان الصحابة ذوي إيمان راسخ، فلم يشكّ أحد منهم في شيء من حديث النبي ﷺ، أو يطعن في مسلك من تصرفاته ورأيه:

لقد كان إيمان أصحاب الرسول ﷺ برسالته أرسخ من الجبال الراسيات، وما كان يختلج بصدورهم أي شيء من الشك، أو الريب في صدقه ﷺ علمًا منهم بأنه ما كان ينطق عن الهوى، وإنما هو الوحي يُوحَى إليه من عند الله، وآية ذلك أنهم كانوا يضعون أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، وكل ما يملكون من قوة فداء له ﷺ وتأييدًا لدينه.

ونظرة عامة على ما قام به الصحابة من غزوات معه ﷺ تبيِّن ذلك أوضح بيان، فلو كان الصحابة تنطوي قلوبهم على شك أو ريب فيما يقوله ﷺ لما استماتوا في نصرته، ولأعقب ذلك حتمًا تفككهم وانفصام عُرَى اجتماعهم، مع أن الذي ثبَّتهم وأوجب لهم خلافة الله في الأرض؛ أنهم كانوا من الترابط والتماسك بحيث لا تفصم وحدتَهم أشدُّ الخطوب تأثيرًا في النفوس.

فقد مروا سنين على ضروب من المحن كان يكفي بعضها لحل أية جماعة تتعرض لها، حتى مدح الله إخلاصهم هذا، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ (آل عمران)، فلو كان أصحاب النبي ﷺ يشكُّون في أقواله لما صدرت منهم هذه العزمات التي دكت الجبال الشم، وغيّروا بها خريطة العالم في سنوات معدودة[2]، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن البشرية لم تشهد رجلًا مطاعًا مثلما كان محمد ﷺ مطاعًا في أصحابه، ولا قومًا صدّقوا نبيهم مثلما صدق أصحاب محمد ﷺ نبيهم.

حادثة الإسراء:

أما حادثة الإسراء التي يزعم هؤلاء أن أصحاب النبي ﷺ قد شككوا وارتابوا في حديثه عنها، فإنها لم تزدهم إلا إيمانًا على إيمانهم، وتصديقًا على تصديقهم، وهذه سيرة النبي ﷺ بين أيدينا لم يرد بها أي شك أو ريب على لسان أحد من أصحاب النبي ﷺ، ولكن من ورد على ألسنتهم الشك والتكذيب هم المشركون أعداء النبي ﷺ.

وماذا يُنتظر من قوم قد أنكروا فضل خالقهم عليهم، ألا ينكرون ويكذبون محمدًا ﷺ فيما يقول؟! فما بالنا والحديث عن أمر يفوق تصوراتهم؟! فمعجزة الإسراء تفوق تخيلات البشر وتصوراتهم، لذا أعرض عن النبي ﷺ المشركون ومعهم ضعيفو الإيمان من المسلمين الذين كانوا على حرف.

---

١. مع المصطفى، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص٧٢: ٧٤ بتصرف.

٢. مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٩٧، ٩٨ بتصرف.

لقد كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته ﷺ بسنة، فلما رجع الرسول ﷺ من رحلته المباركة أخبر قومه بذلك، فقام في مجلس حضره المطعم بن عدي، وعمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، فقال ﷺ: "إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس، فنشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، وصليت لهم وكلَّمتهم".

فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صِفْهم لي، فقال رسول الله ﷺ: "أمّا عيسى، ففوق الرَّبْعَة[1]، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جَعْد[2]، أَشعَر[3] تعلوه صُهبَة[4]، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، وأما موسى فضخم آدم[5]، طوال، كأنه من رجال شنوءة، متراكب الأسنان، مُقلَّص الشفة[6]، خارج اللثة، عابس، وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي، خَلقًا وخُلقًا".

فقالوا: يا محمد صف لنا بيت المقدس، قال: "دخلت ليلًا، وخرجت منه ليلًا"، فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: "باب منه كذا، في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا".

ثم سألوه عن عيرهم، فقال لهم: "أتيت على عير بني فلان بالروحاء، قد أضلوا ناقة لهم فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك"، قالوا: هذه والله آية، قال: "ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبل، وبرك منها جمل أحمر، عليه جُوالِق[7]، مخطط ببياض، لا أدري أكُسر البعير أم لا؟ فاسألوهم عن ذلك"، قالوا: هذه والله آية، ثم قال: "ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمها جمل أَوْرَق[8]، وها هي تطلع عليكم من الثنية"، فقال الوليد بن المغيرة: ساحر، فانطَلَقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال، فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال.

وذهب بعض الناس إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أوقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمّي أبا بكر الصديق.

لقد جاءت حادثة الإسراء والمعراج على قَدَر من رب العالمين، فيعرج به من دون الخلائق جميعًا، ويكرمه على صبره وجهاده، ويلقي به مباشرة دون رسول ولا حجاب، ويُطلعه على عوالم الغيب، دون الخلق كافة، ويجمعه مع إخوانه من الرسل في صعيد واحد فيكون الإمام والقدوة لهم، وهو خاتمهم وآخرهم، فلقد جعل الله ﷻ هذا الاختبار والتمحيص ليخلص الصف من الضعاف المترددين، والذين في قلوبهم مرض، ويثبِّت المؤمنين الأقوياء، والخُلَّص الذين لمسوا عيانًا صدق

١. الرَّبْعة من الرجال: بين القِصَر والطول.
٢. الجَعْد: السيد الكريم.
٣. الأشعَر: كثير شعر البدن.
٤. الصُّهبَة: الحُمرة التي تعلوها سواد.
٥. الآدم: الأسمر.
٦. الشَّفَة المُقلَّصَة: المرتفعة.
٧. الجُوالِق: وعاء من صوف أو شعر أو غيرها.
٨. الأورَق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد.

نبيهم ﷺ بعد أن لمسوه تصديقًا، وشهدوا مدى كرامته على ربه.

ولقد ضرب الرسول ﷺ أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل، فقد واجههم ﷺ بأمر تنكره عقولهم، ولا تدركه في أول الأمر تصوراتُهم، وتلقَّى نكيرهم واستهزاءهم بالحلم والصبر عليهم، وكانت حكمة النبي ﷺ في إقامة الحجة عليهم بأن حدَّثهم عن إسرائه إلى بيت المقدس وأظهر الله له علامات تلزم الكفار بالتصديق.

وهكذا رأينا أن المكذبين لحديث النبي ﷺ عن الإسراء هم المشركون المنكرون لنبوته ﷺ، لا أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ؛ لأن تصديقهم لنبيهم ﷺ وإيمانهم به كان كالجبال الراسيات التي لا تزلزلها المحن.

ثالثًا. كان رسول الله ﷺ مثالا رائعًا لرجل الدولة الحكيم والسياسي البارع والقائد الناجح المتبصِّر بدقائق الأمور القادر على معالجة المشكلات بالحكمة ورجاحة العقل:

لقد كان الرسول ﷺ مثالًا رائعًا لرجل الدولة الحكيم والسياسي البارع، والقائد الناجح المتبصِّر بدقائق الأمور القادر على معالجة الحوادث بالحكمة، وهذا كله دليل على ما كان يتمتع به ﷺ من رجاحة العقل وسداد الرأي.

ومن دلائل صدق نبوته تلك السياسة الواعية الحكيمة التي عُرف بها ﷺ. يقول الإمام الماوردي: "وقد دل على وفور ذلك فيه ـ رجاحة العقل ـ صحة رأيه، وصواب تدبيره، وحسن تَأَلُّفِه، وأنه ما استفعل في مكيدة ولا استعجز في شديدة، بل كان يلحظ الأعجاز[1] في المبادئ فيكشف عيوبها ويحل خطوبها، وهذا لا ينتظم إلا بأصدق فهم وأوضح جزم".

والشواهد على حسن سياسته، وحكمته في تدبير الأمور كثيرة ومتعددة، ومن ذلك بناؤه للمسجد منذ الأيام الأولى من وصوله للمدينة المنورة، إذ أَحسَّ بثاقب بصره أنه لا بد من إيجاد القاعدة الأساسية للدعوة إلى الله، وأداء العبادة، فشرع في بناء المسجد ليكون مكانًا للعبادة، ومركزًا للدعوة ومقرًّا للسلطة التنفيذية، والقيادة العليا، حيث يلتقي القائد فيه مع أتباعه ينصحهم ويشرِّع لهم ويشاورهم في مهام الأمور، كما يلتقي مع الوفود القادمة إليه، ويدعوهم إلى الإسلام، وكان ـ أيضًا ـ المدرسة التي يتلقَّى فيها الناس العلم النافع، وكان ـ كذلك ـ مُنْطَلَقًا للجيوش التي تتوجه للغزو والفتوح.

ومن حسن سياسته ﷺ ذلك الدستور العظيم الذي وضعه للمجتمع الجديد في المدينة المنورة؛ لتحقيق الأمن والسلام الداخلي والخارجي، لقد ضم المجتمع الجديد عناصر شتى؛ الأوس والخزرج الذين كانوا يعيشون فيها، منهم من دخل في الإسلام، ومنهم من بقي على عبادة الأوثان، ثم اليهود أصحاب الفتن والقلاقل، ثم المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم فرارًا بدينهم، وكان الأعداء يحيطون بها من كل جانب؛ فرأى ﷺ أنه لا بد من وضع دستور واضح المعالم، يبيّن لكل فئة من هذا المجتمع ما لها وما عليها؛ لمصلحة الوطن الذي يعيشون فيه، ولحمايته من الأعداء المحيطين به من كل جانب، فلذا أخذ العهود والمواثيق

١. الأعجاز: مؤخرة كل شيء، والمفرد عَجُز.

على اليهود؛ لاحترام ما جاء في الدستور الجديد والالتزام به، ضامنًا لهم الحرية الدينية وذلك فيما يُسمَّى بـ "وثيقة المدينة".

ومما يدل على حسن سياسته ﷺ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ حرصًا منه على وحدة صف المسلمين، وتلاحمه بعضه مع بعض، وطمسًا لدعوى العصبية التي كانت متفشية بين القبائل العربية، لاقتلاعها من نفوس الجماعة المسلمة.

وقد جعل ﷺ للرجل من قريش أخًا له من الأوس، وللآخر من الخزرج، ولم يزل يؤاخي بين هؤلاء وهؤلاء، ويوثّق الأواصر، حتى لم يبق أحد من المهاجرين إلا وله أخ في الله من الأنصار، ثم غرس في نفوس الجميع معنى الأخوة في الله، التي هي أسمى من كل الروابط، أسمى من رابطة الدم، واللحم، والنسب، والعصبية للبلد، حتى لقد قدّم رباط العقيدة على رباط الدم في الميراث في المرحلة الأولى لقيام الدولة الإسلامية، ونُسخ ذلك فيما بعد، وهذا من أعظم الأسس التي أقيم عليها صرح الدولة الإسلامية الناشئة.

وهذا العمل الجليل الذي قام به ﷺ يؤكد بعد نظره ورجاحة عقله، وخبرته في أمور السياسة؛ لأن قوة الصف من وحدته، وليس أوثق من رباط الأخوة في الله الذي يؤلِّف بين النفوس من شتى البقاع والأصقاع، ويصهرها في بوتقة واحدة قوية مرهوبة الجانب.

ونجد أيضًا من حسن سياسته موقفه الحازم من مسجد الضرار الذي شيده المنافقون؛ ليكون مركزًا لبثّ الفتن في صفوف المسلمين، فسارع ﷺ إلى اقتلاع الداء من جذوره، فأمر بإحراق المسجد وإزالته من على وجه الأرض، ولم تمنعه رقته ورحمته من اجتثاث هذا المنكر من أصوله، وهذا يدل على حكمته البالغة وتدبيره السديد[1].

حكمته في صلح الحديبية:

أما موقفه ﷺ يوم الحديبية فليس فيه أي اندفاع أو تهور كما يزعمون، إذ لو كان مندفعًا ـ كما يزعمون ـ لتبع بعض آراء أصحابه يوم الحديبية، ولدخل مكة عنوة، ولكنه آثر الصلح، وقد رأى أصحابه فيما بعد أن هذا الصلح كان فاتحة خير على الإسلام.

إن من المجمع عليه من صفاته ﷺ أنه كان حكيمًا في جميع تصرفاته، فما خُيِّر بين أمرين قط إلا اختار أرفقهما، وكان قبل أن يبتّ في أمر يستشير فيه أصحابه، فلم يعهد عليه طوال مقامه فيهم أنه دفع بهم في مغامرة، ولا مرة واحدة، وقد وصفه الله في رحمته بقومه بما لم يصف به أحدًا من خلقه، فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة).

ونحن إذا تأملنا موقفًا من سيرته ﷺ وهو موقفه ﷺ يوم الحديبية، لتبيّن لنا مدى حكمته ﷺ ومدى تقديره للأمور، وحذقه ﷺ في عقد المعاهدات.

"فقد كانت قلوب المؤمنين آنذاك تجيش بمشاعر شتى، وتفورُ بانفعالات متنوعة، كان فيها الانتظار والتطلُّع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام، ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول ﷺ

---

1. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم، مرجع سابق، ص٣٥٤: ٣٥٦ بتصرف.

للرجوع عن البيت في هذا العام بعد الإحرام، وبعد إشعار الهدي وتقليده، وكان هذا أمرًا شاقًّا على نفوسهم، ما في ذلك ريب"[1].

لقد كانت الحديبية خطوة للدعاية إلى الإسلام من النبي ﷺ، فقد ذهب إلى مكة بجيش عُدَّته نحو خمسمائة وألف أو يزيدون، وما ذهب ليقتلع مكة كما كانوا يريدون أن يذهبوا هم إلى المدينة المنورة، بل ذهب ليقيم شعائر الله تعالى، ولتعظيم البيت، وعلى ألا يسألوه خطة فيها تعظيم البيت إلا سلكها.

فقد كان ذلك الصلح فتحًا للإسلام؛ إذ لانت قلوب كانت مستعصية، وتفتّحت آذان كأن فيها وَقْر[2] عن سماع الحق، وكان من قريش أنفسهم من يتجه إلى الإسلام ويتعرّف غاياته ومراميه، وأنه الحق والعقل، وملة إبراهيم ، والقبائل التي كانت ترى أمارات النبوة، ولكن تنتظر قريشًا ورأيها في محمد ﷺ، أخذت قلوبهم تُصغِي، وأفئدتهم تتجه نحوه ﷺ، فأسلم الكثيرون، وتهيّأت للإسلام قلوب كثيرين[3]، فهذا كله من فضل ما فعله الرسول ﷺ وبُعد نظره حين وافق على بنود الصلح التي تبدو في ظاهرها مجحفة بحق المسلمين، لكن الواقع أثبت أنها تنطوي على فوائد عظيمة للمسلمين، وهذا يدل على عدم إضاعة الله لرسوله ﷺ، وعلى حكمته ﷺ في معالجة الأمور، وقد صدق ربه إذ قال عنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ (النجم).

لقد كان صلح الحديبية في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة النبوية، وذو القعدة من أشهر الحج، فاعتزم رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه الحج، وكان معه أربعمائة وألف.

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه وهم لا يريدون حربًا، بل يريدون حجًّا جامعًا، ولقد علمت قريش بمجيء الرسول ﷺ ومعه عدد من أصحابه فاعتقدوا أنهم جاءوا للحرب، ولكن النبي ﷺ لم يكن يريد أن يلقى مقاتليهم ولكن يريد أن يحج، ولم تقتنع قريش بأنه ﷺ ما جاء لقتال، إلا بعد أن أرسل الرسول ﷺ رسلًا من عنده إلى قريش، وأتته رسل قريش، فاقتنعت قريش أن محمدًا ﷺ ما جاء لقتال.

ثم بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وقالوا له: ائت محمدًا نصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا.

ولم يمانع النبي ﷺ في قبول ذلك، وإن ضجَّ أصحابه بالرفض، وهم لا يعلمون ما يعلم النبي ﷺ، وما تقتضيه الرسالة، وتحتّمه حكمة الدعوة إلى الإسلام.

وقد اجتمع سُهيل مع النبي ﷺ وتمّ الاتفاق المبدئي على الآتي:

- الرسول ﷺ يرجع من عامه هذا، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام المقبل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثًا، معهم سلاح الراكب، والسيوف في القُرُب، ولا تتعرض قريش لهم بأي نوع من أنواع التعرُّض.
- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٣١٨.

٢. الوَقْر: الصَّمَم، أو الثِّقَل في السمع.

٣. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٣، ص١٠٦٨، ١٠٦٩ بتصرف.

فيها الناس، ويكفُّ بعضهم عن بعض.

- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعدّ القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءًا من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعدّ عدوانًا على ذلك الفريق.

- من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وَلِيِّه - أي هاربًا منهم - ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد - أي هاربًا منه - لم يُرَدّ عليه.

وبعد أن وافق الرسول ﷺ وتم الاتفاق الشفوي وقف عمر رضي الله عنه غضبان أَسِفًا، وقال لأبي بكر: يا أبا بكر، أليس حقًّا برسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نُعطِي الدَّنيَّة في ديننا؟! فقال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه[1]، فإني أشهد أنه رسول الله، فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى عمرُ بن الخطاب رسولَ الله ﷺ فقال له مثلما قال لسيدنا أبي بكر، فردَّ عليه الرسول ﷺ فقال: "أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني"[2]. فعندئذٍ سكن عمر رضي الله عنه وعلم أنه أمر الله تعالى[3].

والنظرة المندفعة العجلَى إلى بنود الاتفاق ومشارطاته ترى فيه غَبْنًا عظيمًا للمسلمين، وتعجب من موافقة النبي ﷺ عليه، ولكن النظر الهادئ، والتأمل الدقيق يوضح ما استفاده المسلمون من فوائد عظيمة بعد هذا الصلح، يشير إلى بعضها الشيخ المباركفوري في تحليله لبنود الصلح فيقول: "هذه هي هُدْنة الحديبية، ومن سَبَرَ أغوار بنودها مع خلفياتها لا يشك أنها فتح عظيم للمسلمين، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أي اعتراف، بل كانت تهدف إلى استئصال شَأْفَتهم، وتنتظر أن تشهد يومًا ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية وبين الناس، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية في جزيرة العرب، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشًا لا تقدر على مقاومتهم.

ثم البند الثالث يدل لفحواه على أن قريشًا نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، لا تهمها الآن إلا نفسها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها، فلا يهم ذلك قريشًا، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل، أليس هذا فشلًا ذريعًا بالنسبة إلى قريش؟ وفتحًا مبينًا بالنسبة إلى المسلمين؟

إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها - بالنسبة إلى المسلمين - مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات، وقد حصل هذا

١. الغرز: في الأصل رِكاب الجمل من الجلد أو الخشب، والكلام هنا على المجاز، أي: اتَّبع قوله وفعله.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من عهد ثم غدر (٣٠١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٤٧٣٣).

٣. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٢، ص٧٤٩، ٧٥٠ بتصرف.

الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحًا كبيرًا في الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة؛ صار عدد الجيش الإسلامي في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثاني فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (التوبة: ١٣).

أما المسلمون فلم يكن المقصود من دوريّاتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش من غطرستها، وصدها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفرقتين يعمل على شاكلته، فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حدٌّ لهذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانهياره.

أما البند الأول فهو حد لصدّ قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضًا فشل لقريش، وليس فيه ما يشفي قريشًا سوى أنها نجحت في الصدِّ لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه الخِلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإزائها على خلة واحدة فقط، وهي ما في البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جدًّا، ليس فيها شيء يضر بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلمًا لا يفرُّ عن الله ورسوله، ولا عن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتدَّ عن الإسلام ظاهرًا أو باطنًا، فإذا ارتد فلا حاجة للمسلمين إليه، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: "إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله"[1]. وأما من أسلم من أهل مكة فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل ـ لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئًا؟ وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله: "ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا"[2].

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش، لكنه في الحقيقة ينبئ عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخورهم، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثني، وكأنهم كانوا قد أحسُّوا أن كيانهم اليوم على شفا جرف هار، لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يستردُّ من فرّ إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلًا على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط"[3].

ولقد أسلم عقب هذه المصالحة عدد من أبطال قريش الذين وجدوا حينئذ وقتًا للتفكير في الإسلام والتأمل في رُوحه بعيدًا عن رحى الحروب، وفي مقدمتهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة وغيرهم.

كما فرغ الرسول ﷺ لمراسلة الملوك والأمراء،

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٤٧٣٢).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٤٧٣٢).

٣. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٣٤٤: ٣٤٦.

والاهتمام بعالمية الدعوة الإسلامية، فانطلقت رسلهُ تحمل كتبًا إلى ملوك الدنيا - آنذاك - تدعوهم إلى الإسلام وتشرح لهم حقيقة رسالة النبي ﷺ ودينه الجديد.

"إن هدنة الحديبية كانت بداية طور جديد في حياة الإسلام والمسلمين، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها في عداء الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام، انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش وغطفان واليهود - ولما كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها في ربوع جزيرة العرب، انخفضت حدة مشاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير؛ ولذلك لا نرى لغطفان استفزازًا كبيرًا بعد هذه الهدنة، وجُلّ ما جاء منهم إنما جاء من قِبل إغراء اليهود.

أما اليهود فقد كانوا جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرًا للدسِّ والتآمر، وكانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ، وتؤجج نار الفتنة، وتُغري الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيِّت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم؛ ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد الهدنة هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر.

كما أن هذه المرحلة التي بدأت بعد الهدنة أعطت للمسلمين فرصة كبيرة، لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها، وقد تضاعف نشاط المسلمين في هذا المجال، وبرز نشاطهم في هذا الوجه على نشاطهم العسكري"[1].

١. المرجع السابق، ص٣٤٩.

وكل هذه المكاسب والفوائد التي حققها المسلمون من وراء صلح الحديبية إنما كانت نتاجًا لحكمة النبي ﷺ، ورأيه المسدَّد، وعزماته الموفَّقة، التي كانت عَلَمًا من أعلام نبوته، وآية من آيات صدقه ومعية الله له. إنه النظر النبوي الثاقب، والرؤية المحمدية المستقبلية التي تقرأ الواقع وتتأمل معطياته، وتنطلق منها لتستشفَّ المستقبل، وتُؤَمِّن له - بإذن الله وتوفيقه - ما يصلحه.

فأين التهور والاندفاع اللذان يتحدث عنهما هؤلاء المشككون؛ ثم أين تردد المسلمين وحيرتهم من تصرف النبي ﷺ يومئذ، نعم لقد ضاقت صدور بعض الصحابة بشروط قريش؛ من رد من يسلم ويأتي محمدًا بغير إذن وليه، ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم، وفي رد صفة رسول الله ﷺ، حيث محاها رسول الله بنفسه وهو يقول: "اللهم إنك تعلم أني رسولك"[2].

وكانت حمية الصحابة لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية (بيعة الرضوان)، ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع، فلم يكن هينًا على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه، وقد بدا هذا في تباطئهم في النحر والحلق، حتى قالها الرسول ﷺ ثلاثًا، وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامتثالًا، حتى إن عروة بن

٢. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ (٣١٨٧)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب الخصائص، ذكر مناظرة عبد الله بن عباس الحرورية واحتجاجه فيما أمكروه (٨٥٧٥)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد.

مسعود الثقفي رسول قريش إلى النبي ﷺ يومئذ، قال لقريش حينما رجع إليها: "يامعشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله لم أر ملكًا قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا"، وعلى الرغم من هذا لم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله ﷺ يفعل هذا بنفسه، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول، وثابوا إلى الطاعة كالذي كان في دهشة المأخوذ.

لا يعدو إذن أن يكون موقف الصحابة موقف المُفاجَأ بغير ما كانت نفوسهم قد خرجت له، وليس موقف المتردد الحائر - كما يزعمون -، ويؤكد هذا أن الله تعالى قد تفضل عليهم بالسكينة لما كان يعلم من قلوبهم، وأن ما جاش فيها جاش عن الإيمان، والحمية الإيمانية لا لأنفسهم، ولا لجاهلية فيهم[1]، يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ (الفتح).

ترى لو شك الصحابة في أوامر النبي ﷺ وتصرفاته، هل كان الله ﷻ يصفهم بالإيمان ويتفضل عليهم بسكينته ويزيدهم إيمانًا مع إيمانهم®؟!

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٣١٦ بتصرف.

® في **"الأدلة على كمال عقل النبي ﷺ"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من هذا الجزء. وفي **"الأدلة على حسن سياسة النبي ﷺ وقيادته"** طالع: الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

الخلاصة:

- كان النبي ﷺ أفصح العرب، وأقواهم حجة، وأقدرهم على الكلام المنطقي المقنع، ولهذا كان ﷺ يقول: "أعطيت فواتح الكلم وخواتمه"[2].
- وكان ﷺ مقتدرًا على المناقشة والمحاورة، يقابل الحجة بالحجة ويقرع الدليل بالدليل، ولهذا فقد قطعَ حُجج المشركين حين فاوضوه على ترك دينه، وبلّغ رسالة ربه بأوجز الألفاظ وأوقعها وأجمعها.
- كان الصحابة ذوي إيمان راسخ، فلم يشُكّ أحدٌ منهم في شيء من حديث النبي ﷺ، أو يطعن في مسلك من تصرفاته ورأيه؛ فقد وضع الصحابة نفوسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما يملكون، فداءً له ﷺ، وتأييدًا لدينه، ومغازي النبي ﷺ ومواقف حياته كلها ناطقة بذلك وشاهدة عليه، ولو كان أحد من الصحابة شاكًّا أو حائرًا لما ضحَّى هذه التضحية أو بذل هذا البذل، ومن ثم فليس صحيحًا أن أصحابه ﷺ كانوا يشكون في شيء من حديثه، كحديث الإسراء والمعراج، وإنما شك في ذلك المشركون وبعض المذبذبين من حديثي الإسلام ممن لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم.
- إن النبي ﷺ لم يكن شخصًا انفعاليًّا غريب الأطوار، حتى يتحيّر أصحابه من مسالكه في قراراته وتصرفاته، ولو كان انفعاليًّا مندفعًا لما أبرم صلح الحديبية، ولدخل مكة عنوة، لكنه كان حكيمًا بعيد النظر، وكانت حكمته هذه فاتحة خير كبير على الإسلام

٢. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلوات، باب من كان يعلم التشهد ويأمر بتعليمه (٢٩٩٨)، وأبو يعلى في مسنده، حديث ميمونة زوج النبي ﷺ (٧٢٣٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٨٣).

والمسلمين.

- إن ما حدث في صدور بعض الصحابة ﷺ من ضيق بشروط قريش المجحفة ظاهرًا - لايعدو أن يكون موقفَ المفاجَأ بغير ما كانت نفسه قد خرجت له، ولم يصدر ذلك منهم ﷺ إلاعن حميتهم الإيمانية.

الشبهة التاسعة عشرة

الطعن في عصمة النبي ﷺ لتعرُّضه للنسيان(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في عصمة النبي ﷺ؛ لأنه كانت تعرض له حالات نسيان - لا سيما حين سُحِر -، ذاهبين إلى أن نسيانه تكرَّر في شئونه الخاصة، فضلًا عن صلاته. وهم يرمون من وراء ذلك إلى القدح في عقل النبي ﷺ ووَعْيِه بما يتنافى مع عصمته.

وجها إبطال الشبهة:

١) ما اتفق له ﷺ من النسيان أيام تعرضه للسحر إنما كان بتأثير الضعف الجسدي الذي لحق به، لا الضعف العقلي، وكان من الأمور العارضة التي لم تستمر إلا عدة أيام.

٢) النسيان الطبيعي الذي هو من خصائص النوع الإنساني ليس مطعنًا في أحد، سواء أكان نبيًّا أم غير نبي.

(*) نقد كتاب "حياة محمد ﷺ"، عبد الله بن علي النجدي القصيمي، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م. .

التفصيل:

أولا. ما تعرض له ﷺ من سحر إنما كان تسلطًا على البدن دون الروح، ولا أثر له على عقله ﷺ:

ما كان يحدث له ﷺ من النسيان في الأيام التي سُحِرَ فيها - وهي قلائل - إنما كان بتأثير الضعف الذي لحق بقواه الجسمية، وليس العقلية، وكان أمرًا عارضًا من أمور الدنيا فقط، وليس من أمور الدين، تأكيدًا لإنسانيته، مع عصمته من أن تتأثر بها روحه، أو وعيه بأمور الدين والتشريع.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سَحر رسولَ الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق، يُقال له: لَبِيد بن الأعصم قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - دعا رسول الله ﷺ، ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: "يا عائشة! أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي، أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب[1]، قال: من طَبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مُشْطٍ[2] ومُشَاطَة[3] وجفِّ طَلْعَة ذَكَر[4]، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أَرْوان".

قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه،

١. المَطبوب: المسحور.
٢. المُشْط: ما يُسرَّح به الرأس واللحية.
٣. المُشاطة: ما يخرج من الشعر عند التسريح.
٤. جفُّ طَلَعَة ذَكَر: وعاء طَلْع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه.

ثم قال: "يا عائشة، والله، لكأن ماءها نُقَاعَة الحِنّاء[1]، ولكأن نخلها رءوس الشياطين"، قالت: فقلت: يا رسول الله! أفلا أحرقته؟ قال: "لا، أما أنا فقد عافاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شرًّا فأمرت بها فدُفِنَت"[2].

قال القاضي عياض: "وقد جاءت روايات هذا الحديث مُبيِّنة أن السحر إنما تسلط على جسده، وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده، ويكون معنى قوله في إحدى روايات الحديث: "حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن"[3]؛ أي: يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن، فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن، ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور.

وهذا مثل ما يعتري الرجل السليم قوي البدن، المحطم للأرقام القياسية في رفع الأثقال، يظن تحطيم رقم قياسي أعلى، وعند محاولة الرفع لا يستطيع، ومثل ذلك أيضًا الإنسان في حالة النقاهة من المرض، يظن أن به قدرة على الحركة، وعندما يهمُّ بذلك لا تحتمله قدماه.

وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيّل إليه فعل الشيء ولم يفعله ونحوه، فمحمول على التخيُّل بالبصر، لا لخلل تطرَّق إلى العقل، وليس في ذلك ما يدخل لبسًا على تبليغه أو شريعته، أو يقدح في صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا فلا مطعن لأهل الضلالة، ثم إنه لم يثبت، بل ولم يرد أنه ﷺ تكلم بكلمة واحدة في أثناء مدة السحر تدل على اختلال عقله ﷺ، ولا أنه قال قولًا فكان بخلاف ما أخبر به، ومن نَفَى فعليه بالدليل - ولا دليل - وكل هذا يوضِّح كيف أخطأ خصوم السنة والسيرة العطرة في تفسير السحر، بزعمهم أنه أثَّر على عقله ﷺ عصمه الله من ذلك"[4]®.

ثانيًا. النسيان الطبيعيّ من لوازم بشريته ﷺ ولا يقدح في عصمته:

لقد صرح النبي ﷺ بطروء النسيان عليه كعادة البشر وهو منهم، فالنسيان الطبيعي أمر فطري في البشر جميعًا، بيد أن نسيانه ﷺ لا ينافي عصمته.

يقول محمد بن علوي المالكي تحت عنوان "سهوه ﷺ وأنه لا ينافي كماله ﷺ": ومن ذلك حديث السهو: وهو أن النبي ﷺ صلَّى صلاة العصر فسلَّم في ركعتين، فقام ذو اليدين، فقال: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال رسول الله ﷺ: كل ذلك لم يكن، وفي الرواية الأخري: "ما قصرت الصلاة وما نسيت"، فظاهر هذا الحديث يفيد أنه ﷺ نفى الحالتين، وأنه لم يحصل قصر ولا نسيان، مع أنه قد حصل أحد ذلك، كما قال ذو اليدين: "قد كان بعض ذلك يا رسول الله"[5].

---

١. نُقاعة الحِنَّاء: أحمر كلون الماء الذي يُنقع فيه الحناء.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب السحر (٥٤٣٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السحر (٥٨٣٢)، واللفظ له.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر (٥٤٣٢).

٤. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٥٠، ٢٥١ بتصرف يسير.

® في **"تأثير السحر على بدن النبي ﷺ دون عقله"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس (٦٨٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له (١٣١٨)، واللفظ له.

وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة، منها: أن النبي ﷺ أخبر عن اعتقاده وضميره، أما إنكار القصر فحق وصدق باطنًا وظاهرًا، وأما النسيان فأخبر ﷺ عن اعتقاده، وأنه لم ينس في ظنه فكأنه قصد الخبر بهذا عن ظنه، وإن لم ينطق به، وهذا صدق أيضًا.

والذي يظهر أن قوله ﷺ "لم أنس" إنما هو إنكار اللفظ فقط، وأراد ﷺ أن يشير إلى أنه نُسِّي، ولم يَنْسَ، وشبيه بهذا إنكاره ﷺ على من يقول: نَسيت آية كذا وكذا بقوله في الحديث: "بئسما للرجل أن يقول: نَسِيت، سورة كيت وكيت أو نسيت آية كيت وكيت بل هو نُسِّي"[1]. فلما قال له السائل: أقصرت الصلاة أم نسيت؟ أنكر قصرها كما كان وأنكر نسيانه هو من قِبل نفسه، وبَيَّن أنه ﷺ إن كان جرى شيء من ذلك فقد نُسِّي حتى سأل غيره، فتحقّق أنه نُسِّي وأُجْري عليه ذلك ليسنَّ.

فقوله على هذا (لم أنس) (ولم أقصر) (وكل ذلك لم يكن)، صدق وحق، فلم تقصر الصلاة ولم ينس حقيقة، ولكنه نُسِّي.

وهذا لا يعارضه حديث: "إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تَنْسَون"[2]، لأن هذا الحديث فيه إثبات النسيان، والحديث الذي قبله فيه نفي لفظ النسيان وكراهة لقبه، وليس فيه نفي حكم النسيان بالجملة فلا تعارض.

هذا ما يتعلق بقوله ﷺ: "ما قصرت ولا نسيت"، وبقي بعد ذلك قضية نسبة النسيان إليه ﷺ وحكمه.

والأحاديث الصحيحة المذكور فيها السهو من النبي ﷺ ثلاثة:

1. **حديث ذي اليدين**: أن رسول الله ﷺ صلَّى بهم إحدى صلاتي العشي إما الظهر وإما العصر فسلَّم في ركعتين، ثم أتى جذعًا في قبلة المسجد، فاستند إليها مغضبًا، وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يتكلما، وخرج سرعان الناس قصرت الصلاة، فقام ذو اليدين فقال: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فنظر النبي ﷺ يمينًا وشمالًا فقال: "ما يقول ذو اليدين"؟ قالوا: صدق لم تصل إلا ركعتين. فصلَّى ركعتين وسلَّم، ثم كبر، ثم سجد، ثم كبر فرفع، ثم كبر وسجد، ثم كبر ورفع[3].

2. **حديث عبد الله بن بجينة** ﷺ: "أن النبي ﷺ صلى بهم الظهر، فقام في الركعتين الأوليين، لم يجلس، فقام الناس معه، حتى إذا قضى الصلاة، وانتظر الناس تسليمه، كبر وهو جالس، فسجد سجدتين قبل أن يُسلم، ثم سَلَّم"[4].

وهو دليل على أن ترك التشهُّد الأول سهوًا يجبره سجود السهو، وأن سجود السهو يكون قبل السلام،

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده (٤٧٤٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن (١٨٧٩).
2. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان (٣٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له (١٣٠٢).
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس (٦٨٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له (١٣١٦)، واللفظ له.
4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب صفة الصلاة، باب من لم ير التشهد الأول واجب (٧٩٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له (١٢٩٧)، واللفظ للبخاري.

ويدل أيضًا على وجوب متابعة الإمام، ويؤيده حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم: "إذا شك أحدكم في صلاته، فلم يَدْرِ كم صلى ثلاثًا أم أربعًا، فليطرح الشك، وليبن على ما استيقن، ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلِّم، فإن كان صلَّى خمسًا شفعن له صلاته، وإن كان صلى تامًّا كانتا ترغيمًا للشيطان"[1].

٣. **حديث ابن مسعود** رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صلى الظهر خمسًا، فلما سلَّم قيل له: يا رسول الله، أحدث في الصلاة شيء؟ قال: "وما ذاك"؟ قالوا: صليت كذا وكذا، فثنى رجليه واستقبل القبلة، فسجد سجدتين، ثم سلَّم، ثم أقبل على الناس بوجهه، فقال: "إنه لو حدث في الصلاة شيء أنبأتكم به، ولكني إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني، وإذا شك أحدكم في صلاته فليتحرَّ الصواب، فليتم عليه، ثم ليسجد سجدتين"[2]. وهو دليل على أن متابعة المؤتم للإمام فيما ظنه واجبًا لا يفسد صلاته، فإنه ﷺ لم يأمرهم بالإعادة.

وهذه الأحاديث مبنية على السهو في الفعل، وحكمة الله فيه ليستنّ به المسلمون إذا نسوا، إذ البلاغ بالفعل أجلى منه بالقول، وشرطه أنه لا يقرّ على السهو، بل يشعر به ليرتفع الالتباس، وتظهر الحكمة.

وإن النسيان والسهو في الفعل في حقه ﷺ غير مضاد للعصمة ولا قادح في التصديق.

وهذا بناء على التفريق بين أفعال النبي التشريعية، وبين أقواله التشريعية، فالسهو والنسيان قد يقع في الأفعال والأحكام منه ﷺ وهو جائز عليه، كما ثبت من أحاديث السهو في الصلاة.

أما الأقوال التشريعية فلا يجوز وقوع النسيان والسهو فيها لقيام المعجزة على الصدق في القول، والنسيان يناقض ذلك، أما النسيان في الأفعال فغير ناقض لها ولا قادح في العصمة، بل غلطات الفعل من سمات البشر، كما قال ﷺ: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني"[3]. وحالة النسيان والسهو هنا في حقه ﷺ سبب إفادة علم، وتقرير شرع، وزيادة له في التبليغ، وتمام عليه في النعمة بعيدة عن سمات النقص، وأغراض الطعن.

أما ما ليس طريقه البلاغ، ولا بيان الأحكام من أفعاله ﷺ، وما يختص به من أمور دينية، وأذكار قلبية، مما لم يفعله ليتَّبع فيه، فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه فيها، وذلك بما كلّفه من مقاساة الخلق، وسياسات الأمة، ومعاناة الأهل، وملاحظة الأعداء، ولكن ليس على سبيل التكرار ولا الاتصال، بل على سبيل الندور، وذهبت طائفة إلى منع السهو والنسيان والغفلات، والفترات في حقه ﷺ جملة[4].

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له (١٣٠٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان (٣٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له (١٣٠٢).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان (٣٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له (١٣٠٢).

٤. محمد الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي، مرجع سابق، ص١٠٧: ١١٠ بتصرف.

وعلى كلٍّ فما وقع للنبي ﷺ من حالات نسيان لا يمكن أن نسميه نسيانًا، بل لقد شاء الله له أن ينسى حتى يُعلِّم أمته ما يفعلون إذا تعرض أحدهم للنسيان والسهو في صلاته، فأين ما يقدح في عقله أو في عصمته ﷺ (®)؟

الخلاصة:

- السحر الذي هو تسلُّط على الروح والإدراك العقليّ لا نثبته للنبي ﷺ فيما وقع له من لبيد بن الأعصم، بل كان هذا تسلطًا على البدن والقوة الجسدية فقط، ومثل ذلك من جنس الأمراض وصنوف الأذى التي تعرّض لها ﷺ في سبيل دعوته، وهذا لا تعلُّق له بالنبوة أو العصمة.
- النسيان الطبيعي من خصائص النوع الإنساني كله، وليس بمطعن على أحد نبيًّا كان أو غير نبي؛ إذ هو من خصائص الطبيعة الإنسانية، إلا أن يجاوز ذلك إلى أن يكون خللًا نفسيًّا أو عقليًّا، فذلك ما ينافي النبوة، أما ما تعرض له النبي ﷺ من سهو ونسيان في صلاته فقد شاء الله تبارك وتعالى ذلك ليشرِّع للأمة ما تفعله عند النسيان في الصلاة، وهذا لا يقدح في عصمته ﷺ ولا في نبوته.

(®) في **"خطأ النبي ﷺ في اجتهاده الدنيوي لا ينفي عصمته"** طالع: الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء.

الشبهة العشرون

إنكار عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان له(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان له، ويستدلون على ذلك بتأثر قلبه ﷺ بوسوسة الشيطان؛ إذ يقر ﷺ بذلك فيقول: "إنه لَيُغان على قلبي فأستغفر الله كل يوم مائة مرة"، وبأنه ﷺ نام عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس، وبأنه ﷺ جمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، من غير عذر.

وجوه إبطال الشبهة:

1) إذا كان الله ﷻ قد حفظ المخلَصين من عباده من كيد إبليس وجنوده، فما بالنا بالنبي ﷺ وهو إمام الصالحين، وسيد المرسلين، ومُعلِّم البشرية الإخلاص والتقوى؟!

2) عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان ثابتة بالشواهد والأدلة، فكما حفظه الله من كل قوى الشر الظاهرة، حفظه من كل قوى الشر الخفية من الجن والشياطين وعصمه من كل كيد.

3) ليس المقصود بالغَيْن في الحديث: الوسوسة والريب - كما يتوهمون - بل هو الغفلة عن مداومة الذكر ومطالعة الحق، وذلك من قبيل السكينة التي تغشى قلبه ﷺ.

4) كان نومه ﷺ عن صلاة الصبح، إعلانًا من الله ﷻ لإنسانيته، وليكون للمسلمين أسوة حسنة في

(*) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق.

تدارك ما فات.

٥) كان جمعه ﷺ بين صلاتين من غير عذر، تخفيفًا عن أمته وبعدًا بها عن الوقوع في الحرج.

التفصيل:

أولا. إذا كان الله ﷻ قد عصم عباده المخلصين من كيد إبليس، فكيف بإمام الصالحين وسيد المرسلين محمد ﷺ؟!

لقد أجمع العلماء على أن نبينا محمدًا ﷺ، شأنه شأن سائر الأنبياء جميعًا معصوم من الشيطان - أي: من ضرره الظاهري والباطني - سواء فيما يتعلق بظاهر جسده من أنواع الأذى كالجنون، والإغماء، أو فيما له صلة بخاطره بالوساوس في الصدور، أو فيما له صلة بعبادته وأداء رسالته، ومن المعروف أنه متى اتصل القلب بالله، واتجه إليه بالعبادة، وارتبط بالعُروة الوُثقى التي لا انفصام لها، فأشرقت وأنارت؛ فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله تبارك وتعالى، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (الإسراء) يعصم وينصر، ويبطل كيد الشيطان، وإن انطلق الشيطان يُنفِّذ وعيده، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن، فما له عليهم من سلطان[1].

فلقد حفظ الله ﷻ عباده المخلصين من كيد إبليس وجنوده، فلا سبيل له عليهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (الإسراء)، وقد اعترف إبليس بعجزه عن الكيد لهم، فحكى عنه سبحانه قوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص)، ولا شك أن أنبياء الله ﷻ ورسله وعلى رأسهم خاتمهم محمد ﷺ على قمة عباد الله المخلَصين، الذين عصمهم رب العزة من كيد إبليس وجنوده.

والمراد بعصمة النبي ﷺ من الشيطان، يوضحه القاضي عياض في قوله: "اعلم أن الأمة مجمِعَةٌ على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى - كالجنون والإغماء - ولا على خاطره بالوساوس".

هذا وقد دلَّ على المفهوم السابق الكثير من آيات القرآن الكريم؛ فقد ورد في القرآن الكريم تعرُّض الشيطان لبعض الأنبياء في أجسامهم ببعض الأذى، وعلى خاطرهم بالوسوسة، مع عصمة الله ﷻ لهم بعدم تمكُّن الشيطان من إغوائهم، أو إلحاق ضرر بهم يضر بالدين، فقد قال ﷻ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (ص)، وقال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٣٦)، وقال ﷻ: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (القصص)، وقال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (الأعراف)، وليس في هذه الآيات الكريمات ونحوها ما يتعارض مع قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (الحجر: ٤٢)[2].

فإن كان أنبياء الله جميعًا معصومين من يد إبليس

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٢٣٩.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٧٠، ٧١ بتصرف.

وجنوده فما بالنا بسيدهم وخاتمهم محمد ﷺ ®.

ثانيًا. عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان ثابتة بالأدلة والشواهد:

إن عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان ثابتة بالأدلة والشواهد القطعية، ومن هذه الأدلة وتلك الشواهد ما ورد إمّا على لسانه ﷺ، أو على لسان أصحابه، أو التي يحكيها القرآن الكريم، ومن ذلك:

- ما روى أبو هريرة، عن النبي ﷺ قال: "إن عفريتًا من الجن تفلَّت[1] عليَّ البارحة، ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم، حتى ذكرتُ دعوة أخي سليمان: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾ (ص: ٣٥) قال: فرددته خاسئًا[2]"[3].

- وعن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يُصلي، فسمعناه يقول: "أعوذ بالله منك، ثلاث مرات، ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة، قُلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا، لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، فقال: إن عدوّ الله إبليس جاء بشهاب[4] من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة"[5].

- وعن جابر بن سمرة، قال: صلَّى بنا رسول الله فجعل يهوِي قدامه، فلما صلَّى سألوه، فقال: "ذاك الشيطان كان يُلقي علي شرر النار ليثنيني عن الصلاة، فتناولته، ولو أخذته ما انفلت مني حتى يُناط[6] إلى سارية من سواري المسجد، ينظر إليه ولدان أهل المدينة"[7] [8].

- ومن ذلك أن الصحابة حينما أخبرهم رسول الله ﷺ أن كل إنسان له قرين من الشياطين ـ سألوه ﷺ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: "نعم، ولكنَّ الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير"[9].

® في **"العصمة مبدأ رباني"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

١. تَفَلَّت: مرَّ بين يديه بَغتة.

٢. الخاسئ: المطرود الخائب.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (ص) (٣٢٤١)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه (١٢٣٧).

٤. الشِّهاب: الشُّعلة من النار.

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه (١٢٣٩).

٦. يُناط: يُعلَّق.

٧. صحيح لغيره: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الصلاة، باب المار بين يدي المصلي (٢٣٣٨)، وأحمد في مسنده، مسند الكوفيين، باب من حديث أبي عبد الرحمن عن مشايخه من حديث جابر بن سمرة عن النبي ﷺ (٢١٠٣٨)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد.

٨. دلائل النبوة، أبو بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٧، ص٩٧: ٩٩.

٩. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (٧٢٨٦).

وهكذا، فإن هذا الحديث الأخير يبين وجهًا من نعم الله على رسوله، فشيطانه أسلم، ولا يأمره إلا بخير، وهو ﷺ أقوى من الشياطين حسًّا ومعنى، فلا يستطيعون الوسوسة له، ولا إلحاق الضرر به، إنه رسول الله ﷺ يحفظه الله من كل قُوى الشر الخفيَّة من الجن والشياطين، ويحفظه الله ﷻ من كل قُوى الشر الظاهرة، وهذه أمور اختصه الله ﷻ بها[1] ®.

ثالثًا. الغين هو: الغفلة عن مداومة الذكر ومطالعة الحق، لا الوسوسة والريب:

لقد سبق أن تحدثنا عن عصمة نبينا محمد ﷺ وسائر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من الشيطان، أي: من ضرره الظاهر والباطن، سواء ما يتعلق بظاهر جسده من أنواع الأذى كالجنون والإغماء، أو ما له صلة بخاطره كالوساوس في الصدور.

أما قوله ﷺ: "إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله كل يوم مائة مرة"[2]. فليس معناه أبدًا تعرُّض قلبه ﷺ لوساوس الشيطان، أو وقوع ريب في قلبه ﷺ؛ لأن الغين ليس وسوسة أو ريبًا وقع في قلبه ﷺ؛ بل أصل الغين في هذا ما يتغشَّى القلب ويغطيه، وقيل: الغين، شيء يَغشى القلب، ولا يغطيه كل التغطية كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس.

والمراد بهذا الغين إشارة إلى فتَرات نفسه وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بما كان ﷺ يُدفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة، ومعاناة الأهل، ومقاومة الولي والعدو، ومصلحة النفس، وما كلّف به من أعباء أداء الرسالة، وحمل الأمانة، وهو في كل هذا في طاعة ربه، وعبادة خالقه، ولكن لما كان ﷺ أرفع الخلق عند الله مكانة وأعلاهم درجة وأتمهم به معرفة، وكانت حاله - عند خلوص قلبه، وخلوّ همه وتفرده بربه، وإقباله بكُلِّيته ومقامه - هناك أرفع حاليه، رأى ﷺ حال فترته عنها وشغله بسواها غضًّا من علُو حاله، وخفضًا من رفيع مقامه، فاستغفر الله من ذلك.

ولقد ذكر العلماء عدة أقوال في المراد بالحديث، منها:

- أن المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه ﷺ الدوام عليه، فإذا غفل عنه عدّ ذلك ذنبًا، واستغفر منه.
- أن الغين السكينة التي تغشى قلبه، لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ (التوبة: ٢٦) ويكون استغفاره إظهارًا للعبودية والافتقار.
- أن الغين حالة خشية وإعظام، والاستغفار شكرها، ومن ثَمَّ قيل: خوف الأنبياء والملائكة خوف إجلال وإعظام، وإن كانوا آمنين من عذاب الله تعالى[3]، والاستغفار في حق الأنبياء، لا يكون من

---

١. الرد على القس الأمريكي في افتراءاته على رسول الإسلام ﷺ، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مكتبة الإيمان، مصر، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٩٢، ٩٣ بتصرف.

® في **"عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الخامسة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). والوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء. والوجه الثالث، من الشبهة الأولى، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٧٠٣٣).

٣. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص١٦٣، ١٦٤ بتصرف.

ذنب، وإنما شكر لرب العزة، فقد خاطبه رب العزة بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢)، ومع ذلك كان يقوم لربه متهجدًا حتى تتورم قدماه، ويُسْأل عن ذلك فيقول: "أفلا أكون عبدًا شكورًا"[١]®؟

رابعًا. كان نوم رسول الله ﷺ عن صلاة الصبح لحكمة تشريعية، تخفيفًا عن أمته في إدراك ما فاتهم:

كانت الحكمة الإلهية من نوم رسول الله ﷺ عن صلاة الصبح هي مقتضى كونه أسوة وقدوة لمن بعده في تدارك ما فات، هذا على الرغم من أن الأنبياء - عليهم السلام - جميعًا، وعلى رأسهم النبي ﷺ تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم.

والأعذار تكون على الناس أجمعين، والنبي ﷺ من أصل البشرية، فيجري عليه ما يجري على الإنسان، ويرهقه ما يرهق الإنسان.

تروي كتب السيرة أنه ﷺ كان في خيبر، وقد نام حتى أشرقت الشمس، وكان على رأسه حارس ينبهه إذا نام، ويوقظه إذا استغرق الناس، فضرب الله ﷻ على آذانه أيضًا فنام ولم يستيقظ حتى أشرقت الشمس؛ فاستغرق ﷺ في النوم بعينه، وإن كان قلبه يقظًا لم ينم، وذلك ليعلن الله تبارك وتعالى إنسانيته، وليكون عمله أسوة للناس في تدارك ما فاته؛ لأن المؤمنين يتخذونه أسوة حسنة، ولأنه ﷺ قال: "صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي"[٢]. فهو يبين لهم الصلاة في حال الأداء، وحال القضاء معًا.

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين قَفَل من غزوة خَيبَر سار ليله حتى إذا أدركه الكَرَى[٣] عرَّس[٤] وقال لبلال: "اكلأ[٥] لنا الليل"، فصلَّى بلال ما قُدِّر له ونام رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالًا عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظًا، ففزع رسول الله ﷺ فقال: "أي بلال"، فقال بلال: أخذ بنفسي الذى أخذ - بأبي أنت وأمي يا رسول الله - بنفسك، قال: "اقتادوا". فاقتادوا رواحلهم شيئًا ثم توضَّأ رسول الله ﷺ وأمر بلالًا فأقام الصلاة، فصلَّى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: "من نسى الصلاة فليُصلِّها إذا ذكرها، فإن الله قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾ (طه)"[٦].

وهذا الحكم يستفاد منه وجوب قضاء الصلاة إذا فاتت المرء بنوم أو نسيان، مما لا قبل له بدفعه، كما

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى تتورم قدماه (١٠٧٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد (٧٣٠٢).

® **في "أمر الله تعالى للنبي بالاستغفار لا يعني وقوعه في الذنب"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة وكذلك بعرفة (٦٠٥).

٣. الكَرَى: النوم أو النُّعاس.

٤. التَّعرِيس: نزول المسافرين آخر الليل للنوم والاستراحة من تعب السفر.

٥. اكلأ: ارقبْ أو احرسْ.

٦. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (١٥٩٢).

قال ﷺ: "من نام عن صلاة أو نسيها، فليصلها إذا ذكرها" [1] [2].

نخلص من هذا إلى أن نومه ﷺ الذي هو نوم العين لا نوم القلب، لم يكن ناتجًا عن كيد الشيطان له - كما يزعمون - ولكن الله ﷻ قد ضرب على آذانه بالنوم لإقرار حكم شرعي، وقاعدة شرعية، وهي قضاء الصلاة الفائتة بنوم أو نسيان بما لا سبيل إلى دفعه®.

خامسًا. لقد جمع النبي ﷺ بين صلاتين؛ ليرفع الحرج عن الأمة ويخفف عنها:

معلوم أن الأصل في إقامة الصلاة أن تكون على وقتها، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النساء)، فلكل صلاة وقتها الذي لا تصح ولا تقبل إلا بدخوله، وتقديم الصلاة أو تأخيرها عن وقتها المشروع دون عذر ظلم للنفس، وتعدٍّ لحدود الله ﷻ[3].

وقد حدَّد العلماء المواضع التي يجوز فيها الجمع في الصلاة، وهي:

١. **الجمع بعرفة والمزدلفة:** اتفق العلماء على أن الجمع بين الظهر والعصر جمع تقديم، في وقت الظهر بعرفة، وبين المغرب والعشاء جمع تأخير، في وقت العشاء بمزدلفة - سنة؛ لفعل رسول الله ﷺ.

٢. **الجمع في السفر:** الجمع بين الصلاتين في السفر في وقت إحداهما جائز في قول أكثر أهل العلم، فعن معاذ "أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس، أخَّر الظهر حتى يجمعها إلى العصر فيصليها جميعًا، وإذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعًا ثم سار، وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخّر المغرب حتى يصليها مع العشاء وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء فصلاها مع المغرب" [4].

خلاصة آراء المذاهب في ذلك: أن **الشافعية** تُجوِّز للمقيم الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء جمع تقديم فقط، بشرط وجود المطر، عند الإحرام بالأُولى والفراغ منها، وافتتاح الثانية.

وعند مالك: أنه يجوز جمع التقديم في المسجد بين المغرب والعشاء، لمطر واقع أو متوقَّع، وللطين مع الظلمة، إذا كان الطين كثيرًا يمنع أواسط الناس من لبس النعل، وكُره الجمع بين الظهر والعصر للمطر.

وعند الحنابلة: يجوز الجمع بين المغرب والعشاء فقط تقديمًا وتأخيرًا؛ بسبب الثلج والجليد والوحل والبرد الشديد والمطر الذي يبل الثياب، وهذه الرخصة تختص بمن يصلي جماعة بمسجد - يقصد من بعيد - يتأذى بالمطر في طريقه، فأما من هو بالمسجد، أو يصلي في بيته جماعة، أو يمشي إلى المسجد مستترًا بشيء، أو كان

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب من نسي الصلاة فليصل إذا ذكرها ولا يعيد إلا تلك الصلاة (٥٧٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (١٥٩٨).

٢. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٣، ص٨٠٨ بتصرف يسير.

® في **"تبكير النبي ﷺ لصلاة الفجر وجلوسه حتى تطلع الشمس"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

٣. الصلاة، د. عبد الله بن محمد الطيار، جامعة الإمام، السعودية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص١٥٨، ١٥٩.

٤. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب صلاة المسافر، باب الجمع بين الصلاتين (١٢٢٢)، والدارقطني في سننه، كتاب الصلاة، باب الجمع بين الصلاتين في السفر (١٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٠٨٠).

المسجد في باب داره، فإنه لا يجوز له الجمع.

٣. **الجمع بسبب المرض، أو العذر**: ذهب بعض العلماء إلى جواز الجمع، تقديمًا وتأخيرًا بعذر المرض؛ لأن المشقة فيه أشد من المطر.

قال النووي: وهو قوي في الدليل، وفي "المغني": والمرض المبيح للجمع، هو ما يلحقه به، بتأدية كل صلاة في وقتها، مشقة وضعف.

وتَوسَّع بعض العلماء، فأجازوا الجمع تقديمًا وتأخيرًا لأصحاب الأعذار وللخائف، وأجازوه للمرضع، التي يشق عليها غسل الثوب في وقت كل صلاة، وللمستحاضة، ولمن به سلس بول، وللعاجز عن الطهارة، ولمن خاف على نفسه أو ماله أو عرضه، ولمن خاف ضررًا يلحقه في معيشته بترك الجمع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأوسع المذاهب في الجمع مذهب أحمد؛ فإنه جوَّز الجمع إذا كان شغل، كما روى النسائي ذلك مرفوعًا إلى النبي ﷺ، إلى أن قال: يجوز الجمع أيضًا للطباخ والخباز ونحوهما ممن يخشى فساد ماله.

٤. **الجمع للحاجة**: قال النووي في "شرح مسلم": ذهب جماعة من الأئمة، إلى جواز الجمع في الحضر للحاجة، لمن لا يتخذه عادة، وهو قول ابن سيرين وأشهب من أصحاب مالك، وحكاه الخطابي عن القفال والشاشي الكبير من أصحاب الشافعي وعن أبي إسحاق المروزي وعن جماعة من أصحاب الحديث، واختاره ابن المنذر.

ويؤيده ظاهر قول ابن عباس: "أراد ألا يحرج أمته، فلم يعلله بمرض، ولا غيره".

وحديث ابن عباس الذي قال فيه: جمع رسول الله بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء بالمدينة، في غير خوف ولا مطر، قيل لابن عباس: ماذا أراد بذلك؟ قال: أراد ألا يُحرج أمته[1].

وروي عن ابن عباس أيضًا: أن النبي ﷺ صلَّى بالمدينة سبعًا وثمانيًا الظهر والعصر والمغرب والعشاء[2]. وعن عبد الله بن شقيق قال: خطَبَنا ابن عباس يومًا بعد العصر حتى غربت الشمس وبدت النجوم، وجعل الناس يقولون: الصلاة الصلاة، قال: فجاءه رجل من بني تميم لم يَفتُر ولا ينثني[3]: الصلاة الصلاة، فقال ابن عباس: أتُعلِّمُني بالسُّنَّة، لا أُمَّ لك! ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ جمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، قال عبد الله بن شقيق: فحاك في صدري من ذلك شيء، فأتيت أبا هريرة فسألته؟ فصدَّق مقالته[4] [5].

ومما سبق يتضح لنا أن النبي محمدًا ﷺ لا سبيل للشيطان عليه، وأنه هو المشرِّع في حدود ما يُوحَى إليه من رب العزة ﷻ، ونحن نتبعه ونقتدي به في كل ما

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الجمع بين الصلاتين في الحضر (١٦٦٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب تأخير الظهر إلى العصر (٥١٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الجمع بين الصلاتين في الحضر (١٦٦٩).

٣. لا يَفتُرُ ولا يَنثَنِي: يُلِحُّ أو يُصرُّ.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الجمع بين الصلاتين في الحضر (١٦٦٧٠).

٥. فقه السنة، السيد سابق، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج١، ص٣٤٣: ٣٤٦ بتصرف.

يُقرُّه ويُشرِّعه، وبذلك فإنه ﷺ بسهوه عن الصلاة كان يُشرِّع لأمته كيفية قضاء الصلاة، وأنه ﷺ بجمعه في الصلاة في غير سفر ولا خوف، لم يفعل ما يخالف الشرع، وإنما فعل ذلك لئلا يشُقّ على أمته، فقصد إلى التخفيف عنهم®.

الخلاصة:

- حفظ الله تبارك وتعالى عباده المخلصين وعصمهم من كيد إبليس وجنوده؛ ولقد كان محمدٌ ﷺ إمام المخلصين الصالحين وأول المعصومين من كيد إبليس.
- عصمته ﷺ من كيد الشيطان ثابتة بالكثير من الشواهد والأدلة التي لا ينكرها أحد، فالنبي ﷺ أقوى من الشيطان حسًّا ومعنى، فلقد تعرَّض الشيطان أكثر من مرة للنبي ﷺ لينال منه ولكن الله مكنه منه، حتى إن قرينه من الجن قد أسلم فلم يكن يأمره إلا بخير.
- ليس المقصود بالغين في حديث: "إنه ليغان على قلبي" تعرُّضه ﷺ لوسوسة الشيطان، أو وقوع الريب في قلبه، ولكن معناه ومقصوده أنه ربما يسهو عن مداومة ذكر ربه ومطالعة الحق، وليس هذا تقصيرًا منه، وإنما من قبيل السكينة التي تغشى قلبه ﷺ، وأما استغفاره فهو شكر لله ﷻ.
- النبي ﷺ هو القدوة والأسوة الحسنة لنا جميعًا، وقد أراد الله ﷻ أن ينام النبي ﷺ عن صلاة من الصلوات لتقرير قاعدة شرعية وحكم شرعي، وهو "قضاء الصلاة الفائتة"، ولم يكن نومه هذا بسبب تأثره بكيد الشيطان له.
- لا يجوز الجمع بين صلاتين لغير عذر شرعي؛ لأن لكل صلاة وقتها، والعذر قد يكون خوفًا أو سفرًا أو مطرًا أو مرضًا... إلخ، أما جمعه ﷺ بين صلاتين من غير عذر، فإنما كان بغرض التخفيف عن الأمة، ولئلا يشقَّ عليهم.

الشبهة الحادية والعشرون

ادعاء أن تعرُّض النبي ﷺ للسِّحْر يتنافى مع عصمته(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالين سحر لبيد بن الأعصم للنبي ﷺ، ويستدلون على ذلك بأن وقوع السحر عليه ﷺ نقص وعيب ينافيان عصمته ﷺ، وبأن القول بتعرُّضه للسحر يتعارض مع بعض آيات القرآن الكريم الثابتة في حقه ﷺ. وهم بذلك يُغالون في وصف النبي ﷺ ويسيئون فهم معنى عصمته ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) مما لا شك فيه أن النبي ﷺ بشر له صفات البشر، ويتعرَّض لما يتعرَّض له سائرهم من المرض والشِّفاء، والحُزْن والفرح، والعُسْر واليُسْر، فلماذا ينكرون عليه أن يُسحَر، والسحر مرض كغيره من الأمراض؟!

® في "رخصة الجمع بين الصلاتين والحكمة من ذلك" طالع: الشبهة التاسعة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

(*) السنة النبوية الشريفة، د. أحمد محمود كريمة، مكتبة الأزهر، القاهرة، ١٤١٨هـ.

٢) تعرُّض النبي ﷺ للسحر ثابت في أصح كتب السنة، بيد أن سحره لا يتعارض مع عصمته؛ لأنه لم يُؤثِّر في قواه العقلية أو صفته الشرعية، وإنما أثّر في شيء من نشاطه البدني فحسب.

٣) إن تعرُّض النبي ﷺ للسِّحر لا يتعارض مع آية واحدة في القرآن الكريم، بل إن بعض آيات القرآن تُؤيِّد حدوث هذا الأمر مثل المعوِّذتين.

٤) لقد شاء الله تبارك وتعالى أن يقع هذا السِّحر على النبي ﷺ لحكمة عظيمة، وهي أن تستفيد الأمة، وتتعلم ماذا تفعل إن حدث لأحد أفرادها شيء مثل هذا.

التفصيل:

أولا. النبي ﷺ بشر؛ يتعرَّض لما يتعرَّض له البشر من المرض والشفاء، والحزن والفرح، والسحر من جملة تلك الأمراض:

نقرُّ في البدء أن النبي ﷺ وسائر الأنبياء والرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - بشر كغيرهم من الناس، يطرأ عليهم ما يطرأ على سائر البشر من حيث الظاهر، فيجوز تعرضهم للآفات المنفرة والتغيرات من انقباض وبَسْط، وفرح وغمٍّ، وسائر الحالات من آلام، وأسقام، وتعرُّض للموت الزؤام، وهذا كله ليس بنقيصة فيهم، ومما يؤكد هذا أن الأنبياء قبله ﷺ تعرَّضوا للعوارض البشرية فقتِّلوا تَقْتيلًا كيحيى بن زكريا - عليهما السلام -، ونُشروا بالمناشير كزكريا عليه السلام.

ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات، ومنهم من عصمه الله من القتل كعيسى عليه السلام؛ إذ تمالأت اليهود على قتله، فرفعه الله إليه، وطهَّره من صُحْبتهم، كما عُصم نبيُّنا من الناس، وحماه الله من عبد الله بن قَمِئة الذي جرح وَجْنة رسول الله ﷺ، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفر[1] في وجنته يوم أحد، وحجبه الله عن عيون أعدائه - أهل الطائف - عند دعوتهم إلى توحيد الله، وحماه الله من بطش أشداء المشركين من قريش يوم الهجرة عند خروجه من بيته إلى غار ثور عن يمين مكة، حين أرادوا قتله، فخرج عليهم وقرأ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (يس)، وأمسك الله تعالى عن نبيه ﷺ سيف غَوْرث بن الحارث، وحفظه من أبي جهل - فرعون هذه الأمة - حين حمل صخرة ليطرحها على النبي ﷺ وهو ساجد، فلزِقت بيده، كما حفظه من شر سراقة بن مالك فغاصت أقدام فرسه بالأرض، ووقاه الله من أَثَر سحر لبيد بن الأعصم اليهودي كما في رواية البخاري، كما وقاه ما هو أعظم، وهو سُمُّ اليهودية بخيبر.

وهكذا سائر الأنبياء، منهم المبتلَى كأيوب عليه السلام ومنهم المعافَى من كثرة الأسقام وشدة الآلام، وكان ابتلاؤهم من تمام حكمة الله ﷻ ليُظهر الله شرفهم في هذه الأحوال المتفاوتة، ويبيِّن أَمْرَهم، ويُتمَّ كلمته فيهم، ولتتحقَّق مقتضيات بشريَّتهم، ويرتفع الالْتِباس عن أهل الضعف فيهم، لئلا يَضلُّوا بما يظهر من العجائب (خوارق العادات الغرائب) على أيديهم، كبرد النار على إبراهيم الخليل، وقَلْب العصا حية لموسى الكليم، وخلق الطير من الطين، وإحياء الموتى على يد عيسى، وانشقاق القمر لنبينا، لتكون حياتهم ومحنتهم

---

١. المِغْفر: غطاء يُنسج من الدروع على قَدْر الرأس لحمايتها.

عبرة لأممهم وإيناسًا بسيرتهم وزيادة لأجورهم عند ربهم[1].

ومن هنا نعلم أن النبي ﷺ كانت تجري عليه كل النواميس المعتادة التي كتبها الله على بني آدم من جملة البشر بما فيهم الأنبياء والرسل بطبيعة الحال®.

ثانيًا. تعرُّض النبي ﷺ للسِّحر ثابت في أصح كتب السنة:

لا غضاضة في تعرُّضه ﷺ للسحر، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك؛ لأنه بشر يجوز أن يتعرض لهذا المرض كما يجوز عليه أي مرض، ولكن الله ﷻ عصمه من تأثير السحر في عقله، وجعل تأثيره مُنحصرًا في نشاطه البدني فقط. فعن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ سُحِرَ، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، فقال: "يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان[2]، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مَطبوب، قال ومن طبَّه؟ قال: لَبِيد بن أعصم رجل من بني زُرَيق، حليف لليهود، كان منافقًا، قال: وفيمَ؟ قال: في مُشط ومُشاطة، قال: وأين؟ قال: في جفِّ طَلْعَة ذَكَرٍ، تحت رَعوفة[3] في بئر أروان"، قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه، فقال: "هذه البئر التي أُرِيتُها، وكأن ماءها نُقاعة الحنَّاء، ولكأن نخلها رءوس الشياطين"، قال: فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا أحرقته؟ فقال: "أما والله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا"[4].

ومن هذا الحديث الشريف يتبيَّن لنا أن تعرُّضه ﷺ لسحر لبيد بن الأعصم لا يتنافى مع عصمته ﷺ؛ لأن تأثير هذا السحر كان مُقْتصرًا على بعض قوى النبي البدنية، وهي قوة الجماع، وهذا يتضح من قول السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: "حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن"[5].

وفي رواية أخرى: "مكث كذا وكذا يُخَيَّل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي"[6].

إن ما تعرَّض له النبي ﷺ من باب المرض البدني، ولم يكن له أي تأثير على قواه العقلية، فقد تكفَّل الله بحفظها عليه ﷺ.

إن سحر النبي ﷺ من لبيد على هذا النحو وتلك الكيفية ـ لو أدرك هؤلاء الغلاة ـ يؤكد بشريته ﷺ، ويرفع قدر نبوته في الوقت ذاته، يقول د. عماد السيد الشربيني: إن سحر الرسول ﷺ يرفع من مقام النبوة وشرفها، ولا يحطُّ من شأنها، ولا يتعارض مع

---

١. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٥٢٥، ٥٢٦ بتصرف يسير.

® في "بشرية النبي ﷺ وتعرضه للابتلاءات" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والعشرين، من هذا الجزء.

٢. رجلان: أي ملكان في صورة رجلين.

٣. الرَّعوفة: صخرة تكون أسفل البئر.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر (٥٤٣٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السحر (٥٨٣٢).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر (٥٤٣٢).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠) (٥٧١٦).

عصمته ﷺ، فالرسول ﷺ لم يكن معصومًا من الأمراض، فلقد كان يأكل ويشرب ويمرض، كما قالت عائشة رضي الله عنها: "إن رسول الله ﷺ كان رجلًا مسقامًا، وكان أطباء العرب يأتونه فأتعلم منهم" [١]. وكانت تجري عليه كل النواميس المعتادة التي كتبها الله على ولد آدم، وليس في السحر على الهيئة الواردة ما يُنقص من قدره وعصمته بوصفه إمامًا لسائر الأنبياء، ما دام السحر واقعًا على بعض قواه البدنية فقط [٢].

يقول القاضي عياض: "فقد استبان أن السِّحر إنما تسلَّط على ظاهره وجوارحه لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما أثَّر في بصره وحبسه عن وَطْء نسائه وطعامه، وأضعف جسمه وأمرضه، ويكون معنى قوله: "يُخيَّل إليه أنه يأتي أهله، ولا يأتيهن"، أي: يظهر له من نشاطه ومتقدّم عادته القدرة على النساء، فإذا دنا منهن أصابته أَخْذة السحر فلم يقدر على إتيانهن، كما يعتري من أُخذ واعتُرض، ولعلَّه لمثل هذا أشار سفيان بقوله: وهذا أشدُّ ما يكون من السحر، ويكون قول عائشة في الرواية الأخرى: إنه يتخيل إليه فعل الشيء وما فعله، من باب ما اختلَّ من بصره كما ذُكر في الحديث؛ فيظن أنه رأى شخصًا من بعض أزواجه أو شاهَد فعلًا من غيره، ولم يكن على ما خُيِّل إليه لما أصابه في بصره وضعف نظره لا لشيء طرأ عليه في مَيْزه (تمييزه)، وإذا كان هذا لم يكن فيما ذُكر من إصابة السِّحر له، وتأثيره فيه ما يُدْخل لبسًا، ولا يجد به المعترض الملحِد أُنسًا" [٣].

"ومن الثابت أن واقعة السحر ثابتة على الجسد فقط، وأن السحر لم يؤثِّر في الرسول ﷺ في شئون تبليغ الوحي الإلهي والشرع إلى الأمة، وإنما اقتصر تأثير السحر على بعض حواسه، أو قدراته المتعلقة بشئون الدنيا من جماع وغيره" [٤]، أما ما يتعلق بأمر النبوة، فقد عصمه الله في ذلك، وحرس وحيه أن يلحقه الفساد والتبديل، فلا ضرر لحقه من السحر على نبوته، ولا نقص فيما أصابه منه على دينه وشريعته، كما أن مدة هذا السحر لم تَطُل، بل عُوفِي ﷺ برُقية جبريل عليه السلام له.

وعليه، فلا يحق لأحد أن يدَّعي أن تعرُّض النبي ﷺ للسِّحر في بدنه يتنافى مع عصمته ﷺ في أمر الدين®.

ثالثًا. تعرُّض النبي ﷺ للسحر لا يتعارض مع آية واحدة في القرآن الكريم، بل إن بعض آيات القرآن تؤيد وقوعه للنبي ﷺ:

أما ما يزعمه هؤلاء المغالون من أن القول بتعرض النبي ﷺ للسحر يتعارض مع بعض آيات القرآن الكريم، فهو زعم لا يقوم على دليل؛ وإنما هو تفسير خاطئ لآيات الكتاب الحكيم، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

- عصمة الرسول ﷺ الواردة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ

١. إسناده صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الطب (٧٤٢٦)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي في التلخيص.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٥٠ بتصرف.

٣. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٢، ١٨٣.

٤. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٥٣٠.

® في "عدم تأثير السحر على عقل النبي ﷺ" طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من هذا الجزء.

﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (المائدة)، المراد بها: عصمته ﷺ من القتل والاغتيال، والمكائد المهلكة، فضلًا عن عصمته من الغواية والهوى والضلال، وعدم الوقوع في المعاصي والمنكرات، ولا يدخل في العصمة هنا عصمته من الأمراض كما سبق أن بيّنا؛ لأن الأنبياء جميعًا غير معصومين من المرض، فهم جميعًا تجري عليهم كل النواميس المعتادة التي أودعها الله في ولد آدم، وعلى ذلك فالآية ليست على عمومها.

ولو كانت على عمومها ما استطاع أحد أن يتطاول عليه ﷺ ولا أن يناله بأذى، وها هم أعداؤه يخطئون في حقه ويتطاولون عليه ﷺ كثيرًا؛ بوصفه بالجنون، والكهانة، والسحر، وينالون منه في المعارك بكسر رباعيته، وشج رأسه، وحديثًا بسبّه ومحاولة تشويه صورته والطعن في سيرته وأخلاقه ﷺ، وهذا يدل على أن الآية في عصمته من القتل، والغواية، والضلال، فلا تعارض بينها وبين سحره ﷺ، أو لحوق الأذى به ـ قديمًا وحديثًا ـ كما هو ثابت ومشاهد ومعلوم.

- أما القول بأن الحديث معارض للقرآن الكريم، ويصدق المشركين في قولهم الذي ذكره القرآن: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ (الفرقان)، فهو قول مردود؛ لأننا نعلم يقينًا أن الكفار لا يريدون بقولهم هذا أن يثبتوا لرسول الله ﷺ ما أثبته هذا الحديث من تعرُّض بدن النبي للسحر مدة وجيزة، لما قام فلانٌ من اليهود بسحره بضعة أيام، فأدركه شيء من التغيُّر، وخُيِّل إليه أنه يفعل بعض الشيء، وهو لا يفعله، ثم إن الله تبارك وتعالى شفاه من ذلك، هم لا يريدون هذا، بل يريدون أن ما يصدر عن رسول الله ﷺ إنما يصدر عن خيال وجنون، وأنه لم يوحَ إليه شيء، فإذا آمنا بما دلَّ عليه الحديث لم نكن مصدقين للمشركين في دعواهم، فمفهوم الحديث من تعرضه للسحر شيء، ودعواهم تلك شيء آخر[1].

- أما الزعم أن تعرُّض النبي ﷺ للسحر، وهو من عمل الشياطين، وصنع النفوس الشريرة الخبيثة، يتعارض مع قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الحجر).

فهذا الزعم مردود عليهم بما ورد في القرآن الكريم من آيات تثبت تعرُّض الشيطان للأنبياء بأنواع الإفساد والإغواء، ومع ذلك عصمهم الله ﷻ بعدم تمكنه من إغوائهم، أو إلحاق ضرر بهم يضر بالدين، وتأمل قوله الله تعالى في حق سيدنا أيوب ؑ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (ص)، وقوله ﷻ في حق سيدنا آدم ؑ وزوجته حواء: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٣٦)، ومن هنا لا يلزم من وقوع السحر في حق الأنبياء إضلالهم وإغواؤهم، فإن ذلك ظن فاسد، وتأمل قوله ﷻ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٥١، ٢٥٢ بتصرف.

﴿حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ (طه).

فقد صرَّحت الآيات بأن سحر أولئك السَّحَرة، قد أوقع نبي الله موسى في التخييل، حتى تغيرت أمامه الحقائق، فحسب الحبال حيات، والساكنات تحركات، وعندما أوجس في نفسه خيفة، كانت عصمة ربه له بالوحي إليه بعدم الخوف؛ لأنه رسول الله حقًّا، وعليه إلقاء ما في يمينه فإذا هي حية تلقف ما صنعوا، فتأمل ما في الآيات من إثبات تعرّض بعض الأنبياء للسحر، مع عصمتهم من آثاره المضِرَّة بدعوتهم[1].

وهكذا يتضح أن الحديث لا يتعارض مع أية آية من القرآن، بل إن آيات القرآن الكريم تؤيده، نحو قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ (الفلق)، فهذه السورة وسورة الناس، واللتان تسميان بالمعوذتين، نزلتا في قصة سحره ﷺ، كما جاء من حديث ابن عباس ومن حديث عائشة أيضًا ففيه من الزيادة أنه "وجد في الطلعة تمثالًا من شمع، تمثال رسول الله ﷺ وإذا فيه إبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فنزل جبريل بالمعوذتين، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، وكلما نزع إبرة وجد لها ألـمًا، ثم يجد بعدها راحة، حتى قام رسول الله ﷺ كأنما نَشَط من عِقال[2]"[3].

وبناء عليه، فإن تعرُّض النبي ﷺ للسحر لا ينكره إلا من نظر نظرة تعصُّب، وحرص على تشويه الحقيقة التي لا مراء فيها، وغالى في وصف النبي ﷺ وتجاوز بشريته التي أثبتها القرآن له في قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠).

أما من ينظر نظرة إنصاف فإنه يرى أنّ الحديث يمثِّل صورة طيبة، فها هو قد سُحر لكنه لم يُترك، وإنما سأل الله ودعا، واستجاب له ربه، وجاءه جبريل وغيره من الملائكة، وأخبره الله بحقيقة حاله، ورقاه جبريل، ورقى ﷺ نفسه، وبرئ بفضل الله ﷻ سريعًا، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل أولًا على بشريته ﷺ، وثانيًا على عصمة الله ﷻ له، وكريم منزلته ﷺ عنده ﷻ، وعلى عظيم عنايته تعالى برسوله ﷺ.

ومن ثَمَّ فإنّ تعرُّض النبي ﷺ للسحر لا يتنافى بأي حال مع عصمته ﷺ، وإنما يمثِّل نقطة مشرقة؛ إنه سُحِرَ، لكنه لم يخرج عن دائرة الصواب، بل كان في أعلى درجات الاستقامة والهداية.

إن هذا السحر لم يؤثر في قواه العقلية، ولا في درجته الإيمانية، وإنما كان مؤثرًا في أداء الجسم، وهذا لا علاقة له بالرسالة والوحي، ومع أنه أمر جسدي فإن الرعاية الإلهية قد شملته، وتولاه الله تبارك وتعالى بالحفظ، وسلمه شفاه[4].

رابعًا. الحكمة التشريعية التي تقف وراء سِحْر النبي ﷺ:

إذا كان لقائل أن يقول: إذا كان النبي ﷺ معصومًا،

---

١. المرجع السابق، ص٢٥٢، ٢٥٣.

٢. العِقال: الحبل.

٣. صحيح: أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، كتاب جماع أبواب غزوة تبوك، باب جماع أبواب كيفية نزول الوحي على رسول الله ﷺ (٣٠١٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٦١).

٤. دفع الشبهات عن السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٩١، ٩٢.

وإذا كانت العناية الإلهية أحاطت به فلمَ أثّر فيه السحر؟

نقول: إن أعداءه ﷺ كادوا له بكل ما استطاعوا:

- أثاروا الشبه، يشوِّهون بها الإسلام!!
- رموه بكثير من الكلمات الجارحة، يريدون التقليل من شأنه.
- وصفوا ما جاء به من الهدى بصفات سيئة، حرصًا على تضليل الناس.
- جاءوا بالقصص من الأمم الأخرى يصرفون بها الناس عن القرآن والإسلام.
- حاولوا صرف الناس عن سماع القرآن الكريم، وعن الإسلام بكل وسيلة.
- جاءوا بمشاهير الحسَّاد، كي يحسدوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٥٢)﴾ (القلم).
- خطَّطوا لقتله مع تفريق دمه في كل القبائل.
- جيَّشوا الجيوش لحربه، والقضاء على أمة الإسلام، كما في بدر وأحد، وغيرهما.

وكل هذه الوسائل لم تؤثر فيه ﷺ، وإنما نصره الله وأيده.

وشاء الله أن يؤثّر السحر فيه مرة، ليعلمنا تبارك وتعالى على لسان نبيه ﷺ، ماذا نفعل إذا وقع لنا شيء من السحر.

لقد استفدنا من هذا الحديث ـ الذي يتحدث عن وقوع السحر له ﷺ ـ أننا نعالج أنفسنا من السحر بثلاثة أمور:

١. **الصبر على الحال**، فإنه ﷺ حينما أحسَّ بما عليه حاله، فوَّض وسلَّم أمره إلى ربه، يرجو بذلك الأجر والمثوبة.

إنه يؤمن أن كل شيء بإذن الله، وأن كل شيء بقدر الله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ (التوبة)، وقال تبارك وتعالى في شأن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٠٢).

إنه ﷺ يؤمن أن الصبر على البلاء يؤجر عليه المسلم، ومن هنا صبر واحتسب، إنه لم يخف السحر ولم يضطرب؛ فالأمور بيد الله تبارك وتعالى، وهو الواثق بالله المتوكل عليه، ومن هنا صبر يحتسب أجر ذلك عند الله تعالى.

٢. **كثرة الدعاء**، ففي الحديث الشريف الذي معنا صبر النبي ﷺ مدة، ثم دعا، وألح في الدعاء، وفي هذا تعليم للمسلم أنه في مثل هذه الحالات يكثر من الدعاء، فإنه ببركة الدعاء يفرِّج الله تبارك وتعالى عنه ما هو فيه، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)، وقال ﷺ: "لا يرد القضاء إلا الدعاء"[1].

٣. **الرقية**، وذلك بقراءة سورتي الفلق والناس؛ ففي بعض روايات حديث السحر هذا أنه ﷺ رُقي بهاتين السورتين، وكلما رُقي بآية انحلّت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، وشفي بفضل الله تمامًا، وفي سورتي

١. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩)، والبزار في مسنده، الجزء الثاني، مسند سلمان الفارسي (٢٥٤٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤).

الفلق والناس ـ واللتان تسميان بالمعوِّذتين ـ يقول ﷺ: "ما تعوَّذ متعوِّذ بمثلهما"[1].

وهكذا يتضح أن الله ﷻ شاء له ذلك ليعلِّم الأمة ماذا تفعل في مثل هذه الحالة.

والعلماء على هديه يسيرون، يستشفون بهذه الأمور، أما الجهلة فإنهم يذهبون إلى أماكن الدجل، ولولا أن الله شاء بنبيه ذلك، لذهب الجميع إلى الدجل.

على الرغم من أن تأثير السحر فيه ﷺ درجة أقل من درجته ﷺ، لكن قد يقع له ما هو أقل من درجته للتشريع، ليس هذا في السحر فقط، وإنما وقع في أمور أخرى كسهوه ﷺ في الصلاة، فقد سها في الصلاة، والسهو أقل من درجته ﷺ، لكنه سها ليعلّمنا ماذا نفعل إذا سهونا، ونام أصحابه عن وقت الصلاة وهو معهم، وليس هذا من شأنه، ولا هو باللائق بدرجته، ولكن شاءه الله ليشرِّع لنا ماذا نفعل إذا نمنا عن الصلاة، أو خرج وقتها.

إنها أحوال أقل من درجته ﷺ، شاءها الله ﷻ ليعلم الأمة دينه سبحانه، من واقع أحوال رسوله ﷺ وهو المصطفى لتبليغ الرسالة، وتوضيح معالم دينه ﷻ.

ومن ثم فتعرضه ﷺ للسحر ثابت، وكذلك عصمته ثابتة، وكما لا يُلتفت إلى من يستغل هذه الحادثة للتنقيص من عصمته والتشويش على الأمة في أمرها، فإنه لا يُلتفت ـ ولا يحتاج النبي ﷺ ـ إلى أحد يغالي في وصفه لإثبات عصمته ﷺ، وحسبه أنه خير البشر، وإمام المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين[2].

مما سبق يتضح لنا أن وقوعه ﷺ في السحر وتأثره به كان في نشاطه البدني فقط، ولا تأثير له على العقل، وفي هذا دليل على عصمة النبي ﷺ ودليل على بشريته في الوقت نفسه.

الخلاصة:

- إن النبي ﷺ وسائر الأنبياء بشر كغيرهم من الناس، فيطرأ عليهم ما يطرأ على سائر البشر من حيث الظاهر، فيجوز تعرضهم للآفات والتغيرات من مرض وسحر ظاهري ونحوه.
- إن تعرض النبي ﷺ للسحر ثابت في السنة الصحيحة، ولا يمكن التشكيك فيه، وتعرضه ﷺ للسحر لا ينافي عصمته؛ لأن السحر لم يؤثر في قواه العقلية، ولا في درجته الإيمانية، وإنما كان مؤثرًا في أداء بدنه، وهذا ليس له علاقة بالرسالة والوحي.
- القول بأن تعرض النبي ﷺ للسحر يتعارض مع آيات في القرآن الكريم، قول لا يقوم على دليل، بل هو تفسير خاطئ لآيات الكتاب الحكيم، بل إن آيات القرآن الكريم تثبت تعرض النبي ﷺ للسحر، مثل المعوِّذتين اللتين نزلتا في سحره ﷺ.
- لقد شاء الله أن يقع السحر على النبي ﷺ لكي تتعلم الأمة من بعده كيفية علاج السحر، ولا تلجأ إلى الدجل والشعوذة، إذ أرشدتنا حادثة وقوعه ﷺ في السحر إلى ثلاث وسائل لعلاج السحر، هي:
  - الصبر على الحال، والتسليم لقضاء الله، وعدم

---

١. صحيح: أخرجه الحميدي في مسنده، حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ (٨٥١)، وأبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب في المعوذتين (١٤٦٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٩٩).

٢. دفع الشبهات عن السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر، مرجع سابق، ص٩٢: ٩٤ بتصرف.

الجزع من السحر والثقة بالله ﷻ.

- كثرة دعاء الله لرفع هذا البلاء، فلا يردُّ القضاء إلا الدعاء.
- الرقية وذلك بقراءة المعوِّذتين.

الشبهة الثانية والعشرون

الزعم أن النبي ﷺ مات متأثرًا بسمِّ الشاة وأن هذا يتنافى مع عصمته(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المغرضين في عصمة النبي ﷺ، ويستدلون على ذلك بالروايات التي تذكر أن النبي ﷺ مات متأثرًا بالسمِّ الذي وضعته له المرأة اليهودية في ذراع الشاة التي أهدتها له، ويتساءلون: ألا يتنافى ذلك مع وَعْد الله لنبيه بالعصمة من الناس في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)؟! ويرمون من وراء ذلك إلى نفي عصمته ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) مهما يكن سبب موت النبي ﷺ، فإن الحقيقة التي لا يماري فيها أحد أنه بشر يطرأ عليه ما يطرأ على سائر البشر من آلام وأسقام وتعرُّض للموت، وهذا يؤكد بشريته، ولا يعد نقيصة فيه ﷺ، ولا يتنافى مع عصمته؛ فقد بلَّغ ﷺ رسالة ربه على أكمل وجه وأتمّه.

٢) إن قصة الشاة المسمومة تلك من أكبر الدلائل على عصمة رسول الله ﷺ، فقد أخبرته تلك الشاة أنها مسمومة، كما أن بقاء النبي ﷺ بعدها حيًّا ثلاث سنوات دون تأثر بالسم دليل على عصمة الله تبارك وتعالى له.

التفصيل:

أولا. النبي ﷺ بشر ككل البشر، يتعرَّض لما يتعرضون له دون أن يكون ذلك عيبًا أو نقيصة في حقه:

إن من الحقائق التي لا يستطيع أن يماري فيها أحد، أن النبي ﷺ بشر، وقد أمره ربه أن يقول لمن يسأله أن يأتي بالخوارق والمعجزات: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ۝٩٣﴾ (الإسراء)؛ فالنبي ﷺ بشر يتعرض لما يتعرض له سائر البشر من حيث الظاهر، فيجوز تعرضه للآفات والتغيرات من انقباض وبسط، وفرح وغم، وسائر الحالات من آلام وأسقام، وتعرض للموت الزؤام، وهذا كله ليس بنقيصة فيه ﷺ؛ لأن الشيء يسمى ناقصًا بالإضافة أو بالنسبة إلى ما هو أتمّ فيه، وأكمل من نوعه كأفراد الإنسان.

وقد كتب الله تبارك وتعالى على أهل هذه الدار ـ دار الهموم والأكدار ـ الحياة والموت، والخروج من المقابر، وتغير حوادث الدهر، فقد مرض ﷺ واشتكى الضر، وقد ورد في الحديث: "أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل"[1]. وأصابه ﷺ الحر

(*) سيد رسل الله وأباطيل خصومه، د. عبد الصبور مرزوق، مرجع سابق. شبهات وردود حول النبي الكريم.
www.ebnmaryam.com

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند سعد بن أبي وقاص (١٤٩٤)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٠٢).

والقُرُّ[1]، وأدركه الجوع والعطش، ولحقه الغضب والضجر، وناله الإعياء والتعب، ومسَّه الضعف والكِبَر، وسقط عن دابته، أو عن فرسه فخُدش، وشجَّه الكفار وكسروا رَباعِيَته[2]، وسُقي السمَّ، وسُحر من لبيد بن الأعصم اليهودي، وتداوى، واحتجم كما رواه الشيخان، وتعوَّذ من أعين الإنس، فلما نزلت المعوِّذتان أخذ بهما وترك سواهما، ثم قضى نحبه ﷺ وكل حي لا بد أن يموت، فتوفي ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، وتخلص من دار الامتحان والبلوى[3].

وهكذا نرى أن الله تعالى قد ابتلى نبيه ﷺ بضروب من المحن، وذلك من تمام حكمته تعالى حتى تتحقق بهذا البلاء بشريته، وليظهر شرفه ورفعة درجاته، كما قال ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ (محمد)، وتسلية لأمته، وتذكرة لهم ليتأسوا به في البلاء.

ومن ثم فلا توجد أية غضاضة في تعرضه ﷺ للقتل ومحاولات الاغتيال، وقد تعرَّض قبله كثير من الأنبياء لمثل هذه المحاولات، مثل إبراهيم ﵇ الذي تعرض للإلقاء في النار من قِبَل قومه، ولكن الله نجاه منها، وكذلك تعرض موسى وهارون للقتل من فرعون ومن بني إسرائيل، ونجاهما الله، وكذلك حاول اليهود قتل عيسى ﵇، ومن ثم فإن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧). لا يتنافى مع كونه بشرًا سيموت، ولا يتعارض مع تعرضه لكثير من المحاولات لقتله.

"وكأن الحق تعالى يقول لرسوله: اطمئن يا محمد؛ لأن من أرسلك هداية للناس لن يخلِّي بينك وبين الناس، ولن يجرؤ أحد أن ينهي حياتك، ولكن سأمكِّنك من الحياة إلى أن تكمِّل رسالتك، وإياك أن يدخل في روعك أن الناس يقدرون عليك، صحيح أنك قد تتألم، وقد تعاني من أعراض التعب في أثناء الدعوة، ولكن هناك حماية إلهية لك"[4].

والمتأمل في هذه الآية الكريمة التي تثبت عصمة النبي ﷺ من الناس يجد أنها جاءت في سياق تبليغ النبي ﷺ للرسالة فهي مقترنة بها، فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة).

فالعصمة هنا مرتبطة بتبليغ الرسالة، وقد حَدَثَتْ له بنعمة الله، فإذا ما بلَّغ الرسول الأمين الرسالة، فهو لا شك عائدٌ إلى ربه، وأفضل الموت ما كان في سبيل الله، وكيف لا وقد تمنى ﷺ هذا حين قال: "والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل"[5]. وذلك لما علمه من أجر الشهيد، فإذا افترضنا أن النبي ﷺ قد مات بسبب أكله من الشاة المسمومة، فقد قدَّر الله له هذه الوفاة الطيبة؛ لتكتمل فضائله ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ

---

١. القُرُّ: البرد.

٢. الرَّباعية: مقدمة الأسنان.

٣. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٥٢٥ بتصرف يسير.

٤. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٦، ص٣٢٨٩.

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (٤٩٦٧).

﴿ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر)، كما أن الله تعالى لم ينف عن نبيه إمكانية القتل، في قوله ﷻ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

فلا عجب أن يكتب الله له الشهادة ليُكتب مع الشهداء عند ربهم، وما أعظم أجر الشهيد، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يموت في الأجل الذي أجَّله الله له رغم تأثره بالسم من لحظة أكله من الشاة المسمومة؛ إذ مات بعد ذلك بثلاث سنوات[١].

وصفوة القول أن عصمة النبي ﷺ ثابتة بكل المقاييس، حتى وإن تُوفي متأثرًا بهذا السم؛ لأن العصمة التي وعده الله بها هي العصمة من القتل قبل تبليغ الرسالة، ولم يمت ﷺ إلا وقد بلغها على أكمل وجه، وقد شهد الله بهذا في قوله ﷻ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣)®.

ثانيًا. قصة الشاة المسمومة من أكبر الدلائل علي عصمة النبي ﷺ:

قال صاحب "بلوغ الأماني" عن الشاة المسمومة: "أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك[٢] منها مضغة، ولم يُسِغْها[٣]، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها".

وفي مغازي عروة: "فتناول الذراع فانتهش[٤] منها، وتناول بِشْر عظمًا آخر، فانتهش منه، فلما أَرْغم[٥] رسول الله ﷺ، أَرْغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله: ارفعوا أيديكم، فإن كتف الشاة تخبرني أنّي قد بُغِيتُ فيها، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أُكلتي التي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أُنغِّصَ[٦] طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أَرْغَبْ بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا تكون رَغِمْتها وفيها بَغْي".

وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله، فقالت: أردت قتلك، فقال: "ما كان الله ليسلِّطك علي"، قالوا: ألا تقتلها؟ قال: "لا"، ولم يتعرَّض لها، ولم يعاقبها، واحتجَمَ على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم.

وقد اختُلف في قتل المرأة، والصحيح أنه لما مات بِشْرٌ قَتَلَها، ولقد كان السم الذي وضعَتْه اليهودية قويًّا جدًّا؛ إذ مات بِشْرُ بن البراء فورًا، وبقي رسول الله ﷺ يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونَصَح الأمةَ، وتركها على المحجَّة البيضاء ليلها

١. مقتطفات من شبكة هجر الثقافية على الشبكة الدولية Internet.

® في "الابتلاء سنة من سنن الله ﷻ في الخلق" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). وفي "بشرية النبي ﷺ وسائر الأنبياء" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء.

٢. لاكَ: أدار اللُّقمة في فمه.
٣. يُسِيغ: يبلع.
٤. انتهش: أكل منها بفمه.
٥. أرغَم: ألقى.
٦. أُنغِّص: أُفسد.

كنهارها، وقد روى الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرض موته الذي مات فيه: "يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[1] من ذلك السم" [2] [3].

والمتأمل في هذه القصة كما هو ثابت ومعلوم في كتب التفسير والمغازي والسِّيَر، يتبين له أنها من أكبر الدلائل على نبوة محمد ﷺ، وعلى عصمة الله له من الناس، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. إن في إخبار الشاة له ﷺ بأنها مسمومة خير دليل على معجزاته ﷺ، وعلى صدق نبوته، فهي من الأمور الخارقة التي اختُص بها محمد ﷺ دون سائر الأنبياء، وهذا يبين عظيم منزلته عند ربه.

٢. إن عدم موت النبي ﷺ بعد أكله من هذه الشاة المسمومة سمًّا قاتلًا في الحال، وبخاصة الذراع المليئة بالسم لهو من أكبر أدلة عصمة الله له - أيضًا -، فقد عصم الله نبيه من الموت حتى بلَّغ رسالته على أكمل وجه، فقد عاش النبي ﷺ بعد هذه الحادثة ثلاث سنوات، ولو لم يكن معصومًا من قِبَل الله تعالى، لمات بعد أكله من الشاة مباشرة، كما مات بشر بن البراء حيث تغيَّر لونه كالطيلسان - أي اسودّ - ثم مات من تأثير سم اليهودية، على الرغم من أنه لم ينهش منها إلا نهشة واحدة، كما فعل النبي ﷺ، وهذا إن دل فإنما يدل على عصمته ﷺ، وأنه رسول من عند الله حقًّا ويقينًا، فأنَّى لإنسان غير معصوم أن يأكل سمًّا لا يؤثر فيه، ولا يتسبب في موته لمدة ثلاثة أعوام؟

٣. إن مما يؤكد عصمة النبي ﷺ أيضًا: شهادة المرأة اليهودية صاحبة الشاة، فقد سألها النبي ﷺ لم صنعت هذا؟ فقالت له: قتلت أبي وعمي وزوجي، ونلت من قومي ما نِلت، فقلت إن كان نبيًّا فستخبره الشاة ما صنعت، وإن كان ملكًا استرحنا منه. وقد أخبرته الشاة أنها مسمومة، وفي هذا دليل على أنه نبي معصوم.

ومن ثم فإن هذه القصة لا تنفي عصمته ﷺ بل هي دليل عليها وعلى حفظ الله تعالى له، حتى بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة، وترك أمته على المحجة البيضاء ﷺ.

الخلاصة:

- إن النبي ﷺ بشر ككل البشر، فلا عجب أن يتعرض لما يتعرض له البشر من آلام وأسقام، وتعرض للموت، وهذا لا يعد نقيصة ولا عيبًا، ولا يتنافى بحال من الأحوال مع عصمته ﷺ المشار إليها في الآية التي استدل بها مثيرو هذه الشبهة، وهي قوله تعالى﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (المائدة: ٦٧)؛ لأن هذه العصمة هي عصمته في تبليغ رسالة ربه، وقد بلَّغها ﷺ على أكمل وجه وأتمّه، سواء توفي رسول الله ﷺ متأثرًا بسمّ الشاة أم غير متأثر به، فهذا لا يتنافى مع عصمة الله له، ولعل الله أراد أن يجمع له الشهادة بهذا؛ لأن أفضل الموت ما كان في سبيل الله ﷻ.
- إن المتأمل في قصة الشاة المسمومة يجد فيها

---

١. الأبهَر: عِرق متصل بالقلب تتشعب منه سائر الشرايين إذا انقطع مات صاحبه.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٦٥).

٣. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥١، ٤٥٢.

العديد من الدلائل على عصمة النبي ﷺ من الناس، ومن هذه الدلائل:

- إخبار الذراعِ النبي ﷺ أنها مسمومة.
- أن النبي ﷺ لم يمت؛ بل ظل حيًّا بعدها ثلاث سنوات دون أن يؤثِّر فيه السم.
- شهادة المرأة اليهودية بنبوته؛ إذ عُصم من السم.

الشبهة الثالثة والعشرون

ادعاء أن النبي ﷺ كان يتملَّص من مطالب المشركين واليهود؛ لأنه لم يُؤَيد بالمعجزات(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشكِّكين أن النبي ﷺ كان يتملَّص من مطالب المشركين واليهود؛ لأنه كان يفتقد تأييد الله له بالمعجزات، فلم يكن كغيره ممَّن سبقوه من الأنبياء والرسل، ويستدلون على ذلك بما زعموه من أنه ﷺ لم يستجب لمطالبهم حين طلبوا منه أن يَأْتِيَهم بمعجزات حِسِّيَّة؛ ويمثلون لذلك بما كان من أمره ﷺ مع عبد الله بن أمية المخزومي، الذي قال له: لا أومن لك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّما، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة. وبما كان من أمر اليهودي الذي قال للنبي ﷺ: يامحمد، إن كنت رسول الله كما تقول، فقل لربك يكلمنا؛ حتى نسمع كلامه. فلم يرد النبي ﷺ إلا بقوله ما بُعثت إليكم بهذا.

وجوه إبطال الشبهة:

1) لقد شاء الله تعالى ألا يعلِّق الإيمان بنبيه ﷺ على المعجزات المادية الخارقة للعادة؛ لأنها محدودة المحل والأثر، ولأن رسالة الإسلام جاءت لتقضي على ما يعجز العقل وتصحبه إلى غاية رشده ونضوجه.

2) إن عالمية الرسالة الإسلامية ودوامها هو ما جعلها تستقلُّ عن التقيُّد بمعجزة حسية مؤقتة، لا عالمية لها ولا دوام.

3) على الرغم من أن النبي ﷺ لم يعوّل على المعجزات الحسية المادية في إثبات نبوته -إلا أنه كان مؤيَّدًا بهذه المعجزات، كغيره من الأنبياء والمرسلين، ولا نبالغ إذا قلنا: إن نبيًّا من الأنبياء لم يتوفّر له من المعجزات ما توفّر لمحمد ﷺ.

4) لم يُجْر الله ﷻ على يد نبيه ﷺ ما طلبه منه هؤلاء المعاندون، وهو ﷻ قادر على كل شيء؛ لأنهم لم يسألوا مسترشدين جادين، ولكنهم سألوا متعنتين مستهزئين. ولو أعطى هؤلاء ما سألوا من الآيات الحسية، ثم لم يؤمنوا لأهلكهم الله ﷻ كما أهلك عادًا وثمود وقوم فرعون، ولكن الله ﷻ رفع عن هذه الأمة عذاب الاستئصال بفضل نبيها محمد ﷺ الذي بعثه رحمة للعالمين.

التفصيل:

أولا. إن الظرف الزمني الذي بُعث فيه النبي محمد ﷺ وراء تراجُع المعجزة الحسية عن صدارة دلائل نبوته ﷺ:

معلوم أن بعثة النبي ﷺ جاءت في ملابسات زمنية

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات. www.islameyat.com. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق. القرآن واليهود، منصور الرفاعي عبيد، مركز الكتاب للنشر، مصر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

خاصة جعلت موقعها موقعًا وسطًا بين فكر طفوليّ آفِل، وفاتحة رشد عقلي وشعوري نامٍ في الإدراك البشري العام، وكانت هذه الحقيقة التي فرضتها ملابسات الزمن وراء حدوث الآيات الحسية له ﷺ من غير أن تكون حجّتَه الأولى، ولا عماد من آمن به.

بل كانت عادة الإسلام فيمن طلب خوارق الطبيعة أنه يَلْفِتُ حِسَّه، و عقله، وشعوره إلى الطبيعة الماثلة بين عينيه هكذا بلا خوارق، وإنّ فيها ـ على طريقة القرآن ـ لآيات لأولى العقول القويمة والقلوب اليَقْظَى.

ولذلك حينما جاءت قريش إلى النبي ﷺ، وعرضوا عليه أن يترك الدعوة الإسلامية ويعطوه الملك والشرف والمال، ورفض النبي ﷺ ذلك؛ قالوا: فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادًا، ولا أقلَّ مالًا، ولا أشدَّ عيشًا منا، فسل ربك الذي بعثك بها بعثك به فلْيسيِّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ومنهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول، فقال لهم ﷺ: "ما بهذا بُعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلَّغتكم ما أُرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بيني وبينكم".

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فَخُذْ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسَلْهُ فليجعل لك جِنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بهذا عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم. فقال لهم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تَرُدُّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فليُسقط ربك السماء علينا ـ كما زعمت ـ فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال: "ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم". وقال قائلهم: "لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلًا"، فقام عنهم رسول الله ﷺ وقام معه عبد الله بن أمية بن المغيرة فقال: "يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، فوالله لا أؤمن لك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا ثم ترقى منه، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول". وانْصَرَف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا.

وقد ذكر الله في القرآن بعض ما طلبه المشركون من النبي ﷺ من معجزات قال الله ﷻ: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا

﴿تَقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)، والله يعلم أن هؤلاء المكذبين لن يؤمنوا ولو جاءتهم المعجزات قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (الأنعام). بل سيقولون: سحرنا محمد[1].

ولا شك أن اليهودي حينما طلب من النبي ﷺ أن يكلمه الله ما كان يريد الهداية والرشاد، وإنما يريد العناد والاستكبار، ولا عجب أن يصدر منه مثل ذلك، فقد صدر من أسلافه ما هو أكبر من هذا فقالوا لموسى: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء: ١٥٣)، وهذا هو ديدن اليهود كلما جاءهم نبي من الأنبياء.

وكيف يتجرأ مثل هذا على أن يطلب من الرسول ﷺ أن يكلمه الله؟ فالأنبياء أنفسهم لم يكلمهم الله جميعًا إلا بواسطة، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (الشورى)[2].

أكان يريد أن يقول له الله إنه أرسل محمدًا رسولًا ليبلغهم بمنهج السماء؟ وكأن كل المعجزات التي أيد الله بها رسوله ﷺ لم تكن كافية لإقناعه[3].

لقد كان أحرى بهذا اليهودي، وغيره أن يؤمنوا بالنبي ﷺ وذلك "لمعرفتهم بالنبي ﷺ من جهة؛ ولأنهم مأمورون باتباعه في كتبهم المقدسة، وموروثات نبيهم موسى عليه السلام، ولأنهم كانوا ينتظرون على شوق مجيئه حتى يتبعوه، فينجبر به كسرهم، ويكتسبوا به عزتهم وشرفهم، وينتصروا به على عدوهم - كما يتصورون - من جهات أخرى.

غير أن النبي ﷺ حين عرض عليهم أن يؤمنوا به وبنبوته، ثم يتبعوه على ما جاء به من ربه، رفضوا ذلك على غير قناعة، بل رفضوا على أساس الحسد الذي قد ملأ قلوبهم، وزاد عن حشوا إهابهم"[4].

ولعل النبي خطر له أو تمنى لو يقدّم لهم آية عسى أن يؤمنوا فقال له الله ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ (الشعراء)، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (آل عمران)[5].

ولقد شاء الله ﷻ ألّا يُعلِّق الإيمان بنبيِّه على خارقة مادية على الوجه الذي أرادته العرب؛ "فإن الخوارق الحسية قد تُدهِش القلب البشري في طفولته، قبل أن

١. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٤٥: ٤٧.

٢. تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام مقبل المجيدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٨٣.

٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج١، ص٥٥٤ بتصرف يسير.

٤. رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعاملاته مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مطبعة رشوان، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٦.

٥. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، مرجع سابق، ص٤٧.

يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم، وإن كان لا يستثير الحسَّ البدائي كما تستثيره تلك الخوارق"[1]!

ورسالة الإسلام دائمة تصحب العقل البشري إلى غاية رشده ونضوجه؛ فلذلك لم تعوِّل كثيرًا على الخوارق المادية المحدودة المحل والأثر.

إن معجزة محمد ﷺ هي القرآن الباقي إلى يوم الدين، والذي يخاطب العقل بالدليل العِلْمي، ويقول له: إن سنن الله وقوانينه في الكون والحياة هي أعظم من المعجزات والخوارق، وإن محمدًا ﷺ لم ينتصر على قومه بالخوارق، لكنه مشى حسب سنن الله في الدعوة، وانتصر بالسنن.

ولقد تحدث الفيلسوف محمد إقبال عن هذه الناحية فقال: "إن محمدًا ﷺ ورسالته يقف بين العالم القديم والعالم الحديث، وكأنه مرحلة انتقالية - من حيث الانتقال التدريجي من فكر: الخرافة، والتقليد، والمعجزات إلى العقل الاستدلالي السُّنَني". والقرآن حين نزل كان فوق مستوى معاصريه في المنهج العلمي السنني الذي نصَّ عليه وطالب به قرَّاءه. وهذا ما يجعلنا نفهم حدوث بعض المعجزات المادية في حياة النبي ﷺ لكنها لم تكن هي الحجة البالغة التي آمن بسببها الناس. والنبي ﷺ كان يعلن بكل تواضع عندما يطلبون منه المعجزات أنه مجرد إنسان أرسله الله لتبليغ دعوته ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء).

وقد يسأل سائل: إذا كان الأمر هكذا من أن الإسلام جاء ليقضي على ما يُعجز العقل، فلماذا حدث لمحمد ﷺ بعض من هذه المعجزات؟

وإننا نقول له: إن حدوث بعض المعجزات الثانوية على طريق الدعوة جاء مُسايرة للمرحلة الراهنة مثل انشقاق القمر، وأحيانًا تأتي تكريمًا للنبي ﷺ وإيناسًا له مثل الإسراء والمعراج، وأحيانًا تلبية لدعاء وتفريجًا لِهَمّ، مثل نبع الماء من بين أصابعه ﷺ عندما كانوا بحاجة ماسَّة إلى الماء.

لكن الخط الأساسي في منهج القرآن وسنة النبي ﷺ هو المنهج العلمي ومراعاة سنن الله، وإن من يقوم بالأسباب تأتيه نتائج كالمعجزات، أليست معجزة أن تخرج شجرة سامقة ذات ثمار رائعة من بذرة هَيِّنة وُضعت في التراب؟!

إن من يجعل حياة النبي ﷺ كُتْلة من المعجزات فقط يُسيء إلى رسالته ويحرمنا الاقتداء به، فكيف نَبْني مجتمعًا ربانيًّا؛ إن كان قد بناه بالمعجزات؟! قال ﷻ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء).

إن الله جعل محمدًا ﷺ بَشَرًا يفكر ويُحس، ويفرح ويحزن كما يحصل للبشر، وينتصر وينهزم كما يحدث لسائر البشر؛ كي يتعلم منه الناس، ولكي يكون منهجه مُيسّرًا للبشر، فإن سنن الله لا تنصر الأنبياء وحدهم وإنما تنصر كل من تأسَّى بهم[2].

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٤٢٧.

٢. انظر: هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، مرجع سابق، ص٤٨، ٤٩.

ثانيًا. الرسالة الخالدة لا تتقيَّد بمعجزة مؤقتة:

لم يكن القصد من المعجزات الحسية التي أجراها الله على يد النبي ﷺ إثبات رسالته؛ ذلك أن رسالته كانت تتجه إلى العالمية، وهي لا تحتاج إلى معجزات حسية تُقيِّدها زمانًا ومكانًا، وحسبك من رسالة تقوم حجتها على العقل، وأخرى لا تقوم إلا على غرائب وأعاجيب.

لهذا لم يُعوِّل ﷺ في إثبات رسالته على المعجزات الحسية؛ لأنه يَلْزم بحال أن يكرِّرها أمام كل معاند،والمعجزة على العموم، برهان صِدْق من جاء بها، النظر عن نوعها: عصا في يد سيدنا موسى عليه السلام، أو ناقة يتحدّى بها صالح عليه السلام قومه، أو ميت تعود إليه الحياة، أو صاحب علة مستعصية، يُذْهب الرسول عنه عِلَّته.

ومن يكفر بمعجزة إحياء الموتى على يد المسيح ابن مريم عليه السلام، لن يؤمن لو جاء محمد ﷺ بالآلاف منها؛ فلا ضرورة إذن للمعجزات، ولا فائدة من تكرارها، وقد جاء الأنبياء السابقون بالآيات الحسية، فما كان أيسر على المكذبين من أن يَنعتوها بالسحر، ولم ينقطع تعنُّتهم بكثرة ما عُرِض عليهم منها.

وإصرار اليهود - إلى اليوم - على رفض معجزات المسيح لهو البرهان الدامغ على عدم جدوى المعجزات الحسية، فهذا هو دَيْدَنُ المكذِّبين، كلما جاءهم رسول بمعجزة سألوه أخرى، وها هي حكمة الله تتجلَّى في رفع الآيات الحسية، ورفع عذاب الاستئصال المترتِّب عليها.

لقد سأل أهل مكة رسولنا ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن يُنحِّي الجبال عنهم فيزدرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني[1] بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلِكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (الإسراء)[2].

فهل هناك ما هو أعجب من ناقة ثمود؟ ومع ذلك فقد عقروها، وأصرُّوا على عنادهم، واستكبروا استكبارًا، وإذ يُقدِّم القرآن الكريم موقف الضالين من قوم ثمود، فإنه يكشف بما مضى عما هو صائر، فليست الخوارق مما يغني النبي في دعوة المكابر المفتون، إنه ليَزعُمها ضربًا من السحر، أو السُّكْر ولو فتح له الأنبياء بابًا من السماء، قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجر).

ومع ذلك جاءت الخوارق طائعة لمحمد ﷺ فصدقها النّاس، وأبى هو ﷺ لهم أن يصدقوها أو يفهموها على غير حقيقتها، فقد مات ابنه إبراهيم وكُسفت الشمس ساعة دفنه، وتصايح المسلمون حول القبر: إنها لآية من آيات الله أن تنكسف الشمس لموت ابن محمد ﷺ؛ فلو كان - صلوات الله عليه - ممن يتصيَّدون الخوارق، أو

---

١. تستأنِي: تتأنَّى ولا تتعجل.

٢. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ (٢٣٣٣)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب التفسير، سورة الإسراء (١١٢٩٠)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد.

يُنكرونها - لأنهم لا يستطيعون أن يَدَّعوها - لما كلَّفته هذه الخارقة إلا أن يسكت عنها فلا يدَّعيها ولا ينكرها، ولكنه لم ينس في ساعة حزنه أمانة الهداية للمؤمنين بدينه، وبادرهم لساعتها مُذكِّرًا لهم بآيات الله تعالى.

فقد رُوي عن المغيرة بن شعبة أنّه قال: كُسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كُسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: "إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلُّوا وادعوا الله"[1].

ولو أنه كانت تؤَثِّر فيه مطالبة قومه الخاصة بإثبات نبوته لسكت عنها، وإذًا لحسبوها له معجزة لم يتحقق مثلها لإله النصارى ساعة صلبه كما يزعم هؤلاء.

ولو كان ﷺ من الذين لا يُقرُّون بالمعجزات ما قدَّم معجزة غير تلك التي أنكرها، ولكنه اكتفى بالقرآن الكريم دليلًا على أنه مرسلٌ من قِبل الله تعالى، ليس صانعًا للمعجزات، فهو لا يملك تحديد نوع ما يُجريه الله على يديه من خوارق، ولا التحكُّم فيه إذا جرى، لا يقدر أن يوقف معجزة تحركت أو يحرِّك أحداث معجزة توقفت، فالفعل المعجز دائمًا بيد القدرة الإلهية توجهه كيفما تشاء، حجة على المكابرين والمستنكفين، فأمام هؤلاء تمضي - وإلى أبد الدهر - بارجة الإعجاز القرآني، لا يملك أحد أن يوقفها أو يُبطل حركتها، ونحن الآن كما كان المعاصرون لنزول القرآن الكريم، تتجلَّى أمام أعيننا ألوان من الإعجاز في تطابق الآيات القرآنية مع الحقائق العلمية.

فَرِسالة الإسلام ممتدة زمانًا ومكانًا؛ ولهذا وجب أن تكون الآية المؤيدة لها كذلك، فكانت دون سائر المعجزات كلامًا يُتلى أبد الدهر، ولم تكن الحكمة أن يأتي بمعجزات حسية تنتهي بعصره، وتكون قابلة للتشكيك بعد عصره، فكانت معجزة تحمي ما سبقها من معجزات وقتية، ومن ينكر إعجاز القرآن فلينكر ما تضمنه من معجزات لموسى وعيسى، والتي لا يمكن إثباتها من طريق آخر[2].

على أن الإعراض عن المجيء بخارقة مادية يشبه أن يكون سنة لله مع بعض أنبيائه؛ بيانًا منه - تعالى - لكون الآيات من عنده يُحدِثها حين يشاء، ومِنْ عَجَبٍ أنّ مَن يسوق هذا الزعم قد يُقِرّ بما في الكتب المقدسة لغير المسلمين، وفيها هذا الإعراض ذاته، ومن ذلك ما جاء في الإنجيل عن المسيح: "وخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آيةً من السماء، لكي يجربوه. فتنهد بروحه وقال: لماذا يَطْلُبُ هذا الجيل آيةً؟ الحق أقول لكم: لن يُعْطَى هذا الجيلُ آيةً"! (مرقس٨: ١١، ١٢).

ثالثًا. ثبوت المعجزات المادية الحسية للنبي ﷺ:

لقد أيَّد الله نبينا محمدًا ﷺ بمعجزات كثيرة، ومعجزته الكبرى القرآن الكريم الذي جاء مناسبًا

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس (٩٩٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة (٢١٦٠).

٢. الردُّ على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين"، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٥٤: ١٥٨.

لقومه وعصره، ومناسبًا للبَشَر كافة إلى يوم القيامة، بينما كانت معجزات الأنبياء السابقين، مناسبة لمطالب أقوامهم وزمانهم فحسب.

والأنبياء يختلفون كثرة وقلة في ظهور هذه المعجزات، وخوارق العادات بحسب أحوالهم، وطبيعة أزمانهم، وأحوال أُممهم وشعوبهم، فبعضهم لا نعلم له إلا معجزة واحدة كصالح وهود، وبعضهم كان له أكثر من معجزة كعيسى وموسى، ولكن محمدًا ﷺ كان أكثر الأنبياء معجزات وأظهرهم آيات، وأوضحهم خوارق للعادات، اشتملت معجزاته على المعقول والمحسوس، والعلوي والسفلي، والناطق والصامت، والمتحرك والساكن، فمنها معجزات ذهبت بذهاب زمانها، ومنها معجزات ظلت على وجه الدهر ساطعة بنورها وبرهانها؛ ذلك لأنه ﷺ خاتم الأنبياء، ورسالته هي خاتمة الرسالات، وهي الباقية على وجه الأرض، حتى تُبَدَّلَ الأرض غير الأرض والسماوات[1].

وقد كانت معجزة كل نبي مناسِبة للعصر الذي كان يعيش فيه ذلك النبي، ومن جنس ما اشتهر به القوم الذين بُعث فيهم وما برعوا فيه حتى يكون خرقها للعادة الجارية أوضح لإقامة الحجة عليهم.

ونحن إذا أردنا حصر معجزات محمد ﷺ وجدنا ذلك عملًا في غاية الصعوبة؛ نظرًا لأن معجزاته ﷺ تكاد لا تُعد ولا تُحصَى لكثرتها وتنوعها. والحق إن الحديث عن المعجزات الحسية لمحمد ﷺ طويل فإذا أردنا اختصاره لم نوف بحقيقة معجزاته ﷺ، وإذا

---

١. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص١٢٧.

أسهبنا فيه احتجنا إلى كتاب مستقل[2]؛ لذلك سنحاول الاختصار في عرض بعض النماذج من هذه الآيات النبوية التي اتخذت مظهرًا حسيًّا، وقد ثبَّت الله تبارك وتعالى بها قلوب أصحاب نبيِّه ﷺ، وزادهم بها إيمانًا ويقينًا، دون أن يرجع إليها أصل الإيمان أو يعلَّق عليها، منها:

١. **انشقاق القمر:**

فقد طلب أهل مكة من النبي ﷺ أن يريهم معجزة، فكان أن انشقَّ القمر الذي في السماء، وكان في مرحلة البدر، فقد جاء عن ابن مسعود وابن عباس وأنس ﷺ: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: "اشهدوا"[3]. وفي رواية: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُرِيَهم آية، فأراهم القمر حتى رأوا حِراء بينهما[4].

٢. **نبع الماء من بين أصابعه الشريفة:**

وقد تكرر هذا الموقف أكثر من مرة، ومن روايات البخاري في هذا المجال رواية جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه رِكْوة[5]، فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه فقال رسول الله ﷺ: ما لكم؟ قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركوتك،

---

٢. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٣٠٢ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة القمر (٤٥٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر (٧٢٤٩).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب انشقاق القمر (٣٦٥٥).

٥. الرَّكوة: إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء.

قال: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا، فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[1].

٣. **حنين الجذع:**

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: "كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوَّل إليه، فحَنَّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه"[2]. وفي رواية أخرى: "فصاحت النخلة صياح الصبي"[3]. وفي رواية ثالثة: "فسمعنا لذلك الجِذع صوتًا كصوت العِشار"[4][5].

ويقال: كان الحسن إذا حدَّث بهذا الحديث يقول: يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إلى لقائه فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه.

٤. **الدعاء المستجاب:**

كان الرسول ﷺ مستجاب الدعوة، وتحققت هذه الدعوات كلها، ومن ذلك ما جاء عن أنس ﷺ أنه قال: أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ بينما هو يخطب يوم الجمعة، إذ قام رجل فقال: يا رسول الله، هلكت الكُرَاع[6]، هلكت الشاء، فادع الله يسقينا، فمدَّ يده ودعا، قال أنس: وإن السماء كمثل الزجاجة[7]، فهاجرت ريح أنشأت سحابًا، ثم اجتمع ثم أرسلت السماء عَزاليها[8]، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم نزل نُمطَر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله، تهدَّمت البيوت، فادع الله يحبسه، فتبسم ثم قال: "حوالينا ولا علينا"، فنظرت إلى السحاب يتصدَّع[9] حول المدينة، كأنه إكليل[10] [11].

٥. **تكليم الشاة المسمومة له:**

وقد ذُكرعن الشاة المسمومة: "أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت: أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذِّراع، فأكثرت فيها من السم. فلما تناول الذراع لاك منها مُضغَة، ولم يُسِغها، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لُقمَة ومات منها".

وفي مغازي عروة: فتناول الذراع فانتهش منها، وتناول بشر عظمًا آخر، فانتهش منه، فلما أَرغَم رسول

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٢١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام (٤٩٢٠)، واللفظ للبخاري.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٩٠).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٩١).

٤. العِشار: الحوامل من الإبل التي أتى عليها عشرة أشهر وقاربت الولادة.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٩٢).

٦. الكُراع: الخيل وعدَّة الحرب.

٧. السماء كمثل الزجاجة: أي في صفائها، يُقصد خلوها من السُّحُب.

٨. العَزالي: جمع عَزْلاء، وهي مصبُّ الماء من القِربَة، ويُقصد بذلك كثرة تتابع المطر من السماء.

٩. يتصدَّع: يتفرَّق.

١٠. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٨٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٢١١٦).

١١. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، مرجع سابق، ص١٥١: ١٥٣.

الله ﷺ أرغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله: "ارفعوا أيديكم، فإن كَتِف الشاة تخبرني أني قد بُغيت فيها".

وقد رُوي عن أنس بن مالك أن هذه المرأة جِيء بها إلى رسول الله ﷺ، فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك. قال: قالوا: ألا نقتلها، قال ﷺ: "لا". قال: فما زلت أعرفها في لهوات[1] رسول الله ﷺ[2].

وهكذا فقد أخبر عظم شاة مذبوحة، ومسلوخة، ومقطعة، رسول الله ﷺ ألا يأكل من لحمها المسموم، وهو الأمر الذي لم يحدث لنبي قبله.

ما سبق عرضه من معجزات النبي ﷺ المادية والخارقة للعادة هو غيض من فيض، وقليل من كثير، ولكنه كاف للتأكيد على أن النبي ﷺ كان مؤيدًا بالمعجزات كغيره من الأنبياء والرسل، بل كان ﷺ كما سبق أن قلنا أكثر الأنبياء معجزات، وأوضحهم آيات، وقد شملت معجزاته الحسية أهم معجزات الأنبياء الحسية، وكانت أعظم منها، كما يلاحظ فيما يلي:

١. **من أهم معجزات إبراهيم** عليه السلام: أنه كان يكلم الله، كذلك كان موسى عليه السلام الذي كلمه الله من خلال العليقة ـ الشجرة ـ، أو من خلال الغمامة، وقد كلم الله إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ وهما على الأرض، كذلك فإن محمدًا ﷺ قد كلمه الله وحيًا على الأرض، ثم استُدعي إلى الحضرة الإلهية لتلقي أوامر الله تعالى في رحلة المعراج.

٢. **من معجزات موسى** عليه السلام: أنه كان كليم الله، أما محمد ﷺ فقد كلم الله على الأرض وفي السماء، وتفجر لموسى عليه السلام الماء من الصخر، بينما نبع الماء من بين أصابع محمد ﷺ، وقد أظلت الغمامة موسى وقومه عندما عبروا الصحراء، بينما محمد ﷺ أظلته الغمامة وحده دون القافلة، أثناء رحلته إلى الشام وهو غلام.

٣. **من معجزات سليمان** عليه السلام: أنه كان يفهم كلام الحيوان، وكلام الجان، أما محمد ﷺ فقد كلم الشجر، وكلمه الحجر، وكلم الجان فآمنتْ به، وفهم كلام الحيوان؛ إذ فهم كلام البعير الذي اشتكى صاحبه.

٤. **من معجزات عيسى** عليه السلام **(حسب الأناجيل)**: أطعم المسيح عيسى عليه السلام ٤٠٠٠ : ٥٠٠٠ شخص من قليل من الطعام، ولعدة مرات، كذلك أطعم محمد ﷺ الكثير من طعامٍ قليل، ولعدة مرات في حوادث كثيرة، حيث أطعم جيش تبوك البالغ عدده عشرة آلاف رجل من قليل، فأكلوا، وفاض منه مئونة للطريق، كما أطعم من قليل من التمر ثلاثة آلاف مقاتل، وكما شُفيت المرأة النازفة عندما لمست ثوب المسيح عليه السلام اتخذ أصحاب النبي ﷺ من جبته التي كان يلبسها علاجًا لشفاء مرضاهم من جميع الأمراض، وكما هدأ المسيح عليه السلام بكلمة أمر عوامل الطبيعة الهائجة من عاصفة وهياج بحر، هدأ محمد ﷺ الزلزال عندما ضرب جبل أحد الذي كان يقف عليه هو وبعض أصحابه[3].

وهكذا يتبين لنا أن النبي ﷺ على الرغم من أنه لم يعوِّل على المعجزات الحسية في إثبات نبوته ـ إلا أنه كان مؤيدًا بهذه المعجزات كغيره من الأنبياء والمرسلين، بل

١. اللَّهَوات: جمع اللَّهاة، وهي اللحمة المعلقة في أصل الحَنَك.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين (٢٤٧٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السم (٥٨٣٤).

٣. انظر: قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٣٣٦: ٣٣٩.

لا نبالغ إذا قلنا إن نبيًّا من الأنبياء لم يتوفر له من المعجزات مثلما توفر لمحمد ﷺ.

رابعًا. الحكمة في عدم إجابة مطالب هؤلاء المعاندين:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء).

يقول الشيخ الشعراوي: "والمقصود بالآيات التي منعها الله عنهم ما طلبوه من معجزات أخرى جاءت في قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ (الإسراء: ٩٠ - ٩٣).

والمتأمل في كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البعد عن مجال المعجزة التي يراد بها في المقام الأول تثبيت الرسول ﷺ وبيان صدق رسالته وتبليغه عن الله، وهذه لا تكون إلا في أمر نبغ فيه قومه ولهم به إلمام، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض، وهل إسقاط السماء عليهم كسفًا يقوم دليلًا على صدق الرسول؟أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق.

جلس كفار مكة إذن يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات، والحق ﷻ ينزل من المعجزات ما يشاء، وليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شيء قال ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ (يونس: ١٦).

فالحق ﷻ قادر أن ينزل عليهم ما اقترحوه من الآيات فهو ﷻ لا يعجزه شيء، ولا يتعاظمه شيء، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات.

والحق ﷻ يقول: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ (الإسراء: ٥٩) لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها فأجابهم الله وأنزلها لهم، فما كان منهم إلا أن استكبروا، وكفروا بالآية التي طلبوها، بل وأكثر من ذلك ظلموا بها، أي: جاروا على الناقة، وتجرّأوا عليها فعقروها.

وهذه السابقة على ثمود هي التي منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات، وليس عجزًا منا عن الإتيان بها" [1].

ويوضح لنا د. محمد أبو شهبة تلك الحكمة من عدم إجابة مطالب المشركين، يقول: والله ﷻ لم يجبهم إلى ما سألوا ـ وهو القادر على كل شيء ـ لأنهم لم يسألوا مسترشدين وجادين، وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين وقد علم الحق ﷻ أنهم لو عاينوا، وشاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، وللجّوا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون؛ ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية والرحمة الربانية، ألا يجابوا إلى ما سألوا؛ لأن سنته ﷻ أنه إذا طلب قوم آيات فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا عذبهم عذاب الاستئصال، كما فعل بعاد وثمود وقوم فرعون.

فلو أُعطيت قريش ما سألوا من الآيات الحسية التي اقترحوها، ثم لم يؤمنوا لأُهلكوا، ولكن الله ﷻ رفع عن هذه الأمة عذاب الاستئصال بفضل نبيها محمد ﷺ فقد

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٤، ص٨٦٣٧، ٨٦٣٨.

بعثه الله رحمة، ولم يبعثه نقمة.

وليس أدل على هذه الرحمة المحمدية مما جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك، قال: "وتفعلون"؟ قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: "إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك أُعذِّبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة"، قال: "بل التوبة والرحمة"[1].

بيد أن كفار قريش لم يدركوا هذه الرحمة الواسعة، ولم يستغلوها أحسن الاستغلال، وإنما أرادوا تعجيزًا أكثر للنبي ﷺ، وليس أدل على أن القوم كانوا متعنتين ساخرين، ومعوِّقين لا جادين من أن عندهم القرآن وهو آية الآيات وبينة البينات، ولذلك لما سألوا ما اقترحوه من هذه الآيات وغيرها ردَّ عليهم ﷻ بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52)﴾ (العنكبوت)[2]. وبهذا فلا حجة لمن يزعم أن النبي ﷺ كان يتملص من مطالب قومه، أو أنه لم يؤيد بالمعجزات.

الخلاصة:

- جاءت الرسالة الإسلامية والفكر البشري عامةً بسبيل أن يبلُغَ رُشْده الأخير، وأن يتحوَّل عن طوره القديم إلى طراز ذهني وشعوري لا تعود تلائمه الخوارق التي كانت تدهش الإنسان القديم وتَلْفِت حِسَّه. فضلًا عن أنّ الدعوة الخالدة جديرٌ بها أن تُثْبت أحَقِّيتها في كل جيل، ولا يكون ذلك إلا بهدى دائم لا ينقطع ضوؤه وعطاؤه؛ فلذلك رجعت الآية المادية عن صدارة أعلام النبوة - مع وجودها - ليكون في هذه الصدارة القرآن الكريم، معجزة محمد ﷺ العظيمة الخالدة.

- إن المعجزة المادية محدودة بقيود كثيرة في الزمان، والمحل، وفيمن رآها، وقد أظهرها الله - تعالى - على أيدي أنبياء بعثهم في أقوام بعينها، ولفترة من الزمان بعينها، فكأن المحدودية والتوقيت صفتان للآيات والرسالات معًا، فلما شاء ﷻ أن يختم رُسُله ورسالاته بعث محمدًا ﷺ بآية تصلح لهذا الختام، وتصلُح كذلك لجميع ما ستشهده البشرية في أطوار النموّ والرّقيّ؛ فعالمية الدعوة إذن وهيمنتها على ما تقدَّمها وراء التخلي النسبي عن الإعجاز الحسي بوصفه داعية من دواعي التصديق.

- لا يُفيد ما تقدَّم أن حياة النبي ﷺ مَضَتْ خِلْوًا من مظاهر التأييد السماوي، فلقد رأى صحابته من أعلام نبوته ودلائلها ما صار من بعد مادَّةَ مصنفات برأسها، وقد ثبتت له ﷺ بطرق هي أثبتُ مما يرسَل

1. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (٢١٦٦)، وعبد بن حميد في مسنده، مسند ابن عباس رضي الله عنهما (٧٠٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٨٨).

2. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٣١٩: ٣٢١ بتصرف.

إرسالًا عن غيره من الأنبياء، فهذه الشاة تحدثه بعد شوائها، والجذع يحن إليه، والماء ينبع بين يديه، والقمر ينشق وتراه فلقتين عيون المسافرين خارج مكة، لكن هذه كلها مظاهر تأييد لم تأت استجابة لطلب معاند يعلّق عليها أن يؤمن أو لا يؤمن.

- لقد أيّد الله نبيه ﷺ بالمعجزات كما أيد غيره من الرسل، بل أُوتي محمدٌ ﷺ من المعجزات ما لم يؤت نبي قبله، فما أعطى الله نبيًّا من الأنبياء معجزة، إلا وأعطى محمدًا ﷺ مثلها أو أعظم منها، فكما كلم الله موسى على الأرض: كلّم محمدًا ﷺ في السماء في رحلة المعراج، وكما هدَّأ عيسى عوامل الطبيعة الهائجة، هدَّأ محمد ﷺ الزلزال الذي ضرب جبل أحد. وعليه فلا مجال للقول بأن النبي ﷺ لم يؤيد بالمعجزات كما أُيِّد غيره من الأنبياء والرسل.

- على الرغم من أن الله ﷻ قادر على أن يُجْرِي على يد نبيه ﷺ ما طلبه هؤلاء المعاندون - إلا أنه ﷻ لم يشأ أن يجيبهم إلى ما سألوا؛ وذلك أنهم لم يسألوا جادين مسترشدين، ولكنهم سألوا متعنتين مستهزئين. ولو أُعْطي هؤلاء ما سألوه من الآيات الحسية ثم لم يؤمنوا لأهلكهم الله ﷻ، كما أهلك قبلهم عادًا وثمود وقوم فرعون، ولكنه ﷻ رفع عن هذه الأمة عذاب الاستئصال بفضل نبيها محمدٍ ﷺ الذي بعثه رحمة للعالمين.

الشبهة الرابعة والعشرون

ادِّعاء أن معجزاته ﷺ ما هي إلا حكايات وأساطير(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أن معجزاته ﷺ ما هي إلا حكايات أسطورية لا أساس لها. ويقولون: إن هذه المعجزات لا يقبلها العقل، كما أنها تخالف السنن الكونية، وقد اعترف بعض علماء التاريخ بأن ما نُقل من معجزاته ﷺ مجرد أساطير. ويتساءلون: كيف يمكن لبشر أن يأتي بهذه الأمور الخارقة للطبيعة؟ هادفين من وراء ذلك إلى إنكار معجزاته ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) الرسول ﷺ ليس بدعًا من الرسل فيما أظْهر الله على يديه من المعجزات، شأنه شأن سائر الأنبياء قبله، فلكل نبي معجزاته الدالة على نبوته، والمبرهنة على أنه مبعوث من عند الله تعالى لإقامة الحجة على قومه.

٢) معجزات النبي ﷺ ليست أساطير، بل هي حقائق ثابتة وموثقة في كتب التاريخ والحديث المعتبرة، كما أنها وإن كانت من خوارق العادة، فإن العقل لا يحيل إمكان وقوعها؛ لأن الرابط بين الأسباب والمسببات هو الله ﷻ وهو القادر على كل شيء.

التفصيل:

أولا. لكل نبي من الأنبياء معجزاته الدالة على نبوته:

تعريف المعجزة:

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة يظهر على يد

(*) حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، فون جرونباوم، مرجع سابق.

مدَّعي النبوة عند تحدي المنكرين، فلا يستطيع البشر قاطبة الإتيان بمثلها، والمُعجِز في الحقيقة هو الله ﷻ، ولكنه ﷻ يُظهر الأمر المعجز على يد نبي، أو رسول لإثبات صدقه في ادعائه النبوة والوحي الإلهي، والله قادر على إبداء المعجزة على يد مُظهِرها؛ لأنه هو الذي يختبره الناس ويوقنون بصدق دعواه [1].

تأييد الأنبياء بالمعجزات سنة من سنن الله:

"جرت سنة الله في عباده المرسَلين أن يؤيدهم بالمعجزات الباهرة، والدلائل الساطعة التي لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثلها في وقتها ولا بعد وقتها، وذلك للدلالة على صدقهم، وإثبات أنهم مبعوثون من قِبل الله لإقامة الحجة على أقوامهم بهذه المعجزات" [2].

وقد كان من حكمة الله ﷻ أن يكون كل المكلَّفين بتبليغ الديانات السماوية للبشر مؤيدين بالمعجزات، حتى يصدقهم أتباعهم، فكل من موسى والمسيح ومحمد ﷺ أتوا بالمعجزات أمام أتباعهم، والمعجزات موهبة خاصة إعجازية قائمة في كل الأديان السماوية، وهذه المعجزات فوق مستوى التحليل العقلي البشري أو التحليل المنطقي، لها أسرارها التي لا يدركها إلا الله، وهي عقائد إيمانية وجدانية، ليس للعقل أو المنطق فيها مجال، وهذه المعجزات وقعت بقوة الله على خرق الناموس الطبيعي للحياة على الأرض، فالمعجزات يجب أن تكون خارقة للناموس [3]، فكان كل نبي يأتي بمعجزة من جنس ما اشتهر به قومه؛ ليكون التحدي أوقع وأشد، ويكون تأثيرها حاسمًا في نفوس من تتنزَّل عليهم.

فلما كان المصريون بارعين في السحر، وكان كهنة المعابد الفرعونية متخصصين فيه، يستخدمونه ليبهروا به أعين الناس، ومن ثم يستعبدونهم للفرعون، وللآلهة المزعومة التي يقوم أولئك الكهنة - أو السحرة - بطقوس العبادة لها، وأخذ الأموال والقرابين من الناس باسمها - أرسل الله موسى بمعجزة من جنس ما اشتُهر به أولئك السحرة؛ ليُبْطل سِحْرَهم، ويَتَبَدَّى الفرق بين ما يَقْدر عليه البشر، وما يَقْدر عليه خالق البشر.

وهذا ما حكاه القرآن في غير موضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢)﴾ (الأعراف).

ولما كان السحرة أدرى الناس بحقيقة السحر وحدوده؛ كانوا أول من تبيَّن الحقيقة، وأن ما يصنعه موسى عليه السلام ليس سِحْرًا، إنما هو شيء فوق طاقة البشر، وإن كان من جنس ما يقومون به هم من السحر، لذلك خرّوا ساجدين، اعترافًا بالآية التي تثبت أن موسى عليه السلام رسول من عند الله.

كذلك أُرسل عيسى عليه السلام في قوم برعوا في الطب، وكانوا يأتون فيه بما يبهر أعين الناس، فناسب أن تكون المعجزة التي أُرْسل بها عيسى عليه السلام خارقة في نفس الميدان الذي برع فيه هؤلاء؛ ليتبيَّنوا هم أولًا، ويتبين

---

١. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٢٣٧.

٢. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم، مرجع سابق، ص١١٩.

٣. عبقرية محمد ﷺ، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، مصر، ص٨٧، ٨٨ بتصرف.

الناس من ورائهم، أن المعجزة شيء آخر غير ما يصنعون هم، شيء يعجزون هم عنه على الرغم من براعتهم، فلا بد أن يكون آتيًا من مصدر غير بشري، أي: من عند الله؛ لذلك كان من معجزاته معهم إبراء الأكمه، والأبرص بغير دواء ولا علاج، وفي التو واللحظة أمام ناظرهم، وهو أمر يخالف صنع البشر، ثم زاد على ذلك في نفس الاتجاه معجزة إحياء الموتى.

فهم قد يعالجون المرضَى بأي وسيلة فيتحقَّق الشفاء على أيديهم، أما إحياء الموتى فلا يقدر عليه إلا الله، أو إنسان مرسَل من عند الله بالمعجزة.

ولقد بُعث الرسول ﷺ في العرب، وهم أهل فصاحة وبيان، يتباهون بفصاحتهم، ويتيهون بها على الأمم حتى إنهم ليسمُّون غيرهم عجمًا - أي: أن لسانهم غير مبين فهم أشبه بالعجماوات التي لا تنطق -؛ لذلك ناسب أن تكون معجزة الرسول ﷺ معجزة بيانية، من نوع ما برعوا فيه، ولكن على مستوى يدركون هم أنفسهم - وهم أهل الصنعة - أنها فوق مستوى البشر، ويقرون بأنها لا بد أن تكون من عند الله[1].

إن معجزاته ﷺ الحسية - بل وشتى معجزاته - ليست في نطاق البشر ومقدورهم؛ وذلك لأن موجدها الله ﷻ وحده الذي أجراها على يديه ﷺ بهدف إثبات صدق نبوته، وليس نتيجة، أو استجابة لأي تحدٍّ قائم. اللهم إلا معجزته الكبرى - القرآن الكريم - التي تحدّى بها الله ﷻ كل فصحاء العرب، ولكنهم عجزوا عجزًا بيِّنًا جعلهم يقفون أمامها مكتوفي الأيدي والألسن، منبهرين من إعجازه وبيانه الذي ليس له مثيل عندهم، وهذه المعجزة هي من أقوى المعجزات الدالة على نبوته ﷺ إن لم تكن أقواها وأظهرها على الإطلاق، وكذلك فإنها المعجزة التي انفرد بها ﷺ عن باقي الأنبياء، ولكن مثيري هذه الشبهة وأمثالهم لم يؤمنوا بهذه المعجزة ظنًّا منهم أنها ليست حسية خارقة للعادة.

عَجْز البشر عن أن يأتوا بمعجزة من عند أنفسهم:

ولما كانت المعجزات الحسية خارجة عن نطاق البشر ومقدورهم انتفى بذلك كونها من عند بشر ولو كان نبيًّا مرسلًا، أو ملكًا مقربًا! وشأن المعجزة في حق النبي كشأن الوحي، فهل يستطيع أي نبي أو رسول أن يأتي بالوحي من تلقاء نفسه؟! كذلك المعجزة، لا يمكن لنبي أو رسول أن يأتي بها من عند نفسه، **وذلك لسببين:**

- أن المعجِز واحد وهو الله ﷻ.
- عجز البشر عن ذلك، يقول الأستاذ أحمد جاد المولى: "والرسول لا يستطيع أن يأتي بالمعجزة من نفسه؛ إذ الأمور التي تقع بها إنما هي مما تفرد به الله جل شأنه، واختُص بها تعالى وحده، فهو المتفرِّد بالعلم ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ (الطلاق). واختُص بالغيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ (البقرة) ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ (الأنعام)، وأن يُردّ علم الساعة إليه تعالى جل شأنه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ (الأعراف: ١٨٧).

وتحدَّى كفارُ قريش محمدًا ﷺ بالمعجزات، فما استطاع إلا أن يعلن بشريته، ويردَّ صفات الكمال إلى الله

---

١. ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٣٦٠، ٣٦١.

تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾ (الإسراء).

ولكن الرسول ﷺ قد يمنحه الله من صفاته ما يريد، ويُجري على يديه من المعجزات ما يشاء، في ملابسات خاصة، وأحوال مقصودة، فأحيانًا يُسمعه ما لا يسمع غيره، كما وقع لموسى ، ومرة يُقدره على ما لم يقدر عليه سواه، كما حدث من إبراء الأكمه لعيسى ، وآونة يطلعه من غيبه على ما لم يطلع عليه غيره، كما أخبر محمدًا ﷺ بكثير من الغيوب"[1].

وعليه فإن ظهور المعجزة على يد النبي من أكبر الأدلة على صدقه، وهي وإن كانت دليلًا قويًا على النبوة، إلا أنها في نفس الوقت ليست مرتبطة بإرادة النبي نفسه، بل بإرادة الله تعالى، فهو معطي المعجزات لأنبيائه إن شاء أعطاها وإن شاء منعها، فقد تكون للنبي معجزة واحدة أو اثنتان أو ثلاث أو أكثر، ويهب الله لأنبيائه المعجزات كما يشاء، وكما يريد[2]. وليس المقصود منها بحال من الأحوال إعجاز العقل، وإنما هي دليل على صدق دعوة الأنبياء وهي توضح ارتباطهم بالله جل جلاله وأنهم مؤيدون به، والآيات القرآنية التي دلت على تأييد الله أنبياءه بالمعجزات المختلفة كثيرة ومعروفة ولا حاجة إلى سردها، أما في السنة المطهرة ففي ذلك يقول رسول الله ﷺ: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة"[3].

ثانيًا. معجزات النبي ﷺ ليست أساطير، بل هي حقائق ثابتة موثّقة:

إن معجزات النبي ﷺ ليست أساطير بل هي حقائق ثابتة، وموثّقة في كتب التاريخ، والحديث المعتبرة، فهو ﷺ أكثر الأنبياء معجزة، وأبهرهم آية، وأظهرهم برهانًا، وهي في كثرتها لا تُحدُّ، ولا تُحصى عددًا، وأبرز تلك المعجزات القرآن الكريم، الذي تحدّى الله به الجن والإنس، وأكد أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، وإن اجتمعوا على ذلك، فعجز فرسان الفصاحة وأئمة الكلام أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، مما يدل على عظمة تلك المعجزة وقوتها.

ومعجزاته ﷺ قسمان:

الأول: ثابت قطعًا أو يقينًا (القرآن الكريم): نُقل إلينا تواترًا فمن أنكر هذا القسم فهو معاند جاحد، فهو كإنكار وجود محمد ﷺ في الدنيا، والإعجاز فيه ودليله الواضح معلوم بداهة، كما شهد به الأعداء الخبراء كالوليد بن المغيرة، إذ قال فيه حين سمع بعضه: "إن له

١. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص١٢٤: ١٢٦.

٢. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٢٩٢ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (٤٦٩٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس (٤٠٢).

حلاوة، وإن عليه لطَلاوة[1]، وإن أسفله لـمُغدِق[2]، وإن أعلاه لمثمر، وما هو من كلام البشر " [3].

أما إعجازه البدهي: فسلاسة مبناه، وجزاله معناه، ونظم آياته، وألفة كلماته، وصباحة فواتحه وخواتمه، في بدء آياته ونهاياتها، في أعلى مراتب البلاغة، وأسمى مناقب الفصاحة.

وأما إعجازه العقلي أو الفكري: ففيما اشتمل عليه من آيات كونية معجزة بما فيها من غِنًى فكري، وخصوبة نظر وتفكر وتأمل.

وذلك يدل قطعًا وبداهة على ثبوت الإعجاز، كما نعلم قطعًا ثبوت أخبار شهيرة في التاريخ، مثل جود حاتم الطائي، وشجاعة عنترة العبسي، وحلم الأحنف بن قيس التميمي؛ لاتفاق الأخبار الواردة عن كل واحد منهم[4].

والآخر: لم يبلغ مبلغ القطع واليقين، وهذا القسم نوعان:

الأول: نوع مشتهر رواه العدد الكثير من الصحابة والتابعين، وشاع عند المحدثين، وأهل السير، والأخبار، أو الأحاديث والرواة المتأخرين، مثل نبع الماء من أصابعه ﷺ، وتكثير الطعام المأكول والمشروب، وحنين الجذع، وكلام الضبِّ والذراع - ذراع الشاة المسمومة - مما رواه الشيخان وغيرهما، فقد رواه الثقات والعدد الكثير عن العدد الكثير من الصحابة.

الآخر: غير **المشتهر ولا الشائع** الذي اختص بنقله الواحد والاثنان ورواه العدد اليسير، ولم يشتهر كالنوع الأول، لكنه ثابت المعنى مؤكَّد الحصول، مثل مجيء الشجر إليه، وتسليم الحجر عليه، وتسبيح الحَصَى في يديه، فهو وإن نُقل إلينا بالآحاد ثابت قطعًا لتواتره المعنوي، وكثرة الرواة من طرق مختلفة صريحة وأسانيد صحيحة، وذلك أيضًا مثل انشقاق القمر على يديه بمكة حين سأله كفار قريش آية، فالقرآن نص صراحة على وقوعه، في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ (القمر). فلا يلتفت بعدئذ إلى تشكيك مشكك وسخافة مبتدع، وجحود كافر، فهذا القسم بنوعيه ملحق بالقطعي اليقيني من معجزاته ﷺ[5].

أما ما يدعيه بعضهم من أن العقل يرفض معجزات النبي ﷺ؛ لأنها من الأمور الخارقة للعادة، فإننا نقول لهم: إن المعجزات حقًّا من الأمور الخارقة للعادة، ولكن العقل لا يحيل إمكان وقوعها؛ ذلك لأن استمرار الظواهر الطبيعية على نسقها المألوف الذي نراه ليس شيئًا ضروريًّا يفرضه العقل فرضًا، وإنما هو ما نسجته العادة وتكوَّن بفعل الأسباب الجعلية. وما يلحق هذه الخوارق من التعجب منها أو الاستنكار لها إنما هو بسبب غرابتها عن المشاهد والمألوف[6].

---

١. الطّلاوة: الحُسْن والرَّونَق.

٢. المُغدِق: المِعْطاء الذي لا يجفُّ عطاؤه.

٣. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر (٣٨٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيمان برسل الله صلوات الله عليهم (١٣٤)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص١٥٨.

٤. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٢٣٨، ٢٣٩ بتصرف يسير.

٥. المرجع السابق، ص٢٣٩، ٢٤٠.

٦. كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٢٥، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢١٤ بتصرف.

المعجزة في ميزان العلم.

إن الميزان المحكم على كل حال هو العقل السليم الحر. أو قل: إنه العلم اليقيني الذي لا يشوبه الوهم، فالنتيجة واحدة.

ونحن عندما نتساءل عن حكم العلم في حق المعجزة وإمكانها، نقصد بالعلم أولًا إطلاقه الخاص الذي يطلقه المختصون بالعلوم الطبيعية المختلفة، ثم نقصد به بعد ذلك العلم بإطلاقه العام، وهو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع بدليل.

فما حكم العلم، بمعناه الأول، في المعجزة ومدى إمكان وقوعها؟

يجيب العلم ـ بمعناه الأول طبعًا ـ أن لا شأن له بالخوارق والبحث في إمكانها من الناحية العملية؛ ذلك أن العلم بإطلاقه الخاص هذا، ليس إلا ممارسة لتجارب خارجية بعيدة في مرحلتها الأولى عن وحي العقل أو التفكير، متعلقة بموضوعات مادية معينة، ثم إنها تفرض نفسها على العقل طبق ما دلت عليه المشاهدة والتجربة، وليس مهمة العقل بعد ذلك إلا أن يتولى تفسيرها وتحليلها كما هي عليه في الواقع، فإن رحت تسأل هذا العلم، أي هذه الممارسة المعينة، عن رأيه في المعجزة قال لك بلسان الحال: ليست المعجزة من موضوعات بحثي، فلا حكم لي عليها بشيء، اللهم إلا إذا وقعت خارقة من ذلك أمامي فإنها تصبح في تلك الحال موضوعًا جاهزًا للنظر والتجربة ثم التفسير والشرح، وبإمكاني أن أحكم عندئذ عليه. أي أن أتناوله بالتحليل والشرح، أما أن أفرض حالة معينة في الذهن تنفصل فيها النار عن قوة الإحراق مثلًا، ثم أحكم عليها أي أحللها وأصفها كما هو شأني وعلمي، فذلك متناقض مع طبيعتي واختصاصي وما حصرت عليه نفسي.

وعندئذ تتحول عنه لتسأل العلم ـ بمعناه الثاني الأعم ـ عن رأيه في المعجزة وحكمه عليها. فيقول لك: تسألني عن إمكان المعجزة التي هي الأمر الخارق للعادة. وقد سألتني قبل الآن عن وجود الله ﷻ فأجبتك بأنه واجب الوجود وهو الذي لا شبهة ولا شك في ذاته؟! أتراني ـ وقد أوضحت لك وجود الله ﷻ بقواطع الأدلة والبراهين الساطعة، وبينت لك أنه هو الخالق للأشياء وأسبابها وانتظاماتها ـ أناقض نفسي وأقول: إن المعجزة ـ التي ليست أكثر من خرق للعادة ـ قسم من المستحيل الذي لا يمكن وقوعه! وكيف تنتظر من العلم أن يناقض ذاته، فيثبت مرة أن الله هو المسبِّب للأسباب والرابط بينها وبين مسبباتها ثم ينفي ذلك أخرى ليقول: إن نظام الأسباب والمسببات واجب لا يمكن أن ينخرم، كيف تنتظر من العلم أن يقول لك: إن نظام الكون من قبيل الواجب؟!

أجل.. هذا هو جواب العلم في كلمات مختصرة واضحة. وهو جواب يستطيع أن يسمعه ويعيه كل عاقل أخلص للعلم على وجه الأرض.

يقول الفيلسوف مالبرانش: "إنما نرى نحن توالي الحادثات ولا نرى الرابطة التي تربط أحد الطرفين بالآخر، فلماذا تبقى هذه الرابطة متخفية عنا؟ لكونها شيئًا إلهيًّا لا يوجد مثله في المخلوق".

واسمع ما يقوله العالم الإنجليزي وليم جونز: "القدرة التي خلقت العالم. لا تعجز عن حذف شيء

منه أو إضافة شيء إليه. ومن السهل أن يقال عنه: إنه غير متصور عند العقل، ولكن الذي يقال عنه إنه غير متصور، ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم".

أي أنه لو لم يكن جزء من هذا العالم موجودًا. وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات والخوارق ولا يتصور وجودها: سيوجد عالم بالشكل الفلاني، فإنه سيبادر قائلًا: إن هذا غير متصوَّر، ويأتي نفيه لذلك أشد من نفي المعجزة التي ينكرها، مع أنها بعد وجودها لا تحرك شيئًا من الاستغراب أو الدهشة في عقله، وينظر إليها دون أن يقول: إن وجود هذا الشيء أمر غير ممكن أو متصور!!

أما إن كنت لا تؤمن بوجود الله ﷻ أصلًا، فلك الحق كله في أن تنكر المعجزات ولا تتصور وقوعها. ولكن ليس لك حينئذ أن تسأل عن ذلك العلم، أو أن تتكلم باسمه أو تروي شيئًا عنه، اعتقد ما شئت وعبر عن اعتقادك كما تشاء. ولكن دون أن تلوث كلمة (العلم) في فمك أو تجمّل به شيئًا من حديثك.

إن العلم لا يلبث أن يقول لك عند أول مقابلة معه: إن هذا الذي تراه في الأشياء مما تسميه نظام السببية ليس أكثر من رابطة مطّردة تراها بعينك.. وهيهات أن يكون ذلك مستلزمًا لوجوب الاستمرار واستحالة الانفكاك عن المسبِّب الأول لا يعجزه شيء عن إبطال هذا التلازم والترابط الصوري الذي تراه، وإن كان طول الإلف واستمرار الاتصال يثير فيك العجب والاستغراب من وقوع ذلك.

بل العلم يقول لك: إنك لو تأملت، لرأيت أن المألوف وغير المألوف من مظاهر الكون معجزة في الحقيقة إذا ما غفلت عن ملاحظة الخالق العظيم.

فالكواكب معجزة، وحركة الأفلاك معجزة، وقانون الجاذبية معجزة، والنباتات معجزة، والعقل البشري معجزة، والمجموعة العصبية في الإنسان معجزة والدورة الدموية فيه معجزة، والإنسان في ذاته معجزة! غير أنك تنسى ـ لطول الإلف واستمرار الرؤية وجه المعجزة في هذا كله، فتحسب جهلًا وغرورًا أن المعجزة ليست إلا تلك التي تفاجئ ما اعتدته وألفته بالمعاكسة والتغيير.

ويقول لك العلم: أي قيمة لعقل عاقل يتخذ مما قد اعتاد أن يراه مقياسًا لإيمانه بالأشياء وكفره بها؟ إنه لجهل عجيب من الإنسان مهما زعم أنه يترقَّى صعدًا في مدارج المدنية والثقافة والفهم[1].

الخلاصة:

- ليس النبي ﷺ بدعًا من الرسل في تأييده بالمعجزات؛ لأن شأنه فيما يُظْهِره الله على يديه من المعجزات والآيات كشأن سائر الأنبياء قبله.
- لقد كانت معجزة كل نبي مناسبة للعصر الذي كان يعيش فيه ذلك النبي، ومن جنس ما اشتهر به، حتى يكون خرقها للعادة الجارية أوضح لإقامة الحجة عليهم، ومن هذه المعجزات مثلًا: معجزة موسى عليه السلام وهي قلب العصا إلى حية، وتغيير لون يده، وأما معجزة عيسى عليه السلام فكانت خلق الطير من الطين بإذن الله، وإبراء ذوي العاهات المزمنة، كالعميان والبرصان، وإحياء الموتى بإذن الله، وكل هذه المعجزات وردت في

١. المرجع السابق، ص٢٢٨: ٢٣١.

التوراة والإنجيل، ولم ينكرها أحد، فلماذا ينكرون معجزات النبي ﷺ؟

- معجزات النبي ﷺ ليست أساطير، بل هي حقائق ثابتة وموثَّقة في كتب التاريخ، والحديث المعتبرة، ولم يقل أحد: إن النبي ﷺ ساحر، ولا كاهن، إلا الكفار من قومه، وبديهي أن يقولوا عليه ساحر، وكاهن؛ لأنه أفحمهم بمعجزته الباقية الخالدة - القرآن الكريم - وعجزوا عجزًا تامًّا على أن يأتوا بسورة قصيرة من مثله.

- لم يُعطَ أحد من الأنبياء والمرسلين معجزة ولا فضيلة إلا وقد أعطى رسول الله ﷺ مثلها وأبلغ منها، بل قد أُعطى المعجزة الخالدة منفردًا بها عن كل الأنبياء قبله، ألا وهي القرآن الكريم.

- إن معجزاته ﷺ الحسية ليست في نطاق البشر ومقدورهم؛ وذلك لأن موجدها الله ﷻ وحده الذي أجراها على يديه ﷺ، وعلى يدي الأنبياء قبله - صلوات الله وسلامه عليهم - بهدف إثبات صدق نبوتهم ورسالتهم.

- المعجزات حقًّا من الأمور الخارقة للعادة، ولكن العقل لا يحيل إمكان وقوعها؛ ذلك لأن استمرار الظواهر الطبيعية على نسقها المألوف الذي نراه ليس شيئًا ضروريًّا يفرضه العقل، لأن المتأمل يجد أن كل مظاهر الكون - المألوف وغير المألوف منها - هي في الحقيقة معجزة، ولكن لجهل الإنسان وغروره يظن أن المعجزة ليست إلا تلك التي تخالف ما اعتاده وألفه من مظاهر.

الشبهة الخامسة والعشرون

التشكيك في ثبوت معجزة الإسراء والمعراج(*)

مضمون الشبهة:

يشكِّك بعض المغالطين في ثبوت معجزة الإسراء والمعراج، والجزم بوقوعها بالكيفية التي يعتقدها المسلمون، ويرون أنها لا تخرج في مجملها - لما فيها من مجاوزة للعقل والواقع المألوف - عن أحد هذين الاحتمالين: إما أنها رؤيا منامية مستدلين على ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠). وإما أنها ضَرْب من الأفكار الفلسفية، مثل وحدة الوجود، وكشف الحُجُب، واتِّحاد الزمان والمكان. وهم في هذا وذاك يرمون صراحة إلى نفي معجزة الإسراء والمعراج، ضمن منظومة نفي معجزاته ﷺ؛ بغية تجريده من تأييد الله له بها، والخروج به عن مُقْتضى كونه نبيًّا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إنَّ مُعْجِزة الإسراء والمعراج معجزة عجيبة مدهشة بالفعل، وليس كل عجيب منكرًا، وليس كل مُدْهِش خياليًّا غيرَ واقعيّ!

٢) إن في الحوار الذي دار بين النبي ﷺ وقومه، ودقة وصفه للمسجد الأقصى؛ ما ينفي انتحاله هذه

(*) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، إدوارد جيبون، ترجمة: محمد سليم سالم، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ت. قصة الحضارة، ول ديورانت، مرجع سابق. القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، كارين أمسترونج، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد العناني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.

المعجزة من جهة، ويثبت وقوعها بالبدن والروح حال اليقظة من جهة أخرى.

٣) إن وحدة الوجود، وكَشْف الحُجُب، واتِّحاد الزمان والمكان جميعها محلُّ نظر، ولا ينبغي تشبيه معجزة الإسراء والمعراج بمثل تلك الأفكار الفلسفية؛ للبون الشاسع بينهما.

التفصيل:

أولا. إن معجزة الإسراء والمعراج معجزة عجيبة مدهشة، لكن ليس كل عجيب منكرًا، وليس كل مدهش غير واقع:

ليس من الصواب في شيء أن يعدّ أحد المشككين كل ما هو خارج عن علمه في دائرة العدم، فنراه يتحدث بما لا يعرف قائلًا: إن الإسراء والمعراج حدوثهما غير ممكن؛ لأن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس، ثم الصعود إلى السماوات العلا، ثم الرجوع من حيث أتى في جزء من الليل أمر مستحيل؟ ذلك لأن الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية محدودة بثلاثمائة كيلو مترًا تقريبًا، فمن جاوزها صار عُرْضة للموت المُحقَّق لعدم وجود الهواء الذي لا بد منه للحياة.

ومثل هذا الكلام لا ينهض على قدمين ـ ولو للحظة واحدة ـ أمام البحث العلمي الصحيح، "فالإسراء والمعراج أمران ممكنان عقلًا أخبر بهما ﷻ في القرآن الكريم المتواتر، كما أخبر بهما الصادق المصدوق ﷺ في الأحاديث الصحيحة المشهورة، فوجب التصديق بوقوعهما، ومن ادَّعى استحالتهما فعليه البيان وهيهات ذلك، وكونهما مستبعدين عادة لا ينْهض دليلًا ولا شِبْه دليل على الاستحالة، وهل المعجزات إلا أمور خارقة للعادة كما قال العلماء؟ ولو أن كل أمر لا يجري على سنن العادة كان مظنَّة للإنكار لما ثبتت معجزة نبي من الأنبياء.

ثم ما قول المنكرين لمثل هاتين المعجزتين فيما صنعه البشر من طائرات نفَّاثة، وصواريخ جبارة تقطع آلاف الأميال في زمن قليل؟ فإذا كانت قدرة البشر استطاعت ذلك، أفيَسْتبعدون على مُبْدع البشر وخالق القوى والقدر أن يُسخِّر لنبيه "براقًا" يقطع هذه المسافة في زمن أقل من القليل؟! لسنا نقصد بهذا أن الإسراء والمعراج من جنس ما يقدر عليه الناس ـ فحاشا لله ـ وإنما أرَدْنا تقريبهما لعقول من ينكرونهما بما هو مشاهد ملموس، فمهما تقدمت العلوم ومهما تقدم غزو الفضاء فلا يزال الإسراء والمعراج آيتين ظاهرتين للنبي ﷺ.

وأما شبهة أن المعراج لم يُذكر في القرآن كما ذُكر الإسراء، فيدفعها ـ أن المعراج وإن لم يذكر في القرآن صراحة فقد أُشير إليه فيه، ولو سلَّمنا بعدم ثبوته بالقرآن فلا ينبغي أن يكون ذلك سببًا للإنكار، فما الأحاديث النبوية إلا مبيِّنة للقرآن، وشارحة له، ومتمِّمة له، وهي الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام، ومعرفة الحلال والحرام، والحق من الباطل، والهدى من الضلال، وإثبات الآيات والمعجزات، ولو أننا قصرنا الدين ومسائله على القرآن الكريم فحسب؛ لفرَّطْنَا في كثير من الأحكام والآداب، والآيات، والمعجزات الدالة على نبوة محمد ﷺ.

وأما القول بأن المعراج يترتب عليه الخرق والالتئام وهو مستحيل ـ فمزعم قديم أكل الدهر عليه وشرب، وأبطلته النظريات العلمية الحديثة، فقد انتهى بحث

العلماء إلى أن الكون في أصله كان قطعة واحدة، ثم تناثرت أجزاؤه، وانفصل بعضها عن بعض حتى غدا من ذلك العالم كله: علويه وسفليه" [1].

إن العلماء الكونيين قد خَطَوا خطوات واسعة في غزو الفضاء، والتنقُّل بين الأَجْواء، والدوران حول الأرض والقمر، ومعرفة كمٍّ هائل من المعلومات عن المجموعة الشَّمسية، مما قد يُعدُّ من ضَرْب المعجزات والخيال في القرون الماضية، وما زال التقدم العلمي في هذا المجال يزداد يومًا بعد آخر، مما يدْحض زعم هؤلاء أن الإسراء والمعراج غير ممكن عقلًا.

وأما قولهم بأن الهواء ينْعدم على بُعْد خاص فهو لا يُسوِّغ الإنكار، فنحن نجد الغوَّاصين يمكثون الساعات الطوال تحت الماء مكتفين بما معهم من هواء، وأيضًا نجد روَّاد الفضاء قد تغلَّبوا على هذه المشكلة - إن صحَّ أن تُسمِّي هذه مشكلة - بل وعلى ما هو أشكل منها، ويختزنون معهم من الهواء ما يحفظ عليهم حياتهم أيامًا لا ساعات.

فإذا ثبت هذا في حق المخلوق وكان في مقدرته ذاك - وقليلة ما هي مقارنة بمقدرة الله - أفيبعد على الخالق ما أدركه المخلوق إن أراد حدوثه لأحد من الأنبياء على طريق الإعجاز، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون؟! إنه الله ﷻ خلق السماوات، والأرضين معلقات في الفضاء بلا عمد، وأمسكها أن تزولا وتَسْقُطا على عظم أجرامها، ودقة مساراتها، وأبدعها أيما إبداع، وربط الأسباب بالمسبَّبات، وأَوْجد للكائنات نواميس خاصة بها، وعلم ما يحتاج إليه كل كائن حي من إنسان، أو حيوان، أو نبات، وقدَّر لكلٍّ ما يحفظ له حياته - وهو قادر على أن يسري بنبيه ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، ثم يعرج به إلى سدرة المنتهى في جزء من الليل، وأن يحفظ عليه حياته في عروجه من الأرض إلى السماوات السبع وما فوقهن [2].

ويحسن بنا في هذا الصدد أن نذكر أنه في بعض المجامع في بلدة بالهند قال أحد المنصِّرين مشوشًا على بعض المسلمين: كيف تعتقدون في الإسراء والمعراج، وهو أمر مستبعد؟ فأجابه مجوسي من مجوس الهند قائلًا: إن الإسراء والمعراج ليسا بأشد استبعادًا من كون العذراء تحمل من غير زوج، فبهت المنصِّر!

والأمر كذلك ليس مستحيلًا عقلًا إذ إن خالق العالم قادر على أن يسري بمحمد ﷺ بهذه السرعة، وغاية ما في الأمر أن المعجزة تمَّت خلاف العادة، والمعجزات كلها تكون كذلك [3]. ولم يكن النبي محمد ﷺ بدعًا من أمره، بل شأنه في تأييد الله له بالمعجزات شأن سائر الأنبياء عليهم السلام ®.

ثانيًا. في الحوار الذي دار بين النبي ﷺ وقومه، ودقة وصفه المسجد الأقصى، ما يَنْفي انتْحالها من جهة، ويثبت أنها وقعت بالبدن والروح حال اليقظة من جهة أخرى:

إن معجزة الإسراء والمعراج ثابتة بالكتاب والسنة،

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٤١٩، ٤٢٠.

٢. المرجع السابق، ص٤٢١.

٣. رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص١٨٩، ١٩٠ بتصرف يسير.

® في "رحلة الإسراء والمعراج خارج حدود الزمن" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والعشرين، من هذا الجزء.

والأدلة العقلية التي تلتقي مع نصوص القرآن الكريم، والسنة المطهرة، تقوم على تأكيد حدوث هذه المعجزة يقظة، **ومن أظهر هذه الأدلة:**

أن هذه الرحلة لو كانت منامًا لما كان فيها آية ولا معجزة، ولما استبعدها الكفار ولا كذَّبوه فيها، ولما ارْتدَّ بها ضعفاء الإيمان ممن أسلموا وافتتنوا بها؛ إذ مثل هذا من المنامات لا يُنْكَر، بل لم يكن ذلك منهم إلا بعد علمهم أن خبره إنما كان عن جسمه لا روحه، وحال يقظته لا حال منامه[1].

فقد يقول قائل: إني رأيت أني ذهبت إلى أمريكا، ثم الهند، والصين، ثم عُدْت، وهو نائم على فراشه، وقد يرى أنه مات وانتقل إلى الدار الآخرة، ودخل الجنة أو النار بعد العرض على الملك الجبَّار، ولا يستطيع أحد أن يُكذبه، فلو كان الإسراء والمعراج كذلك بالروح فقط لما كذبه المشركون؟

"وما أدري كيف يَقْبل الذَّوق السليم أن يكون الإسراء بالروح، بعد قول الله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ (الإسراء).

فها أنت ذا ترى الآية الكريمة قد افْتُتِحت "بسبحان" وهو استفتاح مُشْعِر باستعظام ما كان من الأمر، والتعجب منه لجلاله، وذلك اللفظ لا يصحُّ موقعه، ولا يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم، إلا إذا كان الأمر غير معهود، ولا مقدور لأحد من البشر.

ولو كان الإسراء بالروح فقط لم يكن ثمة ما يقتضي هذا الاستعظام، وذلك التعجب؛ إذ لا خطورة في إراءة النبي ﷺ آيات ربه في نومه، فإن هذا أمر يقع لكل أحد، وإنما يظهر وجه الاستعظام والتعجب إذا قلنا: إن ذلك الإسراء كان بالجسد والروح، كما هو ظاهر لكل ذي فطرة طاهرة وعقل سليم.

ثم تراه يقول: ﴿أَسْرَىٰ﴾ وهو لا يُقال في النوم، كما قال القاضي عياض؛ لأن ما يقع في النوم إنما هو تخييل وضَرْبُ مَثَلٍ لا غير، ولا يَحْسُن أن يُعبَّر عن ذلك بأنه أسرى به، وإنما ذلك إذا أسرى به ليلًا إسراءً حسيًّا على ما هو معهود ومعروف.

ثم يقول: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ وهو نص قاطع في الموضوع؛ لأن العبد لا يُطلق فيما تعرفه العرب إلا على الشخص المكوَّن من الروح والجسد معًا، ولم يعهد في لغة العرب إطلاقه على الروح فقط، فهم لا يعرفون من العبد إلا الشخص المحسوس المنظور، كما في قوله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ (العلق)، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ (الجن: ١٩) إلى غير ذلك، ثم يقول: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ (الإسراء: ١)، ويقول تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ (النجم).

ولا شكَّ عند من له ذوق سليم، أن هذه الآيات الكريمة تدل على أن النبي ﷺ أُسْري به إلى بيت المقدس، وأنه عُرِج به إلى السماوات العلا بجسمه

---

١. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٩٠ بتصرف.

وروحه وأنه رأى جبريل عند سِدْرة المنتهى، وأنـه رأى من آيات ربه الكبرى.

ونحن نستحلفك بعلمـك وذوقـك وإنـصافك، أن تنظر معنا إلى قولـه: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ (النجم) ثم قل بعد ذلك ماذا ترى. أفيسهل عليك أن تُـسلِّم أن المراء والجدال كانا في رؤيا منامية؟ وهل يكون في رؤيـا الروح وحدها في النوم جحود ومجادلـة؟ وهـل لـذلك وقْع عند القائل والسامع، حتى تذكر فيه تلك الآيـات، وتُحصِّل به تلك المجادلات، وينوَّه بشأنه في القرآن هـذا التنويه العظـيم؟ وهـل عهـدوا مثـل ذلـك في الـرؤى المنامية؟ وهل ينكرون على أنفسهم ذلك، حتى ينكـروه عليه ﷺ؟

لا شـك أن منـاكرتهم ومجـادلتهم، مـا كانـت إلا لعلمهم أنه يقول إن ذلك كان يقظة لا نومًا، فهذا محـلُّ الاستبعاد والاستنكار؛ لأنه غير معهود لـديهم، ولا في متناول قدرتهم"[1].

وأبعد من القول بأن الإسراء والمعراج كانا بروحـه، قول من ذهب إلى أنهما كانا في المنام، مـستدلين لـذلك بقولـه ﷻ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (الإسراء)، وقالوا: إن الآيـة تـشير إلى الإسراء والمعـراج، والرؤيا إنَّما تُطلق على المنامية لا البصرية.

وليس أدل على ردِّ استدلالهم بهذه الآية من قول ابن عباس في تفسيرها: "هي رؤيا عين أريهـا رسـول الله ﷺ ليلة أُسْري به، والشجرة المعلونة: شـجرة الزقـوم"[2].

ومراد ابن عباس - برؤيا العين - جميع ما عاينـه ﷺ ليلـة أُسري به من العجائب السَّماوية والأرضية.

وابن عباس هو حَبْر الأمة، وتُرْجُمان القـرآن، ومـن أعلم الناس بالعربية، وكان إذا سُئل عن لفظ من القرآن ذكر له شاهدًا من كلام العرب، فكلامه حجة في هـذا، والرؤيا كما تُطلق على المنامية تطلق على البصرية أيـضًا. ومـن شـواهد ذلـك مـن كـلام العـرب الـذين يحتج بكلامهم قول الراعي يصف صائدًا:

وكَـبَّرَ للرُّؤيَـا وهَـشَّ فُـؤادُه

وبَـشَّرَ قَلبًـا كـان جمًّـا[3] بلابِلُـهْ[4]

على أن بعض المفسرين يـري أن الآيـة نزلـت عـام الحديبية بسبب رؤيا رسـول الله ﷺ أنـه دخـل المسجد الحرام، وعلى هذا فلا تكون الآية دليلًا لهم قط، ولكـن الصحيح هو الأول[5].

على أنه جاء في القصة ما هو قاطع في الموضوع، فإن النبي ﷺ لـما أخـبرهم بـذلك هـاج هـائجهم، وقامـت قيامتهم، فمنهم الواضع يده على رأسه تعجبًـا، ومـنهم المصفِّق، ومنهم القائل له: لقد كـان أمـرك أَمَـمًا[6] قبـل هذا. حتى ورد أنه ارتد بعـض مـن كـان قـد دخـل في الإسلام. فهل ترى أن ذلك كله كـان مـن أجـل رؤيـا

---

١. محمـد المثـل الكامـل، أحمـد جـاد المـولى، مرجـع سـابق، ص١٣٦، ١٣٧.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الـصحابة، بـاب المعراج (٣٦٧٥).

٣. الجَمُّ: الكثير.

٤. البلابل: أي الهمومُ والوساوس.

٥. الـسيرة النبويـة في ضـوء القـرآن والـسنة، د. محمـد محمـد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٤١١، ٤١٢.

٦. الأمم: القريب.

منامية؟

بل في القصة ما هو أكثر من هذا، وهو أنهم سألوا النبي ﷺ عن عيرهم التي كانت فيها تجارتهم، فأجابهم ﷺ بأنه مرَّ بها وقد نَدَّ[1] منها بَعِير فانكسر، وأنه مر بِعِير أخرى قد ضلوا ناقة لهم، وكان معهم قدح من الماء، فشربه ﷺ وقد سألوهم عندما قدموا مكة، فصدَّقوا ذلك كله، وفي القصة أكثر من هذا.

فهل ترى أن الروح شربت الماء من القدح؟ وهل يمكننا أن نقبل أنهم يسألونه عن عيرهم، وعن بيت المقدس وأبوابه، وكل ما يتعلَّق به، إذا كانت الرؤيا منامية؟ وأي علاقة بين رؤيا المنام وبين عيرهم التي تجيء من الشام[2].

على أن ثمَّة فرقًا بين القول بإسرائه روحًا والقول بإسرائه منامًا، هذا الفرق يوضِّحه د. محمد أبو شهبة في قوله: "ومما ينبغي أن يُعْلَم أن بعض الكاتبين - في معجزتي الإسراء والمعراج - يخلط بين قول من يقول: كانا منامًا، وقول من يقول: كانا بالروح فقط، وبينهما فرق، فمن قال: كانا بالروح أراد أن الروح بما لها من قدرة على التصرُّف والانتقال هي التي انتقلت وجالت في هذه المعاني المقدسة في الأرض والسماء، وأما من قال في المنام، إنما أراد حدوث صور وانكشافات للروح فيما وراء الحسِّ من عالم الغيب من غير انتقال، ومفارقة للبدن"[3].

وفي كَوْن الإسراء والمعراج بالروح والجسد يقول الإمام النووي: "والحق الذي عليه أكثر الناس ومُعْظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء، والمحدِّثين والمتكلمين أنه أُسْري بجسده ﷺ والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها، إلا بدليل، ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل"، ويقول ابن حجر في شرحه على صحيح البخاري: إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العُدول عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل"[4].

وليس في الأمر غرابة، لا من حيث قطْع المسافة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ولا من حيث صعود النبي ﷺ إلى السماء، فأما من حيث قطع المسافة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في تلك المدة الوجيزة فقد يتوفر للجن، وهو الذي حدث مع سليمان عليه السلام وحكاه القرآن في قوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠) وحَمْل العرش من القصر إلى الشام أبلغ من إسراء النبي ﷺ، فهذا أبلغ من قطع المسافة بين المسجدين في جزء من ليلة.

ومحمد ﷺ أفضل من الذي عنده علم من الكتاب، ومن سليمان عليه السلام، فكان الذي خصَّه الله به أفضل من ذلك، وهو أنه أُسري به، ثم عرج في ليلة واحدة، ليريه

---

١. ندَّ: نَفَر وبَعُد.

٢. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص١٣٨، ١٣٩.

٣. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٤١٣.

٤. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص١٢١.

من آياته الكبرى.

فهذا ما لم يحصل مثله لا لسليمان ولا لغيره، والجن إن قدروا على حمل بعض الناس في الهواء فلن يقدروا على إصعاده إلى السماء، وإراءته آيات ربه الكبرى، فكان ما آتاه الله لمحمد خارجًا عن قدرة الإنس والجن[1].

ومما سبق نخلص إلى أن مُعْجزة الإسراء والمعراج ثابتة بالكتاب والسنة، وكان أهل مكة جميعًا شهودًا على هذه المعجزة، فعندما حدَّثهم النبي ﷺ عن هذه المعجزة، شكَّكوا فيها واستنكروها وكذَّبوه، ولكنه ﷺ استطاع أن يُثبت لهم صحة ما أخبرهم به بأدلة واضحة لا يرقى إليها الشك؛ من ذلك:

- **إخباره ﷺ عن القافلة التي يتقدَّمها جمل أورق[2]:**

فحدثهم عن أشياء حدثت في الطريق، وتبيَّنوا بعد ذلك صدق ما قاله؛ فقد سألوه عن قافلة لهم قادمة من الشام، سألوه عن مكانها، ومتى تقدم عليهم، فأخبرهم عنها وعن وقت وصولها، وقدَّم لهم دليلًا، حيث قال لهم: إن هذه القافلة يتقدمها جمل أورق، وبعد أن تحقَّق أمام أعينهم كل ما أخبرهم به خرست ألسنتهم وثبتت شهادتهم على هذا الحدث العظيم الذي كان اختبارًا ليقين المسلمين وتمحيصًا لإيمانهم.

- **وصفه ﷺ الدقيق للمسجد الأقصى:**

وكان النبي ﷺ قد صلَّى بالأنبياء في بيت المقدس كما ثبت في الروايات الصحيحة، وعندما عاد من رحلته طلب منه أهل مكة أن يصف لهم المسجد الأقصى ليتأكدوا من صِدْقه، فوصفه لهم بتفاصيله كاملة، ولم يكن النبي ﷺ قد رآه قبل ذلك، ولكن أهل مكة كانوا قد رأوه مرات عديدة أثناء رحلاتهم إلى بلاد الشام، فكان وصفه الدقيق للمسجد الأقصى دليلًا آخر على صدقه ﷺ، لم يَعْترض أحد من أهل مكة على ما قدَّمه لهم رسول الله ﷺ من وصف دقيق ومُفصَّل لهذا المكان المقدس، قال ﷺ: "لما كذبتني قريش، قمت في الحِجْر، فجلَّى الله لي بيت المقدس، فطفِقْت أُخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه"[3].

ثالثًا. إن وحْدة الوجود، وكشف الحُجُب، واتِّحاد الزمان والمكان جميعها محل نظر، ولا يصحُّ تشبيه معجزة الإسراء والمعراج بمثل تلك الأفكار الفلسفية:

إن النصوص الصريحة القائمة على إثبات معجزة الإسراء والمعراج تجعل من نافلة القول أن نُثْبت بطلان تلك الأفكار الفلسفية، أما وقد شُبِّهت هذه المعجزة النبوية بتلك الأفكار الفلسفية؛ فقد لَزِم الأمر أن نُقِرَّ أن الإسراء والمعراج ليستا فكرة مثلًا كوحدة الوجود من الصحة في شيء، كي نبني عليها معتقداتنا الدينية ونثبت على أساسها وننفي، ولو كان الأمر كذلك لكان عبدة الأصنام على حق، وعبدة البقر على حق، ومن عبد أي معبود بمقتضى تلك الفكرة على حق.

وغني عن الذكر ـ أيضًا ـ أن نقول إن فكرة وحدة

---

١. النبوات، تقي الدين أحمد بن تيمية، تحقيق: الشحات الطحان، مكتبة فياض، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٦٦.

٢. الجَمَل الأورَق: ما في لونه بياض إلى سواد، أو الرمادي.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب حديث الإسراء (٣٦٧٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (٤٤٦).

الوجود فكرة خاطئة وافدة إلى الإسلام فيها وفد إليه من آراء فاسدة لا يشهد لها عقل ولا نقل، وهي من مخلَّفات الفلسفات القديمة، وفيها ما فيها من أخطاء وأباطيل، وقد انتصر لها وتشيَّع بعض الغلاة الذين ينتسبون إلى الإسلام، وكتبوا فيها فكانت عاقبتهم الإلحاد في الله وصفاته.

وقد أبان بطلانَها كثيرٌ من علماء الأمة الراسخين في العلم، المتثبتين في العقيدة، والقول بها يؤدي إلى القول بالطبيعة، وقِدَم العالم، وإنكار الألوهية وهدم الشرائع السماوية التي قامت على أساس التَّفْرقة بين الخالق والمخلوق، وبين وجود الرب، ووجود العبد، وتكليف الخالق للخلق بما يحقِّق لهم السعادة، ومقتضى هذا المذهب أن الوجود واحد، فليس هناك خالق ولا مخلوق، ولا عابد ومعبود، ولا قديم وحادث، وعابدو الأصنام والكواكب والحيوانات حين عبدوها إنما عبدوا الحق؛ لأن وجودها الحق، إلى آخر خرافاتهم التي ضلوا بسببها وأضلوا غيرهم، والتي أضرَّت بالمسلمين، وجعلتهم شيعًا وأحزابًا، ولقد بلغ من بعضهم أنه قال: إن النصارى ضلوا؛ لأنهم اقتصروا على عبادة ثلاثة، ولو أنهم عبدوا الوجود كله لكانوا راشدين، وقال بعض معتنقي الفكرة:

العَبْدُ حَقّ، والرَّبُّ حق

يا لَيتَ شِعْرِي مَن المُكلَّفُ؟

إنْ قُلتَ: عَبْدٌ فذاك ربٌّ

أَو قُلْتَ: رَبٌّ أَنَّى يُكَلَّفُ؟

قال الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية في بعض كتبه بعد أن ذكر الفناء المحمود، والفناء المذموم: "ولهذا لما سلك ابن عربي وابن سبعين وغيرهما هذه الطرق الفاسدة أورثهم ذلك الفناء عن وجود السوى فجعلوا الموجود واحدًا، ووجود كل مخلوق هو عين وجود الحق، وحقيقة الفناء عندهم ألَّا يرى إلا الحق، وهو الرَّائي والمَرئي، والعابد والمعبود، والذَّاكر والمذكور، والنَّاكح والمنكوح، والآمر الخالق هو المأمور المخلوق وهو المتَّصف بكل ما يوصف به الوجود من مدح وذم، وعُبّاد الأصنام ما عبدوا غيره، وما ثمَّ موجود مُغاير له ألبتة عندهم، وهذا منتهى سلوك هؤلاء الملحدين!!

وأكثر هؤلاء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود يقولون: إن فرعون أكمل من موسى، وإن فرعون صادق في قوله: "أنا ربكم الأعلى"؛ لأن الوجود: فاضل ومفضول، والفاضل يستحقُّ أن يكون رب المفضول، ومنهم من يقول: إنه مات مؤمنًا، وإن إغراقه كان ليغتسل غُسْل الإسلام".

فالحق أن فكرة وحدة الوجود فكرة زائفة، تُصادِم نصوص الدين القطعية، ولا يدل عليها شيء من قرآن أو سنة، وأن العقيدة الإسلامية السمحة براء من مذهب "وحدة الوجود".

تفسير الإسراء والمعراج بهذا يلزم إنكار النصوص أو تحريفها:

ثم إن تفسير الإسراء والمعراج بهذه الفكرة أو غيرها، وتصويرهما هذا التصوير الذي ارتضاه المدَّعي يقتضي إنكارها على حسب ما جاء به القرآن القطعي، والسنة الصحيحة المشهورة، فليس ثمة إسراء حقيقة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بذات النبي ﷺ وليس هناك عروج بالنبي ﷺ من بيت المقدس إلى

السماوات السبع وما فوقهن، ولا صلاة بالأنبياء، ولا لقاء ولا تسليم، ولا تكليم من الله لنبيه، وإنما كل ذلك تمثيل وتقريب على حد زعمهم.

وما الدَّاعي إلى ذلك ما دام الكون كله قد اجتمع في روح النبي ﷺ، كما قال صاحب الرأي: فالمسجد الحرام في روحه، والأقصى في روحه، والسماوات وما فيهن في روحه، ووجودها في وجوده!!

إغراب وتشويش:

ثم ما الداعي إلى كل هذا التكلُّف والإغراب المُدَّعى في فهم نصوص صريحة جاءت بلسان عربي مبين؟! وما الذي حدا بهؤلاء الأدعياء إلى أن "يشطحوا" هذه "الشطحات" التي لا داعي إليها؟!

إن الإسراء والمعراج كما جاء بهما القرآن والأحاديث الصحاح أقرب منالًا، وأشد اسْتِسَاغة لعقول الناس مما ذهب إليه المدَّعون، ولو جلست زمانًا لتفهِّم رجلًا أميًّا أو متعلمًا، بالإسراء والمعراج على ما رأى هؤلاء ما أنت بمستطيع إفهامه هذه الألغاز والطلاسم التي حاول المدّعون بها إحداث رأي جديد.

وهل تصوير الإسراء والمعراج بهذا التصوير إلا إشكال على عقول الكثرة من الناس، ومخاطبة لهم بما لا تبلغه عقولهم ومداركهم، وقد أُمرنا أن نحدث الناس بما يعقلون وأن ندع ما ينكرون، وفي الحكم الذهبية عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم"[1].

والحق أن الإغراب على القراء بمثل هذه الأفكار المسمومة، والآراء الشاذة الغريبة تشكيك لهم في عقائدهم الصحيحة، وتسميم لعقولهم، وانحراف بهم عن فطرتهم السليمة، والحق أبلج لا يحتاج إلى تكلُّف، وتفلسف من غير داع وقد حكى القرآن الكريم عن النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص: ٨٦)[2].

الخلاصة:

- إن الإسراء والمعراج من الأمور العجيبة والمدهشة حقًّا، ولكن العجب والدهشة شيء وإنكارها شيء آخر، وقد تكون محيرة للعقل ولكنها ليست مستحيلة في منطق الوحي، وإلا فكيف نفسر عقلًا إحياء عيسى للموتى، وانبجاس الحجر ماء لموسى، وكيف تفسر عقلًا ما فعلته عصا موسى مع فرعون، ومعلوم أن الرسول جاء بما يحير العقول وليس بما تتخيله العقول، فالإسراء والمعراج من الأمور التي لا يرفضها العقل والبحث العلمي، فقد استطاع الإنسان في العصر الحديث أن يغزو الفضاء بعلمه وقدرته المحدودتين، فكيف يستبعد عن الخالق أن يسري بنبيه ﷺ وأن يعرج به إلى السماء وهو القادر على كل شيء وهو الذي يقول للشيء كن فيكون.

- ليست معجزة الإسراء والمعراج رؤيا منامية كما يدعي المشككون؛ لأن رؤيا المنام من الأمور المعتادة التي لا تُستنكر، ولو كانت كذلك لما وُجد كل هذا الاعتراض من كفار قريش على النبي ﷺ ولما ارتدَّ بعض من دخل في الإسلام، ترى هل كل هذا يحدث بسبب

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١٤).

٢. السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٤١٤: ٤١٧.

رؤيا منامية؟!

- إن القول بأن معجزة الإسراء والمعراج ضرب من الأفكار الفلسفية مثل وحدة الوجود، قول باطل وتزييف للحق؛ لأن هذه الأفكار الفلسفية لا أصل لها في الإسلام، ولا دليل عليها من عقل أو نقل، وأكثر من يقول بهذه الأفكار هم الملحدون الذين ينكرون الألوهية، فلا يمكن تشبيه معجزة من أعظم المعجزات التي حدثت للنبي ﷺ بمثل هذه الأفكار.
- إن معجزة الإسراء والمعراج حقيقة ثابتة بالكتاب والسنة، وقد أثبت النبي ﷺ صِدْق حديثه عن هذه المعجزة بأدلَّة واضحة أَخْرست ألسنة أهل مكة، وأفحمتهم، ومن ذلك: وصفه ﷺ المسجد الأقصى وصْفًا دقيقًا، فكان هذا الوصف دليلًا آخر على صدقه، يجزم بكونها حال اليقظة لا المنام، وبالبدن والروح لا بالروح فحسب.

الشبهة السادسة والعشرون

الطعن في معجزة الإسراء والمعراج بالتشكيك في صحة ما وقع فيها من أحداث(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في معجزة الإسراء والمعراج ويستدلون على ذلك بما يزعمُونه من مخالفة بعض ما ورد فيها من أحداث لُمقتضى المنطق أحيانًا، أو لجملة ما عُهد من أخلاق النبي ﷺ، أو لطبيعة ما اختُصَّت به الجنة، وما اتَّسم به الغيب أحيانًا أخرى، ويمثِّلون لذلك بما رُوي من: ذهابه إلى بيت المقدس وصعوده إلى السماء السابعة ورجوعه والفراش ما زال دافئًا، وبكاء موسى عليه السلام كما يظنون حقدًا وحسدًا لما حظي به النبي وأمته على الرغم من أنه في الجنة، ولا شيء من الحقد والحسد الدنيوي في الجنة، ثم إخباره ﷺ بأمور غيبيّة، والغيب لله ولا يطَّلع عليه سواه، وأخيرًا: تفاخره ﷺ بكثرة عدد داخلي الجنة من أمته، وهذا يتنافى مع تواضع الأنبياء. ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في أحداث ثابتات في حياته ﷺ معلومة من معجزاته بالضرورة، بغية تجريده ﷺ ممَّا أيَّده الله به من معجزات، وما كرَّمه به من خصوصيات، تُآزر رسالته، وتعضِّد دعوته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن رحلة الإسراء والمعراج معجزة، والمعجزات تخرج عن نطاق الزمن، كما تخرج عن نطاق التفسير العقلي، وهذا إنما يدل على قدرة الله عز وجل خالق كل شيء وبالغ إعجازه وتأييده لنبيّه ﷺ.

٢) لم يكن بكاء سيدنا موسى عليه السلام حقدًا أو حسدًا لمحمد ﷺ وأمته، لكنه كان أسفًا على قومه الذين خذلوه بِقلة عدد من اتبعه منهم، بدليل أنه عليه السلام راجع النبي ﷺ لتخفيف الصلاة على أمته.

٣) اختص الله عز وجل نفسه بعلم الغيب، إلا أنه أظهر بعضه لبعض رُسله، دليلًا على صدق نبوتهم، وكان

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ١٤١٨هـ. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

معراجه ﷺ من بيت المقدس ووصفه الدقيق للمسجد الأقصى دليلًا على صدقه فيما أخبر به في رحلته.

٤) لم يكن تفاخُر النبي ﷺ كِبْرًا أو خُيلاء على الأنبياء، وإنما كان فرحًا وسرورًا بأكْثرية تابعيه يوم القيامة دون غيره من الأنبياء، فمن الثابت أنه ﷺ كان أكثر الناس تواضعًا على الرغم من علوّ مكانته عند ربه.

التفصيل:

أولا. كانت رحلة الإسراء والمعراج معجزة، والمعجزات تخرج عن نطاق الزمن:

إنَّ ما يدعونه من كَثْرة الأحداث، وقلة الزمن الذي حدثت فيه معجزة الإسراء والمعراج، دليل على سوء تقديرهم للأمور، فكيف تكون معجزة إن لم تكن خارقة للعادة؟! فالإسراء والمعراج أَمْران مُمْكِنان بالنسبة لطلاقة قدرة الله ﷻ وأخبر بهما الصادق المصدوق ﷺ في القرآن الكريم المتواتر، وفي الأحاديث الصحيحة المشهورة، فوجب التصديق بوقوعهما، ومن ادّعى استحالتهما فعليه بالدليل وهيهات ذلك.

ثم إن كونهما مستبعدين عادة لا ينهض دليلًا ولا شبه دليل على الاستحالة، وهل المعجزات إلا أمور خارقة للعادة ومعجزة لمنطق العقل، كما قال العلماء؟! ولو أن كل أمر لا يَجْري على سُنن العادة لحقه الإنكار لما ثبتت معجزة نبي من الأنبياء، ثم ما قول المنكرين لمثل هاتين المعجزتين فيما صنعه البشر من طائرات نفَّاثة، وصواريخ جبارة تقطع آلاف الأميال في زمن قليل، فإذا كانت قُدرة البشر استطاعت ذلك أفيستبعدون على مبدع البشر وخالق القوى والقدر أن يُسَخِّر لنبيه "بُراقًا" يقطع هذه المسافة، في زمن أقل من القليل؟!

ولسنا نقصد بهذا أن الإسراء والمعراج من جنس ما يقدر عليه الناس، فحاشا لله أن نُريد ذلك، وإنما أردنا تقريبهما لعقول من ينكرونهما، أو يشككون فيهما، بما هو مشاهد ملموس، فمهما تقدمت العلوم ومهما تقدم غزو الفضاء فلا يزال الإسراء والمعراج آيتين ظاهرتين للنبي ﷺ[1].

والحقيقة أن هاتين الحادثتين تبعثان في العقل الذهول، فهل من تفسير منطقي يُريح العقل من ذهوله؟! والجواب: اللهم نعم! وذلك لأن الله أَعْطى مثالين واضحين في القرآن أشار فيهما إلى حوادث تتطابق في تفسيرها مع حادثتي الإسراء والمعراج، وهذان المثالان هما قصة العُزير، وقصة أصحاب الكهف!!

فالعُزير نبي من أنبياء بني إسرائيل، أراد الله تعالى أن يقدِّم له دليلًا على البعث بعد الموت؛ لأنه تساءل عن كيفية إحياء الخلق بعد موتهم، وكان العُزير قد قفل عائدًا إلى بيته راكبًا حماره، ويحمل سلَّة فواكه كان قد قطفها من بستانه مع كوز ماء، وعندما شعر بالتعب في المسير، وأراد الراحة نزل عن حماره وربطه بجانبه، واستلقى على الأرض واضعًا سلة الفواكه، وكوز الماء بجانبه، فأماته الله مائة عام، ثم بعثه، فسأله ملك - أرسله الله إليه يسأله -: كم لَبِثْتَ؟ فظنَّ أنه لَبِث يومًا واحدًا على الأكثر، فقال له الملك: إنك لبثت مائة عام. أما طعامك، وشرابك، وكذلك ماء الشرب لم يتبخر ولم يتخمر، فلم يفسد وأما حمارك فقد فني، وبليت عظامه،

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٤١٨، ٤١٩.

وشاهد العزير مقدرة الله ﷻ على إحياء الموتى، فراحت العظام تتجمع، ثم تُكتسى باللحم، وعادت الحياة إلى حماره، فقال العزير: إن الله على كل شيء قدير.

وهذا ما جسَّده السياق القرآني في قوله ﷻ: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ (البقرة).

وتفسير هذه القصة أن الله تعالى القادر على كل شيء، والذي في يده مسيرة الزمن يطلقه، أو يقبضه، أو يُعيده ـ قد أوقف الزمن على العُزير، والماء، والطعام، وفي نفس الوقت أطلق الزمن على الحمار والناس، ثم أعاد الزمن على الحمار وحده دون أن يُعيدَه على الناس أجمعين.

وبذلك بقي العُزير على حاله، وكذلك الماء، والفواكه، وترك الله الزمن ليمضي على الحمار، وعلى كافة مخلوقاته، وعندما أراد الله إعادة الزمن، أعاده على الحمار فقط ثم أطلقه على الحمار ليعود حيًّا، بينما مات من الخلق من مات، وأصابه من الزمن ما أصاب.

كذلك فإن الله أوقف الزمن على أهل الكهف حوالي ثلاثمائة عام، وأطلق الزمن على الأرض كلها، ولما أعاد الله إليهم الحياة كانت قد تغيَّرت البشرية بمقدار هذه السنوات فعاش بعدها أهل الكهف، ما قدَّر لهم الله أن يعيشوا، ثم قبضهم الله قَبْضة واحدة، والله على كل شيء قدير، ليكونوا بذلك معجزة مرئية لقومهم الذين جاءوا بعدهم.

وبهذه الطريقة نَفْهم أن محمدًا ﷺ لم تستغرق رحلته في الإسراء والمعراج أي زمن؛ لأنها حدثت خارج حدود الزمن؛ لأن الله أوقف تقدُّم الزمن على الأرض كلها وأخرج محمدًا ﷺ من حدود الزمان والمكان، فكانت رحلة الإسراء والمعراج الرحلة التي زار فيها الرسول الأعظم ملكوت السموات، وشاهد ما شاهد، وكلم ربه في الحضرة المقدسة، الأمر الذي لم يحدث لبشر قبله، فاستحق من الناس لقب أكرم خلق الله[1].

وهذا تأكيد على أن النبي ﷺ مُؤيَّد من الله ﷻ، فهي معجزة، والمعجزات خارقة للعادة وإلا فما وجه الإعجاز فيها؟!

وإن قال قائل: ما دام الفعل مع الله لايحتاج إلى زمن، فلماذا لم يأتِ الإسراء لمحة فحسب، ولماذا استغرق ليلة؟

نقول: لأن هناك فرقًا بين قطع المسافات بقانون الله ﷻ، وبين مراءٍ عُرضت على النبي ﷺ في الطريق، فرأى مواقف، وتكلم مع أشخاص، ورأى آيات وعجائب، هذه هي التي استغرقت الزمن.

ثم إننا حين ننسب الفعل إلى فاعله يجب أن نعطيه من الزمن على قدر قوة الفاعل. هب أن قائلًا قال لك: أنا صعدت بابني الرضيع قمة جبل إفرست، هل تقول له: كيف صعد ابنك الرضيع قمة إفرست؟!

وكذلك مسألة الإسراء والمعراج بقول الله تعالى:

---

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٣١٦: ٣١٨.

"أنا أسريت بعبدي، فمن أراد أن يحيل المسألة وينكرها، فليعترض على صاحب الفعل، لا محمد ﷺ" [1].

ثم: كيف ينكر الطاعنون صعود الأجسام إلى السماء بقدرة الله، وهي ليست ممتنعة عند أهل الكتاب؟! "وسار أَخْنُوخُ مع الله، ولم يُوجَدْ لأنَّ الله أَخَذَهُ". (التكوين ٥: ٢٤).

وهذا إيليا يقول عنه كاتب سفر الملوك الثاني: "وكان عند إصعاد الرَّب إيليَّا في العاصفة إلى السماء، أن إيليَّا وأليشع ذَهَبَا من الجلجال. فقال إيليَّا لأليشع: امكث هنا لأنَّ الربَّ قد أرسلني إلى بيت إيل. فقال أليشعُ: حيٌّ هو الرَّبُّ وحيَّةٌ هي نفسُك، إني لا أتركك. ونَزَلَا إلى بيت إيلٍ. فَخَرَجَ بنو الأنبياء الذين في بيت إيلَ إلى أَلِيشَعَ وقالُوا له: أَتَعْلَمُ أنَّه اليوْمَ يأْخُذُ الرَّبُّ سيِّدك من على رأسك؟ فقال: نعم، إني أعلمُ فاصمتوا. ثم قال له إيليَّا: يا أليشع، امكث هنا لأنَّ الرَّبَّ قد أرسلني إلى أريحا. فقال: حيٌّ هو الرَّبُّ وحيَّةٌ هي نفسُك، إني لا أَتْرُكُكَ وأَتَيَا إلى أريحا. فتقدَّم بنو الأنبياءِ الذين في أريحا إلى أليشع وقالوا له: أَتَعْلَمُ أنه اليوم يأْخُذُ الرَّبُّ سيدك من على رأسك؟ فقال: نعم أني أعلم فاصمتوا. ثم قال إيليا: امكث هنا؛ لأن الرب قد أرسلني إلى الأردن. فقال: حيٌّ هو الرب وحية هي نفسك، إني لا أتركك. وانطلقا كلاهما. فذهب حفون رجلًا من بني الأنبياء ووقفوا دلفه وضرب الماء، فانفلق إلى هنا وهناك، فعبرا كلاهما في اليبس ولما عبرا قال إيليا لأليشع: اطلب: ماذا أفعل لك قبل أن أوخذ منك؟ فقال أليشع: ليكن نصيب اثنين من روحك علي. فقال: صعبت السؤال. فإن رأيتني أوخذ منك يكون لك كذلك، وإلا فلا يكون. وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نارٍ فصلت بينهما، فصعت إيليا في العاصفة إلى السماء". (الملوك الثاني ٢: ١ ـ ١١).

فهذه الأمور مسلَّم بها عند اليهود والنصارى، فلا مجال لهم لأنْ يعترضوا على معراج النبي ﷺ [2].

بهذا يتبين أن قدرة الله ﷻ فوق كل شيء، فهو المقدِّر للزمان والمكان، وهو مُسَيِّرُ الكون حَسْب إرادته، وهو ﷻ المؤيِّد لأنبيائه بالمعجزات الخوارق، مُكَوِّر الليل والنهار حسب إرادته ومشيئه ®.

ثانيًا. لم يكن بكاء موسى عليه السلام حسدًا، ولكنه كان حزنًا على قومه الذين خذلوه بِقِلَّة عدد من اتبعه منهم، بدليل أنه عليه السلام راجع النبي ﷺ لتخفيف الصلاة على أمته:

الظواهر بمفردها لا تبيِّن ما يُراد منها، بل إنها تحتاج لفهمها إلى آلة فهم، وإلى فهم البواعث ومرادها، والغاية والمقاصد التي تنتهي إليها، إذ بغير ذلك لا تُفْهَم الحوادث، وبغير ذلك لا تُعْقل الأشياء [3].

ومن هنا نوضح أن موسى عليه السلام في الحديث حين جاوزه النبي ﷺ بكى وعلَّل بُكاءه هذا بأن النبي ﷺ

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٣، ص٨٣١٣.

٢. رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، مرجع سابق، ص١٨٩، ١٩٠ بتصرف يسير.

® في **"الإسراء والمعراج من الأمور التي لا يرفضها العقل"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة والعشرين، من هذا الجزء.

٣. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق، ص١٣٥، ١٣٦.

برغم أنه متأخِّر في البعثة والظُّهور، إلا أنه قد قُدِّر له أن يكون أكثر الناس أتباعًا يوم القيامة، والبكاء من موسى عليه السلام حادثة من الحوادث، ومظهر من المظاهر التي تعرض للجسم المادي فتعبِّر عن حالة من حالات النفس لا يعرفها إلا صاحبها، أو من كان يعلم السرَّ وأخفى من السر.

فأنت تدمع عيناك لتعبِّر عن حالة من حالات السعادة في داخلك، فإذا كان شر البلية ما يضحك كما يقولون، فإن أعلى درجات السعادة ما يُبْكي، وتلك حالات عجيبة من أحوال النفس يعصف بها إعصار الحزن والألم إلى أن يعبِّر الجسم عن ذلك بالضحكات، وليست هذه الحالة من أحوال النفس نادرة من النوادر، بحيث لا يجدها التاريخ إلا عند رجل أو رجلين في جيل من الأجيال أو في أجيال متعاقبة، ولكنها ظاهرة من الظواهر قد بلغ من عمومها إلى الحد الذي صارت توضع معه مثلًا، حيث يقول الناس حين تشتد البلية وهم يضحكون (إن شر البلية ما يُضْحِك).

وقِسْ على ذلك عكسه من أحوال النفس التي تَعْرض لها، وليست من قبيل الأشياء النادرة في الوقوع.

فإننا كثيرًا ما نجد الإنسان يأخذه السرور من جميع أقطاره وتَكْتَنِف نَفْسَه الفرْحة من جميع جوانبها، والجوارح تعبر عن ذلك بالبكاء، وأيضًا قد يكون البكاء لحقد أو حسد.

فمن أحوال النفس التي تبكي من أجلها ما يكون منها من حِقْد، أو حَسَد، أو غِل، أو ما يُشْبه ذلك من أمراض القلوب الطاغية، حين ترى الآخرين في نعمة أو في سعادة، وهي لا تملك أن تفعل شيئًا فلا يكون لذلك من تعبير يعبر عن الألم الذي تشعر النفس به إلا البكاء، غير أن البكاء يكون في هذه الحال والتي يكون سببها مرض من أمراض القلوب، إنما يسيل على الخدود بعد أن مر بنار الحقد العالية، وبعد أن ارتفعت بحرارته انفعالات الحسد المدمرة.

بعد هذا البيان الموجز نقول: إن القوم نظروا إلى هذه الفقرة من الحديث، وحملوا بكاء موسى عليه السلام على أنه لا يعبِّر إلا عن حال واحدة هي الحقد، أو الحسد، أو الغيرة، ولسنا ندري أهؤلاء القوم لا يعلمون من أحوال النفس إلا هذه الأحوال التي لا تُعبِّر إلا عن أمراض القلوب؟! أو أنهم يعلمون نحو ما ذكرناه من أحوال النفس، ولكن أحوال نفوسهم الخاصة قد جعلتهم يضلِّلون، ويزوِّرون حتى يتمكنوا من صرف الناس عن سنة نبيهم تمهيدًا إلى صرفهم عن نبيهم ﷺ في النهاية، باعتباره الغاية القصوى التي يرجونها ويأملونها، أو تقع ممن هم وراءهم مواقع من يبتغون ويريدون؟!

إن موسى عليه السلام قد بكى ولا شك، ونحن نستطيع أن نَحْمل بكاء موسى على كل حالة من حالات النفس إلا أن تكون هذه الحالة مُعَبِّرة عن مرض من أمراض القلوب. وينتفي أن يكون بكاء موسى عليه السلام حقدًا أو حسدًا لأمرين؛ هما:

١. أنه نبي وأمراض القلوب خِسَّة خُلقية يترفَّع عنها ذَوو الأرْيَحِيَّات والقلوب العظيمة، فضلًا عن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

٢. آخر الحديث يأبى كل الإباء على من يريد أن

يحمل بكاء موسى عليه السلام على مرض من أمراض النفس قاصدًا إلى هذا الحمل أو غير قاصد.

ألست ترى أن النبي ﷺ في آخر الحديث قد بيّن أن الله عز وجل قد فرض عليه خمسين صلاة في اليوم والليلة أول الأمر، ولم يمض الله فريضته حتى راجعه النبي ﷺ مرارًا، حتى صارت الصلوات خمسًا في اليوم والليلة، ولقد شاء أن الذي يحمل النبي ﷺ على أن يراجع ربه هو موسى عليه السلام؟ لعل تفسير ذلك أن عالم الغيب عز وجل قد علم أنه سيأتي قوم يتهمون موسى عليه السلام بأنه بكى حقدًا، ويتهمون النبي ﷺ حين يخبر بالحديث أنه يقول ما يقوله خيلاء وكبرًا، فشاء ربنا عز وجل أن يكون موسى عليه السلام هو الذي راجع النبي محمدًا ﷺ وأمره أن يعود إلى ربه كي يقطع ألسنة ويرغم أنوفًا.

وهذا يؤكد أن نبي الله موسى عليه السلام لم يكن حاقدًا أو حاسدًا للنبي ﷺ بدليل قول راوي الحديث "وكان موسى عليه السلام من أشدهم عليه حين مر به وخيرهم له حين رجع إليه" [1].

لقد كان بكاء موسى عليه السلام تعبيرًا عن حزنه على قومه وقلة أتباعه يوم القيامة، ونقصان أجره بعكس أمة الحبيب المصطفى ﷺ، فالبكاء من قِبَل موسى عليه السلام لأنه مكث في قومه فترة طويلة، ولم يؤمن له فيها العدد الذي آمن بدعوة محمد ﷺ.

نخلص من هذا إلى أن بكاء سيدنا موسى عليه السلام لم يكن بكاء حقد، أو حسد للنبي ﷺ وأمته كما يدَّعون، ولكنه بكاء رحمة لأمته لقلة من اتبعه منهم.

---

١. المرجع السابق، ص١٣٩: ١٤٢ بتصرف يسير.

ثالثًا. اختص الله عز وجل نفسه بعلم الغيب، إلا أنه أظهر بعضه لرُسُله؛ ليدلّل على صدق نبوتهم:

علم الغيب في الماضي أو في المستقبل مقصور على الله عز وجل لكن قد يُطْلع الله أحد رسّله الكرام على المغيّبات، فيكون ذلك من جملة معجزاته الباهرة الثابتة قطعًا ويقينًا، وهذا ما تم لرسولنا الأكرم ﷺ في جملة وقائع وأخبار تحقّقت، وبعضها يتحقق حاليًا، وبعضها يُتوقّع تحقُّقه بعدئذ، قال عز وجل: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ (الجن) [2].

فلقد أخبر ﷺ عن أمور مستقبلية، لا تُعْلم إلا بالوحي، ولا علم له ﷺ بها، وأثبت الواقع صدقه ﷺ إذا وقعت وفق ما أَخْبر ﷺ مما يدل على أن الله عز وجل هو الذي أخبره بذلك وأن هذا علامة من علامات نبوته ﷺ [3].

ولقد اشتمل القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة على عدد من هذه الغيبيات التي تحققت، وما زالت تتحقق، وسوف يتحقّق جزء منها في المستقبل إن شاء الله تعالى.

ومما أخبر به القرآن على لسان نبينا ﷺ ما جاء في المعركة التي كانت بين الفرس والروم، وأن الغلبة في النهاية للروم، فقال عز وجل: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ

---

٢. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٢٠٨.

٣. معجزات الرسول ﷺ التي ظهرت في زماننا، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٣٤، ٣٥.

أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الروم).

ففي عهد رسول الله ﷺ دارت معركة بين فارس وهم عبّاد نار، والروم وهم أتباع النصرانية، وانتصرت فارس على الروم، ففرح مشركو مكة، واعتبروا ذلك بشارة بنصرهم على المسلمين؛ ذلك أن الفرس وهم أهل دين أرضي قد انتصروا على الروم أتباع الدين السماوي، فقاسوا على ذلك أن ينتصر مشركو مكة، الذين هم أتباع دين أرضي على محمد ﷺ وأصحابه أصحاب الدين الرباني.

ونزلت هذه الآيات من صدر سورة الروم، تبشّر المؤمنين بأن الله ﷻ سينصر الروم في خلال سنوات معدودة[1]. وتحقّق ما جاء في كتاب ربنا، وما أخبر به نبينا، وهذا يدلُّ على صِدْق ما جاء به ﷺ وأنه ليس تقوُّلًا على الله.

ومن الغيبيات التي أخبر بها النبي ﷺ أيضًا "إخباره بموت قادة غزوة مؤتة"؛ فقد حدث أن جهَّز رسول الله جيشًا ليؤدِّب أهل الجهة الشمالية من الجزيرة، بعد أن قتلوا مندوبه غدْرًا، وعيَّن ﷺ من يقود هذا الجيش، وكان التعيين عجيبًا، فلقد عين ﷺ زيد بن حارثة قائدًا للجيش، فإن قُتل؛ فليكن القائد جعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة.

وأيقن الصحابة ﷺ أن هؤلاء القادة سُيقتلون، وأيقن القادة أيضًا بذلك وسافر جيش المسلمين، والتقى بجيش الروم، وقُتل القادة الثلاثة، واختار الجيش خالد بن الوليد قائدًا، وأعزَّ الله جنده.

ورسول الله ﷺ في المدينة، يُخْبِر بكل ذلك، يُخْبر باسْتِشْهاد القادة الثلاثة، وتولي خالد، وفتح الله على المُسْلمين.

فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ نَعَى زيدًا، وجعفرًا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: "أخذ الرَّاية زيد، فأُصيب، ثم أخذ الراية جعفر، فأُصيب، ثم أخذها ابن رواحة، فأُصيب، وعيناه تذرفان... حتى أخذها سيف من سيوف الله تعالى حتى فتح الله ﷻ عليهم"[2] [3].

تلك الحادثة تؤكد صدق النبي ﷺ فيما أخبر عن ربه من الأمور الغيبية، فقد أخبر النبي ﷺ بكل ما حدث وقد حدث بالفعل.

وقد جعل الله ﷻ إسراء النبي ﷺ إلى بيت المقدس قبل المعراج ليكون دليلًا على صدق النبي فيما يخبر به.

وقد أبان هذا السر الشيخ محمد بن أبي جمرة فقال: إن الحكمة في الإسراء برسول الله ﷺ من بيت المقدس قبل العروج به إلى السماء إقامة الحُجَّة على المشركين والمتشككين؛ لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمراغمة الكفار الضعفاء سبيلًا إلا إلزامهم بالحُجَّة إذ لا عِلْم لهم بالعالم العلوي، حتى يسألوا فيجيبهم بما يقيم عليهم الحجة، بخلاف ما وقع بالفعل، فإنه لمَّا ذكر أنه

١. المرجع السابق، ص٣٨.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، مناقب خالد بن الوليد ﷺ (٣٥٤٧).

٣. معجزات الرسول ﷺ التي ظهرت في زماننا، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مرجع سابق، ص٤٤، ٤٥.

أُسْري به إلى بيت المقدس سألوه أن يَصِفَ لهم بيت المقدس، وكانوا يعرفونه في تجارتهم وأسفارهم.. ويَعْلَمون أيضًا أن النبي ﷺ لم يكن رآه من قبل فلما أخبرهم بأوصافه كان ذلك أكبر آية على صدقه فيما ذكر في الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة ورجوعه منه، وإذا تحققوا من صدقه لزمهم تصديقه في بقية ما ذَكَره من المعراج، ليؤمن من آمن عن بيِّنة، ويكفر من كفر بعد قيام الحجة عليهم[1].

إن هذا ليؤكد صدق النبي ﷺ فيما أخبر من أمور غيبية، قد عَلِمها النبي بالوحي، أو أخبر عنها كما رآها بالمشاهدة، ـ كما حدث في رحلة الإسراء والمعراج ـ، وقد صدق الله إذ يقول: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ (النجم)®.

رابعًا. لم يكن تفاخر النبي ﷺ كبرًا أو خُيَلاء على الأنبياء، وإنما كان فرحًا وسرورًا بأكثرية تابعيه يوم القيامة، دون غيره من الأنبياء:

معلوم أن الله تبارك وتعالى كرَّم نبينا محمدًا ﷺ وفضَّله على جميع البشر، وجعله سيد ولد آدم قاطبة، وبيده لواء الحَمْد دون فخر ولا استعلاء، وهذه ميزة أجمعت عليها الأخبار الصحيحة والروايات الثابتة؛ ومنها:

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفَّع"[2].
- عن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرَع باب الجنة"[3].
- فالسِّيادة للنبي ﷺ مُلازمة لأكثرية أتباعه، وقد لجأ إلى محمد ﷺ جميع الناس في الشفاعة، فكان سيدهم في الحياة الأخرى، دون ادّعاء، ومظهر هذه السيادة: ما دلَّ عليه قول أنس بن مالك ﷺ: قال رسول الله ﷺ: "آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: أنا محمد، فيقول: بك أمرتُ ألَّا أفتح لأحد قبلك"[4].

ومن خصائص النبي ﷺ: إعطاؤه نهر الكوثر والحوض الأكبر لاستقاء الناس منه، وورد في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: "حوضي مسيرة شَهْر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الوَرِق[5]، وريحه أطيب من المسك، كيزانه كنجوم السماء، من شَرِب منها فلا يظمأ أبدًا"[6] [7].

١. عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، مرجع سابق، ص١٩٧.

® في "إخبار النبي ﷺ بالغيب وحي من الله" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السابعة والعشرين، من هذا الجزء.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق (٦٠٧٩).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي: "أنا أول الناس يشفع في الجنة" (٥٠٥).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي: "أنا أول الناس يشفع في الجنة" (٥٠٧).

٥. الوَرِق: الفِضَّة.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الحوض (٦٢٠٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا وصفاته (٦١١١).

٧. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٩٨: ٢٠٠.

وعلى الرغم من أن الله تبارك وتعالى أعْلى شأن نبينا محمد ﷺ وجعل أمته أكْثر الناس دخولًا للجنة، إلا أن نبينا ﷺ كان على جانب عظيم من التواضع مع علوِّ منزلته ورفعة رُتْبته، وهي النبوة وكمال الرسالة، فكان أشد الناس تواضعًا وأبعدهم عن الكبر، وحسبك أنه خُيِّر بَيْن أن يكون نبيًّا مَلِكًا أو نبيًّا عبدًا من جملة عباد الله تبارك وتعالى، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا؛ أي تباعد عما هو من شأن الملوك من التكبُّر والتجبُّر، وتقرب إلى ما هو من صفات العبد من التقلّل في الدنيا والإقبال على خدمة المولى.

قال له إسرافيل عند ذلك: فإن الله قد أعطاك بما تواضَعْت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تَنْشقُّ الأرض عنه، وأول شافع، وأول مشفَّع[1]: وعملًا بحديث أبي هريرة: "من تواضع لله رفعه"[2]. وقال: " آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد إنما أنا عبد"[3].

ومن تواضعه ﷺ قوله: "لا يقولن أحدُكم إني خير من يونس بن متَّى"[4]. "ولا تخيّروني على موسى"[5][6].

على أن ما كان من تفاخره ﷺ وفرحته بأمته وعدد من يدخلون الجنة منها، لم يخرج عن جملة ما عُهد منه ﷺ من تواضع جمٍّ مع ربه، ومع الأنبياء جميعًا، ومع سائر أمته فقراء وأغنياء، والشواهد في ذلك كثيرة متواترة تواترًا تغني الإشارة إليه.

إن ما جهله هؤلاء أن النبي ﷺ كان فخورًا بأُمّته فرحًا لها وسعيدًا لأجل تفضُّل الله عليه، وبأنه سيكون أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة في الجنة، إنها فرحة الراعي برعيته، فرحة المعلم بنجاح تلميذه، هذا ما جهله الطاعنون، وتناسوه[®].

الخلاصة:

- إن رحلة الإسراء والمعراج معجزة، والمعجزات بطبيعتها تخرج عن نطاق الممكن والعادة والزمن، كما حدث مع العزير عندما أماته الله مائة عام ثم بعثه، فوجد الطعام والشراب لم يفسد، مع أهل الكهف، فقد عطَّل الله عامل الزمن عليهم فقط دون غيرهم، وهذا إنما يدل على قدرة الله ﷻ خالق كل شيء، ولولا

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق (٦٠٧٩).

٢. صحيح: أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٦٢).

٣. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب أهل الكتابين، باب الأكل متكئًا (١٩٥٥٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٤).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾(الصافات) (٣٢٣١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر يونس ﷺ (٦٣١٠).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي (٢٢٨٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٦٣٠٢).

٦. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص ١٤٣.

® في **"أفضلية النبي ﷺ على غيره من الأنبياء والرسل"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). وفي **"رفض النبي ﷺ لمظاهر التعظيم والتفخيم والإطراء"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء. وفي **"تواضع النبي ﷺ مع أصحابه"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ).

الخروج على العادة لما كانت المعجزة معجزة!

- كان بكاء سيدنا موسى عليه السلام أسفًا وحزنًا على أمته التي لبث فيها أكثر من النبي ﷺ في أمته، ومع ذلك قَلّ عدد من آمن منهم، ولم يكن بُكاؤه حقدًا أو حسدًا على أمة النبي؛ لأن هذا محال على الأنبياء فقد نزّههم الله من كل منقصة وعيب، ودليل ذلك أنه راجع النبي ﷺ ليخفِّف الله الصلاةَ عن أمته.

- الغيب علم اخْتصَّ الله به نفسه دون غيره من خَلْقه، إلا أنه أظهر بعضه لرسله، دليلًا على صدق نبوتهم، قال عز وجل: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الجن). ولقد برهن الله عز وجل على صدق نبيه فيما أخبر مما حدث له في هذه الرحلة، بأن جعل معراجه من بيت المقدس، حين أخبرهم بصفات المسجد وأوصافه، على الرغم من أنه لم يسافر إليه وهم يعلمون ذلك.

- لقد تفاخَر النبي ﷺ فرحًا وسرورًا بأكثرية تابعيه الذين يدخلون الجنة أكثر من غيرهم من الأمم الأخرى، وهذا مَحَلُّ فَخْر يدلُّ على عظَمة مكانته عند ربه، فما كان ليتفاخر كبرًا وخُيلاء - كما يزعمون -، وقد عصمه الله عز وجل من كل مَنْقصة وعيْب كغيره من الرسل والأنبياء، فمن الثابت من سيرته العطرة شدة تواضعه على الرغم من ارتفاع مكانته ﷺ بين الأنبياء عند الله عز وجل.

الشبهة السابعة والعشرون

ادعاء أن إخباره ﷺ بالغيب ليس معجزة(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين أن إخباره ﷺ بالغيب ليس معجزة، وليس خاصًّا به وحده، ويستدلون على ذلك بما يزعمونه من أن علم الغيب هو مجرد علم كسائر علوم الناس، وأن كثيرًا من الناس يعلمون الغيب من خلال اتصالهم بالجنِّ ومناجاة الأرواح؛ فلا علاقة لعلم الغيب بالوحي. ويهدف هؤلاء المغرضون من وراء ذلك إلى إثبات أن إخباره ﷺ بالغيب ليس من خصوصياته، وإلى نفي هذه المعجزة عنه ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد اختصَّ الله نفسه بعلم الغيب، إلا أنه أظهر بعضه لمن شاء من رسله؛ دلالة على صدق نبوتهم، وهذا من سنن الله الكونية.

٢) هناك فرق شاسع بين معجزات الأنبياء التي أجراها الله عز وجل على أيديهم، وبين من لهم اتصال بالجن والشياطين.

٣) الجن أنفسهم لا يعلمون الغيب فكيف يعلِّمونه غيرهم؟!

٤) من أعظم دلائل نبوته ﷺ القرآن الكريم، وقد ورد في القرآن الإخبار ببعض المغيبات السابقة، وما كان في وقت نزوله، وما سيقع بعد ذلك، وهذه الأشياء قد وقعت بالفعل كما أخبر، فكيف يدَّعون أن الإخبار

(*) نقد كتاب حياة محمد ﷺ، عبد الله بن علي النجدي القصيمي، مرجع سابق.

بالمغيبات لا علاقة له بالوحي؟!

التفصيل:

أولا. مع أن الغيب لا يعلمه إلا الله إلا أنه ﷻ أظهر بعضه لرسله؛ للتدليل على صدق نبوتهم:

من الأمور المسلَّم بها أن علم الغيب موكول إلى الله ﷻ يقول: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ (الجن).

والمعنى: أن الله سبحانه هو عالم الغيب، ولا يُطلع أحدًا من خلقه على شيء من علمه، إلا من شاء ﷻ أن يُطلعه من رسله، يستوي في ذلك من اصطفاه من الناس أو الملائكة، ومن أطلعه الله على بعض الغيب فإنه يرزقه من يحفظه من الملائكة، بحيث لا تستطيع الشياطين أن تتعرَّض له أي تعرُّض.

وهذه الآية واضحة في أن الله ﷻ يُطْلع من شاء من رسله على بعض الأمور الغيبية، وعليه فلا غرابة في إخبار رسول الله ﷺ بشيء من الغيبيات، فإن هذا مما أطلعه الله عليه، وأعلمه سبحانه وتعالى به.

على أن قوله ﷻ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ يفيد أن هذه سنة لله كونية، وأنه يطلع من شاء من رسله على بعض غيبه، ولقد سجل القرآن شيئًا من ذلك في شأن عيسى ﷺ، يقول الله ﷻ عن عيسى ﷺ ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (آل عمران).

إن إخباره ﷺ بما هو غيب يحدث بعيدًا عنه، وما يحدث في بيوتهم آية أعطاها الله له ليهتدي بها أصحاب القلوب السليمة، وكذلك رسول الله محمد ﷺ أعلمه الله الكثير من الأمور الغيبية آيات بينات تنطق بنبوته ورسالته، وتزيد المؤمنين إيمانًا وهدى.

وهذه آية أخرى تدل على جواز أن يتفضل الله بالعلم ببعض غيبه على من يشاء من عباده يقول ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

إنه سبحانه هو الذي أحاط بكل شيء علمًا، أما الخلق فإنهم لا يعلمون شيئًا من علمه ﷻ إلا بالقدر الذي أراد أن يعلِّمهم إياه.

إن علم الله ﷻ محيط، يكون بجنس الشيء، وكيفيته وأجزائه، والغرض من كل جزء فيه، وماذا قُدِّر له، وإلى أي أجل سيكون، وهو سبحانه وتعالى يُعلم من شاء من خلقه شيئًا من ذلك، فليس في وسع البشر علم كل ذلك[1].

ثانيًا. الفرق الشاسع بين معجزات الأنبياء التي أجراها الله ﷻ على أيديهم، وبين من لهم ارتباط بالجن والشياطين:

إذا قيل عن الشخص: إنه مجنون، فإنه يُعلم هل هو من العقلاء، أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله، وكذلك يُعرف هل هو من جنس الأنبياء، أو من جنس السحرة، وكذلك لما قالوا عن محمد ﷺ إنه شاعر فإن الشعراء جنس معروفون في الناس، وقالوا: إنه كاهن، وشبهة الشعر: أن القرآن كلام جميل والشعر موزون جميل، وشبهة الكهانة: أن الكاهن يخبر ببعض الأمور الغائبة، فذكر الله تعالى الفرق بين هذين وبين النبي،

---

١. معجزات الرسول التي ظهرت في زماننا، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مرجع سابق، ص٤٢ بتصرف يسير.

فقال ﷺ: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ (٢٢٣) ﴾ (الشعراء)، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٣) ﴾ (الحاقة).

ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم (الوليد بن المغيرة) أن يقولوا للناس هو شاعر، ومجنون، وساحر، وكاهن صار يبيِّن لهم أن هذه أقوال فاسدة، وأن الفرق معروف بينه وبين هذه الأجناس، فالمقصود أن هذه الأجناس كلها موجودة في الناس معتادة معروفة وكل واحد منها يُعرف بخواص مستلزمة له، وتلك الخواص آيات له مستلزمة له، فكذلك النبوة لها خواص مستلزمة لها تُعرف بها، وتلك الخواص خارقة لعادة غير الأنبياء، وإن كانت معتادة للأنبياء فهي لا توجد لغيرهم.

فإذا أتى مدعي النبوة بالأمر الخارق للعادة الذي لا يكون إلا لنبي، ولا يحصل مثله لساحر، ولا لكاهن، ولا غيرهما كان دليلًا على نبوته. وكل من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين، فإن الكهان تتنزَّل عليهم الشياطين، والسحرة تعلِّمهم الشياطين، قال ﷺ: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ (البقرة: ١٠٢).

والساحر لا يتجاوز سحره الأمور المقدورة للشياطين، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) ﴾ (طه)، وقال ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ (البقرة: ١٠٢).

فهم يعلمون أن السحر لا ينفع في الآخرة، ولا يقرِّب إلى الله، وأن من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، فإن مبناه على الشرك، والكذب، والظلم، ومقصود صاحبه الظلم والفواحش.

وهذا مما يُعلم بصريح العقل أنه من السيئات، فالنبي لا يأمر به ولا يعلِّمه، يستعين على ذلك صاحبه بالشرك والكذب، وقد عُلم بصريح العقل مع ما تواتر عن الأنبياء أنهم حرَّموا الشرك، فمتى كان الرجل يأمر بالشرك، وعبادة غير الله، أو يستعين على مطالبه بهذا وبالكذب والفواحش والظلم عُلم قطعًا أنه من جنس السحرة لا من جنس الأنبياء. وخوارق هذا يمكن معارضتها وإبطالها من بني جنسه وغير بني جنسه، وخوارق الأنبياء، لا يمكن لغيرهم أن يعارضها ولا يمكن لأحد إبطالها لا من جنسهم ولا من غير جنسهم، فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضًا فلا يتصور أن نبيًّا يبطل معجزة آخر، وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه[1].

ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضًا، كما أن معجزات أتباعهم آيات لهم، بخلاف خوارق السحرة، فإنها تدل على أن صاحبها ساحر يؤثر آثارًا غريبة مما هو فساد في العالم، ويسرُّ بما يفعله من الشرك والكذب والظلم، ويستعين على ذلك بالشياطين. فمقصوده الظلم والفساد، والنبي مقصوده العدل والصلاح،

---

١. النبوات، تقي الدين أحمد بن تيمية، مرجع سابق، ص٣٨: ٤٠.

وهذا يستعين بالشياطين، وهذا بالملائكة، وهذا يأمر بالتوحيد لله وعبادته وحده لا شريك له، وهذا إنما يستعين بالشرك وعبادة غير الله. وهذا يعظِّم إبليس وجنوده، وهذا يذم إبليس وجنوده، والإقرار بالملائكة والجن عام في بني آدم لم ينكر ذلك إلا شواذ من بعض الأمم؛ ولهذا قال الله على لسان الأمم المكذِّبة: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ (المؤمنون: ٢٤). حتى قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون. قال قوم نوح: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ (المؤمنون: ٢٤).

وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ (فصلت).

وفرعون وإن كان مُظهرًا لجحد الصانع فإنه ما قال كما حكى عنه القرآن الكريم: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الزخرف)، إلا وقد سمع بذكر الملائكة إما معترفًا بهم، وإما منكرًا لهم.

فذكر الملائكة والجن عام في الأمم، وليس في الأمم أمة تنكر ذلك إنكارًا عامًا، وإنما يوجد إنكار ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم، فلا بد في آيات الأنبياء من أن تكون مع كونها خارقة للعادة أمرًا غير معتاد لغير الأنبياء بحيث لا يقدر عليه إلا الله الذي أرسل الأنبياء، ليس مما يقدر عليه غير الأنبياء لا بحيلة ولا عزيمة ولا استعانة بشياطين ولا غير ذلك[1] ®.

ثالثًا. الجن أنفسهم لا يعلمون الغيب فكيف يُعلِّمونه غيرهم:

إن الجنّ ـ التي زعم مثيرو الشبهة أنها تعلّم كثيرًا من الناس الغيب، عن طريق اتصالهم بها ـ لا تعلم الغيب، ومما يدل على ذلك قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ (سبأ: ١٤)؛ أي: فلما حكمنا على سليمان عليه السلام بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه وقع به الموت، وذلك أنه كان متكئًا على المِنسَأة[2] فمات كذلك وبقي خافي الحال إلى أن سقط ميتًا لانكسار العصا لأكل الأَرَضَة إياها، فُعلم موته بذلك، فكانت الأرضة دالة على موته، أي سببًا لظهور موته، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضي عليه سنة، واختلفوا في سبب سؤاله لذلك: قال قتادة وغيره: كانت الجنُ تدّعي علم الغيب، فلما مات سليمان عليه السلام وخَفي موته عليهم تيقنت أن لاعلم لها بالغيب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ (سبأ)، وقال ابن مسعود: أقام حولًا والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأرضة منسأته فسقط. ويُروَى أنه لما سقط لم يُعلم منذ متى مات، فوضعت الأَرَضَة على العصا فأكلت منها يومًا وليلة ثم

---

١. المرجع السابق، ص٤٠، ٤١.

® في "انتفاء السحر عن النبي ﷺ" طالع: الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

٢. المِنسَأة: العصا.

حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة[1].

ورُوي أنه دخل على الحجّاج منجِّمٌ، فاعتقله الحجاج، ثم أخذ حَصَيات فعدَّهن، ثم قال: كم في يدي من حصاة؟ فحسب المنجم، ثم قال: كذا، فأصاب، ثم اعتقله فأخذ حصيات لم يعدهن فقال: كم في يدي؟ فحسب فأخطأ، ثم حسب فأخطأ، ثم قال: أيها الأمير، أظنك لا تعرف عددها، قال: لا، قال: فإني لا أصيب. قال: فما الفرق؟ قال: إن ذلك أحصيتَه فخرج عن حد الغيب، وهذا لم تحصه فهو غيب، ولا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله[2].

مما سبق يتضح أن الجن لا تعلم الغيب، ولكنها ربما تعلم ما مضى وما خرج من حد الغيب، أما الغيب فإنه موكول إلى الله عز وجل.

فكيف يدعي هؤلاء أن من اتصل بالجن يعلمون الغيب، والجن أنفسهم لا يعلمون الغيب؟! إن علم الغيب الذي أوحاه الله إلى نبيه ﷺ علامة ودليل على صدق نبوته وصدق ما جاء به.

يقول الله عز وجل في ذلك عن الجنّ: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) ﴾ (الجن)؛ أي: "وأنّا طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها، فوجدناها قد مُلئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي تقذف من يحاول الاقتراب منها ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ (الجن: ٩) أي كنا قبل بعثة محمد نطرق السماء لنستمع إلى أخبارها ونلقيها إلى الكهان: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ (الجن) أي فمن يحاول الآن استراق السمع يجد شهابًا ينتظره بالمرصاد يحرقه ويهلكه، ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) ﴾ (الجن)؛ أي: لا نعلم نحن معشر الجن ما الله فاعل بسكان الأرض، ولا نعلم هل امتلاء السماء بالحرس والشهب لعذاب يريد الله أن ينزله بأهل الأرض؟ ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾؛ أي: أم لخير يريده الله بهم، بأن يبعث فيهم رسولًا مرشدًا يرشدهم إلى الحق"[3]؟

فالجنّ إذن لا يعلمون الغيب، ولكنهم كانوا يَسْتَرِقُون السمع، وذلك قبل مبعثه ﷺ، "وقد وضَّح الرسول ﷺ كيفية استراقهم السمع، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صَفْوان[4]، فإذا فُزِّع[5] عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير"، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرَّفها وبدَّد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصدَّق

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٤، ص٢٧٨.

٢. المرجع السابق، ج١٣، ص٢٢٦.

٣. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، د. ت، ج٣، ص١٦٢٤.

٤. الصَّفْوان: الصخر الأملس.

٥. فُزِّع عن قلوبهم: ذهب عن قلوبهم الخوف.

بتلك الكلمة التي سمع من السماء"[1][2].

ومن الأخطاء التي يقع فيها الناس اعتقادهم أن بعض البشر كالعرَّافين، والكهان يعلمون الغيب، فتراهم يذهبون إليهم، يسألونهم عن أمور حدثت من سرقات وجنايات، وأمور لم تحدث مما سيكون لهم ولأبنائهم، ولقد خاب السائل والمسئول، فالغيب علمه عند الله، لا يُظهر الله عليه إلا من شاء من رسله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الجن).

والاعتقاد بأن فلانًا يعلم الغيب اعتقاد آثم ضال، يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة التي تجعل علم الغيب لله وحده[3].

هذا وقد جاء عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من أتى عرافًا لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة" [4].

والعرَّاف هو الحاذر والمنجِّم الذي يدَّعي علم الغيب، وهي من العِرافة وصاحبها عرَّاف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدَّعي معرفتها، وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزَّجْر[5]، والطَّرْق[6]، والنجوم، وأسباب معتادة في ذلك، وكلها ينطلق عليها اسم الكهانة، قاله القاضي عياض.

والكهانة: ادعاء علم الغيب.. رواه البخاري في صحيحه من حديث أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سأل رسولَ الله ﷺ أناس عن الكُهّان فقال: "إنهم ليسوا بشيء"، فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثوننا أحيانًا بشيء فيكون حقًّا! فقال رسول الله ﷺ: "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيُقِرها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة"[7].

وروى البخاري من حديث أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب فتذكر الأمر قُضِي في السماء فتسترقُ الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم" [8] [9].

فكيف يدعي إذن بعض هؤلاء أن الجن والشياطين يعلمون الغيب، وهم لا يعلمون إلا الماضي. أما علم الحاضر والمستقبل، فلا يعلمون منه شيئًا، وكيف يدَّعي هؤلاء أنهم يعلِّمون الناس الغيب؟! فإذا كانوا هم لا يستطيعون علمه، فكيف يعلِّمونه للناس؟!

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة سبأ (٤٥٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٥٩٥٣).

٢. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، مرجع سابق، ص٣٧.

٣. المرجع السابق، ص١٤٥.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٥٩٥٧).

٥. الزَّجر: إثارة الطير للتفاؤل أو التشاؤم.

٦. الطَّرْق: ضَرْب الحَصَى، وهو نوع من الكَهانة.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم (٧١٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٥٩٥٣).

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٨).

٩. عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، مرجع سابق، ص١٤٧ بتصرف.

رابعًا. من أعظم دلائل نبوته ﷺ القرآن الكريم، وقد ورد فيه الإخبار ببعض الغيبيات، فكيف إذن يدَّعي هؤلاء المشككون أن الإخبار بالغيبيات لا علاقة له بالوحي؟!

لقد كانت معجزة كل نبي مناسبة للعصر الذي كان يعيش فيه ذلك النبي ومن جنس ما اشتهر به القوم الذين بُعث فيهم وما برعوا فيه حتى يكون خَرْقها للعادة الجارية أوضح لإقامة الحجة عليهم، وقد كانت معجزة المصطفى ﷺ لغوية بيانية غاية في الفصاحة والبلاغة، وهي القرآن الكريم ومناسبة لحال العرب الذين اشتهروا بفصاحة القول وبلاغة الكلمة وتذوق الكلام[1].

يقول الإمام الماوردي: "إن معجزة كل رسول موافقة للأغلب من أحوال عصره، والشائع المنتشر في ناس دهره؛ لأن موسى عليه السلام حين بُعث في عصر السحر خُصَّ من فَلْق البحر يَبَسًا وقلب العصا حية، بما بَهَرَ كل ساحر، وأذلَّ كل كافر، وبُعِثَ عيسى عليه السلام في عصر الطب فَخُصَّ من إبراء الزَّمْنَي[2]، وإحياء الموتى بما أدهش كل طبيب، وأذلَّ كل لبيب، ولما بُعث محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خُصَّ بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه العظماء وأذعن له البلغاء، وتبلَّد فيه الشعراء".

فالقرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي أوتيها رسولنا ﷺ فقد جاء في الحديث الشريف قوله: "ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أني أكثرهم تابعًا يوم القيامة".[3] ولقد تحدى القرآن الكريم العرب أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله، تحداهم أن يأتوا بمثله في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ (الطور) ثم تنازل لهم في تحديه إلى عشر سور من مثله وليستعينوا بمن شاءوا في سبيل تحقيق ذلك، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ (هود)، ثم تنازل لهم في تحديه أكثر فأكثر حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله دون تحديد بسورة طويلة، وهذا في غاية التخجيل، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ (البقرة)[4].

هكذا يتدرج معهم في تحدِّيه، وبهذا الأسلوب المثير الساحر، حتى يستجيبوا لهذا التحدي، علمًا بأنهم أهل الفصاحة والبلاغة في القول، شهد بذلك المؤرخون قديمًا وحديثًا، والقرآن نزل بلغتهم، حروفه عربية، وكلماته عربية معروفة لديهم، لكنهم عجزوا وضعفوا أمام هذا التحدي، فلم يستطيعوا الإتيان ولو بمثل

١. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص١٢٠.
٢. الزَّمْنَي: أصحاب الأمراض المُزمنة التي تدوم زمنًا طويلًا.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: "بعثت بجوامع الكلم" (٦٨٤٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس (٤٠٢).
٤. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص١٢٠: ١٢٢ بتصرف.

أقصر سورة فيه، ولو أنهم أنسوا في أنفسهم القدرة على معارضته لما توانوا لحظة واحدة لعداوتهم الشديدة له ﷺ، ولدعوته، ولتفانيهم المستميت في سبيل القضاء عليها، فلما لم يستطيعوا معارضته لجئوا إلى حربه، وبذلوا الأموال الكثيرة والنفوس العزيزة في سبيل ذلك، وهم أَهْلُ البلاغة والفصاحة والشعر، وكانوا يرتجلون الكلام البليغ في المحافل ارتجالًا.

هذا ولم يقتصر إعجاز القرآن على نظمه وبلاغته، بل تعداه إلى ما حواه من حِكَم وأخلاق ودين وتشريع، وعلوم عقلية، وأخبار عن الأمم الماضية، وإخبار بالغيوب مع ما كان معروفًا من أمية النبي ﷺ، وقد اعترف أهل الفصاحة والبلاغة بأن القرآن ليس من كلام البشر، ومنهم عتبة بن ربيعة، فإنه لما سمع القرآن من رسول الله ﷺ رجع إلى قريش، وقال: "والله، لقد سمعت قولًا ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا الكهانة، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ"، وقد ورد في القرآن الإخبار ببعض المغيبات مما سبق، وما كان في وقت نزوله وما سيقع بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ (هود) [(1)].

إن الإخبار بالغيب هو نفسه وحي من الله ﷻ، فلقد اشتمل الوحي على أخبار غيبية كثيرة كإخباره ﷺ بأمور غيبية ستقع في المستقبل وقد وقعت كما أخبر، بشكل مطابق تمامًا لتحديات الخبر، وربما قال قائل: إن توقع حدوث أشياء في المستقبل بناءً على قياس الماضي والحاضر من قِبل عالم بسنن الحياة أمر من الممكن أن تصدقه الأيام، وهذا لا مراء فيه، ولكن أمر محمد ﷺ يختلف عن هذا اختلافًا بيِّنًا.

فكثير مما أخبر به ﷺ من غيبيات، كانت الأحوال التي أنبأ الناس بها لا تؤيده، أو تومئ ولو من بعيد بحصوله، ثم إنه كان يخبر بما يخبر به جازمًا "غير متردد"، واثقًا من صدق ما جاء به أتمَّ الثقة، مما لا يكون مشابهًا لما بُني على الفراسة والدراسة والحسبان.

"إن علم الغيب يختص بالله تعالى، وما وقع منه على لسان رسول الله ﷺ وغيره فمن الله تعالى؛ إما بوحي أو إلهام، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ (النجم) فكل ما ورد عنه ﷺ من الإنباء بالغيوب ليس هو إلا من إعلام الله له به للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته ﷺ" [(2)].

فإن محمدًا ﷺ لم يكن يعلم الغيب من تلقاء نفسه، ولم يكن ممن انقطع لدراسة التاريخ، وتمحيص حوادثه، ولم تكن المقدمات الغريبة أو البعيدة تمهِّد لحدث المستقبل حتى ينسب ذلك إلى فراسة أو ذكاء، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾ (العنكبوت) [(3)].

يضاف إلى ذلك: أن الغيبيات التي تنبأ بها كثيرة

---

١. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص٣٨.

٢. حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين، يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٣٣٦ بتصرف.

٣. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، مرجع سابق، ص١٢٨.

متنوعة، منها ما هو عام، ومنها ما هو خاص محدد، منها ما هو خاص به ﷺ ومنها ما يتناول أمته، ومنها ما يتناول أعداءه.

ومع هذا كله، فلم تتخلَّف منها نبوءة واحدة، ولم يمتر الشاهدون لوقوعه في تمام التوافق مع ما أخبر كما أخبر الوحي الذي جاء به محمد ﷺ، ومن النماذج الجليّة على ذلك: قوله سبحانه وتعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ (الروم).

ذكر المفسرون: أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة إلى المدينة يقولون لهم: تزعمون أنكم ستغلبوننا بهذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ وها قد غلبت فارس الروم، وفارس ليس لها كتاب والروم أهل كتاب، فسنغلبكم كما غلبت المجوس الروم، فأنزل الله هذه الآيات يخبر بها بأن الروم ستنتصر في أقل من عشر سنين، وبأن ذلك اليوم سيكون فيه نصر للمسلمين على أعدائهم ولم تكن الأمارات والشواهد العقلية تدل على شيء من هذا، لا بالنسبة للروم ولا للمسلمين، فقد كان الروم منهكين، قد غزاهم الفرس في بلادهم وهزموهم وأثخنوا فيهم[1].

كما أن حال المسلمين كانت حالة ضعف قبل الهجرة، ولكن وعد الله تحقق، فانتصر الروم على الفرس في أقل من عشر سنين بإجماع المؤرخين، وهزم المسلمون قريشًا في بدر في الوقت نفسه[2].

ومن الدلائل الواضحة على صدق نبوته ﷺ إخباره بالعديد من الأمور الغيبية التي أثبتت الأيام والوقائع مصداقيتها، حيث وقعت بدقة على الوجه الذي أخبر به ﷺ. كيف لا، وهو الرسول المبعوث من رب العالمين، الذي لا ينطق عن الهوى.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: "لقد خطبنا النبي ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره، علِمَه من علِمَه، وجهِله من جهِله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيت فأعرف ما يعرف الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه"[3].

وعن عمر رضي الله عنه قال: قام فينا النبي ﷺ مقامًا فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظه من حفظه ونسيه من نسيه[4].

دلت هذه الأحاديث على علم رسول الله ﷺ بكثير من أخبار الغيب، وكان ﷺ يخبر بها أصحابه، وقد تحقق كثير منها في زمانه، وبعد وفاته، ولا تزال الأيام

---

١. أثخن: أكثر في القتل.

٢. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، مكتبة المؤيد، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص١٦٥، ١٦٦.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ۝٣٨﴾ (الأحزاب) (٦٢٣٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي فيما يكون إلى قيام الساعة (٧٤٤٥).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ (الروم: ٢٧) (٣٠٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي فيما يكون إلى قيام االساعة (٧٤٤٥).

تكشف عن صدق ما أخبر به ﷺ على الوجه الذي أخبر به، مما يؤكد صدق نبوته، وصدق ما جاء به عن ربه ﷻ، ولو لم يكن يوحَى إليه من علام الغيوب لخالف خبره الواقع ولو مرة واحدة، ولكن هذا لم يحدث قط؛ لأنه لا يقول من عند نفسه، بل يخبر عن الحق ﷻ، ومن ذلك إخباره بأمور غيبية حدثت في زمانه.

فعن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: "إن رسول الله ﷺ قدم من سفره فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب، فزعم أن رسول الله ﷺ قال: بُعثت هذه الريح لموت منافق، فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات" [1] [2].

و كذلك إخباره عن الماضي البعيد. فقد ذكر محمد ﷺ تفاصيل عن كافة الأمم التي هلكت وأُبيدت، كقصة إبادة قوم نوح، وإبادة قوم مدين "مديان"، وكيف أُبيد قوم لوط "سدوم"، وهي أقوام أُبيدت يعرفها أهل التوراة والإنجيل.

وقد تحدث النبي ﷺ عن شعوب عربية أُبيدت نتيجة كفرها بالله وأنبيائه، حيث شتَّت الله شعب سيل العَرِم الذي هدم الله لهم السدَّ، فكان سببًا في هجرة اليمنيين إلى أنحاء الجزيرة العربية والشام[3].

وقد أخبر محمد ﷺ عن فتح مكة قبل فتحها بثلاث

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة (٧٢١٨).
2. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٢٤٩، ٢٥٠.
3. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٢١٣.

سنين، قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (الفتح: ٢٧).

ومن الغيبيات المستقبلية التي أخبر بها النبي ﷺ عن طريق الوحي هزيمة المشركين في غزوة بدر، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ (القمر).

فقد نزلت هذه الآية بمكة والمسلمون مستضعفون فلم يدروا ما هذا الجمع الذي سيُهزم ولا المراد من الآية، فلما كان يوم بدر وكان بعد سبع سنين من نزولها، وفي قبة يقول: "اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم"، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ (القمر)[4].

ومما سبق يتبين لنا أن كل ما أخبر به النبي ﷺ من غيبيات هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأن ما أخبر به ﷺ هو وحي من الله تعالى الذي يعلم السر والخَفَى، ويعلم ما كان وما سوف يكون، وهو القادر على أن يطلع من يشاء من عباده على ما يشاء من علمه وغيبه، يقول ﷻ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن)®.

4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب (٢٧٥٨).

® في **"نفي كون القرآن من صنع البشر"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي). في **"إطلاع الله نبيه ﷺ على بعض الغيبيات"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السادسة والعشرين، من هذا الجزء.

الخلاصة:

- إن الغيب علم استأثر به الله ﷻ دون سائر الخلق، لا يطَّلع أحد منهم على شيء من ذلك إلا إذا أطلعه الله سبحانه وتعالى حتى الأنبياء والرسل والملائكة.

- إن رسول الله ﷺ خير الخلق - الذي اصطفاه الله ﷻ لحمل رسالة السماء إلى الناس كافة - يصرِّح بأنه لا يحيط بشيء من علم الغيب إلا إذا كشف الله له من ذلك شيئًا؛ لأنه مثل سائر البشر، قال ﷻ حاكيًا عن نبيه: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الأنعام)، وقال ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (الأعراف)، فهذه الآيات تؤكد أن رسول الله ﷺ لا يعلم من الغيب شيئًا إلا ما أوحى الله به إليه، وفي هذا دليل قاطع وبرهان ساطع على نبوته ﷺ وصدقه في كل ما أخبر به.

- من معجزات النبي ﷺ إخباره بالغيب، وهذه سنة من سنن الله الكونية أن يُطلع بعض رسله على بعض غيبه، دلالة على صدق نبوتهم ومعجزة لهم؛ ليتيقن الناس من صدق حديثهم، خاصة وأن هذه الغيبيات، حدثت كما أخبر بها النبي ﷺ عن ربه، يقول ﷻ: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الجن).

- هناك فرقٌ شاسع بين معجزات الأنبياء التي أجراها الله ﷻ على أيديهم وبين مخاريق السحرة والكهان ومن لهم اتصال بالجن. فلهؤلاء قدر لا يعدونه ومدى لا يجاوزونه، فلا يصح أن تقارن مخاريقهم بمعجزات الأنبياء الكبرى.

- لا وجه لكلام من يدَّعي أن الجن يعلِّمون الناس الغيب؛ إذ إن الجن أنفسهم لا يعلمون الغيب ولا قدرة لهم على معرفته، وغاية ما كانوا يصلون إليه إنما هو نوع من استراق السمع الذي تتربص لهم فيه الشهب الثواقب.

- من وجوه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن الغيوب في كثير من آياته، سواء الغيوب الماضية منها أو المستقبلية، وما تخفي الصدور وتكنُّ القلوب، وهذا أعظم الأدلة على أن القرآن الكريم كلام رب العالمين، وليس كلام البشر؛ لأن هذه الأخبار جاءت الأحداث تصدقها، وليس هذا لأحد إلا لعلام الغيوب الذي يعلم السر وأخفى، وما كان وما سيكون إلى يوم القيامة. فهل يصح بعد ذلك أن ينفي مدَّعٍ الصلة القائمة بين علم الغيب والوحي المحمدي؟!

المصادر والمراجع

- الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، مصر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الإسلام والغزو الفكري، د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، إدوارد جيبون، ترجمة: محمد سليم سالم، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ت.
- أعلام النبوة، أبو الحسن الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- انتشار الإسلام والجهاد: افتراءات غربية وحقائق إسلامية، محمد علوان، دار التعاون، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق: شخصيته وعصره، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد ﷺ، عبد الرحمن عزام، دار الهداية، القاهرة، دار القلم، الكويت، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، مصر، ط١، ١٩٩١م.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، القاهرة، د. ت.
- تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام مقبل المجيدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب، د. محمد أبو ليلة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

- حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين، يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، وجرونباوم، ترجمة: عبد العزيز جاويد، وعبد الحميد العبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- دفع الشبهات عن السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- دلائل النبوة، أبو بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء القرآن والسنة، د. عماد السيد الشربيني، دار الصحيفة، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.
- الرد على القس الأمريكي في افتراءاته على رسول الإسلام ﷺ، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مكتبة الإيمان، مصر، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الردُّ على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين"، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد علي، مطابع الولاء، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعاملاته مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مطبعة رشوان، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
- الرسول ﷺ، سعيد حوّى، دار السلام، مصر، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، د. ت.
- السنة النبوية الشريفة، د. أحمد محمود كريمة، مكتبة الأزهر، القاهرة، ١٤١٨هـ.
- سيد رسل الله وأباطيل خصومه، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: محمد بيومي، دار الحرم للتراث، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- السيرة النبوية: عرض وقائع وأحداث، د. علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، د. ت.
- الصلاة، د. عبد الله بن محمد الطيار، جامعة الإمام، السعودية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- صورة الإسلام في الإعلام الغربي، محمد بشارى، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.
- ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- عبقرية محمد ﷺ، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، مصر، د. ت.

- عصمة الأنبياء، الإمام فخر الدين الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- عصمة الأنبياء عن الزلات والأخطاء، أبو بكر أحمد الباقوري، دار الطباعة والنشر، جامعة مركز الثقافة السنية، الهند، ط٢، د. ت.
- عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، دار مكة المكرمة، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مكتبة فياض، مصر، ٢٠٠٥م.
- عقيدة التوحيد، د. صالح الفوزان، دار القاسم، الرياض، د. ت.
- فرسان الكتاب والسنة، د. يوسف القرضاوي، دار ابن لقمان، مصر، د. ت.
- فقه السنة، السيد سابق، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، كارين أمسترونج، ترجمة: فاطمة نصر، ومحمد العناني، دار الكتب المصرية، ١٩٩٨م.
- القرآن واليهود، منصور الرفاعي عبيد، مركز الكتاب للنشر، مصر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.
- قوانين النبوة، موفَّق الجوجو، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٢٥، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ، باسم خفاجي، مجلة البيان، الرياض، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- مجموعة التوحيد، ابن تيمية، محمد بن عبد الوهاب، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- محبة النبي ﷺ وتعظيمه، عبد الله بن صالح الخضيري، عبد اللطيف بن محمد الحسن، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، دار المحبة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، حسن عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- مختصر تفسير الطبري، أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبي، دار المنار، القاهرة، د. ت.
- المدخل إلى السنة النبوية، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- مشكلات الأحاديث النبوية، عبد الله القصيمي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م.
- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، مكتبة المؤيد، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- المصطفون الأخيار، عطية صقر، دار مايو الوطنية للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مع المصطفى، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- معجزات الرسول ﷺ التي ظهرت في زماننا، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- المعجزة المتجددة في عصرنا: الإسلام، صالح بن محمد اليافعي، دار القمة، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٧م.
- مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة، الإمارات، ١٤١٨هـ.
- موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- النبوات، تقي الدين أحمد بن تيمية، تحقيق: الشحات الطحان، مكتبة فياض، القاهرة، ٢٠٠٥م.

- النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد أحمد سيد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- النبي محمد، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت.
- نقد كتاب "حياة محمد"، عبد الله بن علي النجدي القصيمي، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.
- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: سمير عبد العزيز إبراهيم، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- هدي الساري مقدمة فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار الريان، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- وامحمداه.. الحميم والنار على من سبَّ النبي المختار، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، طبعة خاصة، ط١، ٢٠٠٦م.
- وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الثاني: الرسول

المجلد الثاني

ج ٣

شبهات حول
عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته



العنوان:

موسوعة بيان الإسلام
الرد على الافتراءات والشبهات
القسم الثاني: الرسول
المجلد الثاني (ج٣، ج٤)

إشراف عام:

داليـا محمـد إبراهيـم

الترقيم الدولي: 977-14-4273-2
رقم الإيداع: 2010/10917
الطبعة الأولى: يناير 2011



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفـون: 33466434 - 02 33472864
فاكـس: 02 33462576
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com